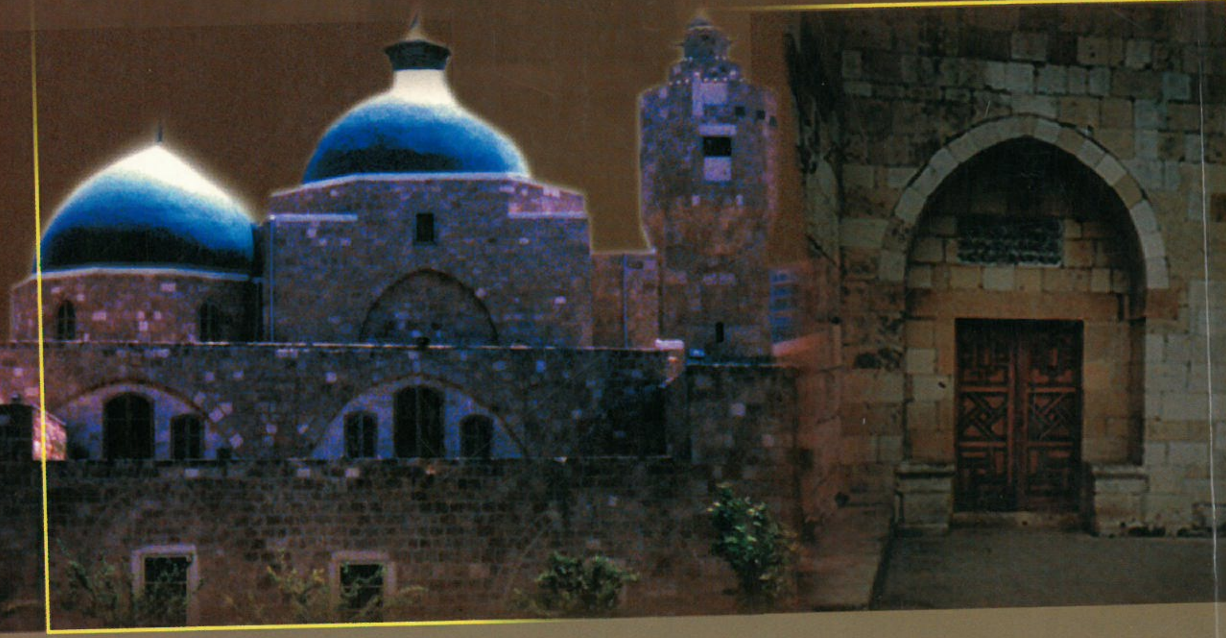
لبنان
في العهد المملوكي
أهم الآثار الدينية



د. مصطفى محمود سبيتي
أستاذ في الجامعة اللبنانية



دار المواسم
للطباعة والنشر والتوزيع

المماليك
وآثارهم الدينية في لبنان

(648هـ ـ 1251م/ 922هـ ـ 1516م)

بيروت ـ صيدا ـ بعلبك ـ طرابلس

د. مصطفى محمود سبيتي
أستاذ في الجامعة اللبنانية



دار المواسم
للطباعة والنشر والتوزيع

ISBN 978 - 9953 - 508 - 08 - 5

الطبعة الأولى: 1429 هـ ـ 2008م



دار المواسم
للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: 236 890 (3 00961) - تلفاكس: 933 734 (009617)
ص.ب: 5866 / 13 الرمز البريدي: 2080 1102 بيروت - لبنان
بريد إلكتروني: mawassem@hotmail.com

الإهداء

إلى إخوتي، أبنائي، طلابي، أحبائي،

وإلى كل باحث في تراث أمتنا الخالد.

أهدي عملي هذا،

علّه يكون لقاء في محطة، أو جواباً عن سؤال.

د. مصطفى سبيتي

تمهيد

يتناول هذا الكتاب بحثاً تاريخياً وأثرياً لمعالم دينية في مدن لبنانية, لعبت دوراً مهماً في تاريخ لبنان، وعبر حقبة طويلة ممعنة في القدم.

الا ان هذه المعالم لم تحظ بالاهتمام الذي تستحق من قبل فريق كبير من الباحثين، الذين اشتغلوا في هذا المجال التاريخي والأثري. خاصة في فترة الحكم المملوكي، ربما لضيقها في اطار تطلعاتهم الواسعة، التي شُغلت بأحداث وبقايا ممالك وأمبراطوريات أكثر قدماً، أو أكثر حداثة، أما من تسنت له فرصة التركيز، فقد جاء بحثه شاملاً مناطق معينة دون الكل.

ويتبادر إلى ذهن القارئ في عجلة الإلتفاتة، ان المسألة موضوع البحث هي من المسائل الاعتيادية، التي اعتاد الناس عليها، وتلازمت مع مسيرة حياتهم، فلا تشكل لهم في النهاية شيئاً مميزاً جديداً يلفت انتباههم، ويدفع بتفكيرهم الى الغوص فيها لجلاء امور غامضة بالنسبة اليهم، تعود الى عصور غابرة اكثر غوصاً في القدم، والتي تحرك عندهم لذة التأمل والتفكير في تلك الأساطير والحروب والكنوز التي طالما سمعوا بها، ودارت أحداثها في مخيلتهم.

والواقع ان هذا التوجه في التفكير لا يناقض جوهر المسألة التي أنا بصددها، ذلك ان تلك الاثار، بقيت مبسوطة الكف لخدمة الإنسان وظلاً ثابتاً

ومتواصلاً يرافق تحركاته، وشكلت جزءاً من تاريخه القديم، وكذلك الحديث وتعكس بالتالي نشاطاته الحضارية عبر العصور المختلفة، وتبين لنا الأنماط المعمارية المتنوعة، والتي تدخل في اطار تحرك الشعوب السياسي، وهي تسعى الى السلطة او الغلبة.

إن إيراد المعلومات التاريخية، وابراز حقيقة تفاعلها وفعلها في سير التاريخ ومجرى الزمن، ليست جمعاً للمعلومات وتأريخاً للأحداث لمجرد أنها احداث، بل لاظهار حقيقة تاريخية جوهرية ملموسة. تكمن بتوضيح تحركات الشعوب والأمم ضمن الإطار العام للتاريخ، مرتكزة الى الاسباب والوقائع التاريخية، التي تنتج بالضرورة هذه التحركات والنشاطات.

فالموضوع التاريخي والأثري الهام، إذا عولج دون مقدماته وأسبابه وظروفه، يبقى مبتوراً ومجتزءاً، وعسيراً على الفهم والإدراك. ومن الحقائق والبديهيات أن كل الأحداث التاريخية لا تفهم إذا ما عزلت عن حركة التاريخ العامة والشاملة بما يحدها ويتعلق بها من حدود الزمان والمكان. لذلك فإن للتاريخ وللآثار أسباباً وظروف تسمى وقائع، تنتج عن فعل عقلي منطقي يحرك عجلة الزمن، ويصوغ حركة التاريخ الدائمة حتى الأزل.

فالتاريخ والآثار تلازما منذ فجر الحضارة الإنسانية، حيث لا تاريخ بدون أثار، ولا اثار بدون تاريخ يرشد اليها. وهما في النهاية تسجيل لتحركات الشعوب البشرية على وجه الكرة الأرضية، وتسطير للأحداث العامة ذات العلاقة باستيطان الاقاليم، من قبل هذه الشعوب ومدى فعاليتها في الخضم العلمي العام وذكر ما بلغته من علم وفن ورقي حضاري. وما اشترعت من انظمة وقوانين، وذلك لتسهيل سبل حياتهم العملية.

إن الحروب بما عرفت به من أنها جالبة للماسي والمصائب، ومحدثة للموت والخراب، فإن لها وجهاً اخر يكون عامل اتصال بين الامم تظهر فيه حضارتها، وما هي عليه من رقي وتقدم، فيظهر الإبداع في مختلف مجالات الحياة من علم وفن وعمارة.

وقد قامت في العالم الإسلامي طرز وأنماط ومدارس واساليب فنية، كانت تتطور بتطور العصور وتتأثر بالأحداث السياسية والإجتماعية، وكانت الفروقات بين هذه الطرز والأنماط، أوضح ما تكون في العمارة.

إن قوة المماليك ظهرت، منذ أن إستكثر منهم الصالح نجم الدين ايوب وجعلهم بطانته، واستظل المماليك في دولتهم بظل الإسلام، واستندوا إلى القوة في تدعيمها وفي الوصول الى السلطة. ولما كان سندهم الشرعي هو الإسلام فقد حرصوا على التمسك به، وإبراز الإهتمام بالدفاع عنه وعن مقدساته، وبدت مظاهر هذا الإهتمام في الرعاية للخلافة الإسلامية والإهتمام بها شكلاً، وقد سعى السلطان الظاهر بيبرس، رابع سلاطين المماليك، الى إحضار أحد خلفاء العباسيين، وأقامه خليفة في مصر، ليمثل السلطة الدينية، ويجمع شمل العالم الاسلامي حول ملوك مصر، الذين آلت اليهم مهمة الدفاع عن الإسلام بعد سقوط بغداد، ومقتل اخر خلفائها سنة 656هـ/ 1261م، على أيدي التتار بقيادة هولاكو.

وقد إستطاع بعض سلاطين المماليك كالظاهر بيبرس وسلاطين آل قلاوون ان يؤمنوا لبلادهم خلال فترة حكمهم، إستقراراًسياسياً، وإزدهاراً إقتصادياً، بحسن سياستهم وقوتهم ومعاهداتهم. مما أدى إلى غنى الحكام والأمراء والتجار. وهذا ما ساعدهم على الإهتمام بالشؤون العلمية والعمرانية، ووقف الأوقاف الكثيرة عليها، تمشياً مع حماسهم الديني، وخدمة لتطلعاتهم السياسية، بالإضافة الى خوفهم من سياسة مصادرة الثروات التي دأب سلاطين المماليك على ممارستها. وليس أدل على ذلك من قول ابن خلدون في مقدمته.

«إن امراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يختلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق أو الولاء، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته، فإستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركاً لولدهم ينظر عليها او يصيب منها، مع ما فيهم غالباً من الجنوح الى الخير والتماس الأجور في المقاصد والأفعال. فكثرت الأوقاف

لذلك، وعظمت الغلات والفوائد، وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها».

ومهما كانت الأسباب الكامنة وراء هذا الحماس، في رصد الأوقاف وإقامتها، فإنه كان من نتيجة هذا الحماس الوقفي، سلسلة طويلة من الجوامع والمدارس والخانقاوات والزوايا والأربطة والبيمارستانات وغيرها من المؤسسات الدينية والمراكز الإجتماعية. وكان لإيجاد هذه المراكز وما وفرته من خدمات دينية وإجتماعية وتعليمية، يمثل في حد ذاته إزدهاراً لا يخفى على أيّ باحث في تاريخ دولة المماليك.

ويعتبر عصر دولتي المماليك البحرية والبرجية، العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر وبلاد الشام. فقد كان الإقبال عظيماً على تشييد العمائر، من جوامع ومدارس وأضرحة وأسبلة وتكايا وزوايا وخانقاوات. وقد ظهر التنوع والإتقان والأناقة في شتى العناصر المعمارية من واجهات ومنارات وقباب وزخارف جصّية ورخامية مختلفة.

وقد إمتازت مدينة طرابلس عن بقية المدن اللبنانية، بكثرة المساجد والمدارس الموجودة فيها، بحكم كونها مركز نيابة للسلطنة المملوكية في مصر، وقد ذكرها الرحالة النابلسي بقوله:

«وأعلم أيضاً أن ببلدة طرابلس المحميّة مدارس وزوايا ومساجد لا تعدّ ولا تحصى، وسمعنا أنه كان بها ثلاثمائة مدرسة، ولكن الآن أكثرها متهدّم وغالبها مهجور».

كذلك إنشأ المماليك الكثير من الأبنية الدينية في بقية المدن مثل: بعلبك، بيروت، وصيدا، وبرغم أن اغلبها إندثر وطمست معالمه، ومع أنها ليست بضخامة وفخامة مثيلاتها في بقية الأقطار العربية، غير أنها تحتفظ بخصائص ومميزات هذه الأبنية، وما تبقى منها يعتبر خير شاهد على الطرز المعمارية الدينية للعهد المملوكي في لبنان.

هكذا الحياة وسننها عجلتها تدور ولا يبقى شيء على حاله، تذهب الشعوب وتفنى الأمم، وتبقى آثارهم شاهدة على صروح شامخة، قمة في الفكر والإبداع، تنبئ عن حضارات سادت قروناً طويلة ثم بادت.

لقد قامت دولة المماليك في مصروبلاد الشام، وعاشت طوال قرون ثلاثة تعاقب خلالها على الحكم منهم فرقتان، الأولى المماليك البحرية 684هـ/ 1250م ـ 784هـ/ 1382م، والثانية المماليك البرجية 784هـ/ 1382م/ 923هـ ـ 1517م.

لقد ساهم في اختيار هذا الموضوع للدراسة عاملان:

الأول: أن عصر المماليك ليس عصراً عادياً من العصور الهادئة قي التاريخ وإنما عصر حركة دائمة ونشاطاً صاخباً. في الخارج حروب وتوسع، وفي الداخل مبالغة في إحياء شعائر الدين، وإقامة المنشآت الدينية.

الثاني: لاستعادة تلك الرموز ذاكرتها التاريخية. والقاء الضوء على هذه المعالم الدينية في مختلف المناطق اللبنانية.

وتظهر أهمية هذه الدراسة في إبراز جمالية هذه الآثار الدينية والفنون المرافقة لها، لأنها تشكل احد المداخل المهمة لإلقاء الضوء على التاريخ الفني للعمارة المملوكية، الذي ننظر من خلاله الى تلك الحقبة المميزة عبر العصور الإسلامية المختلفة.

وسوف أتناول هذا الموضوع عبر سبعة فصول:

- **الفصل الاول**: تناولت فيه اصل المماليك وبروزهم على مسرح الأحداث، والعوامل التي ساعدت على قيام دولتهم، وأشهر سلاطينهم، وسيطرتهم على لبنان.
- **الفصل الثاني**: تكلمت فيه عن الإزدهار العمراني في العهد المملوكي، وأنماط الزيادات والزخارف. التي تميزت بها الهندسة المعمارية في ذلك العهد.

- **أما الفصل الثالث:** فعرفت فيه اماكن العبادة الدينية. والفرق بين المسجد والجامع.
- **وخصصت الفصل الرابع:** لمدينة بيروت وأهم اثارها التي تعود إلى الحقبة المملوكية من: (جوامع، مساجد، وزوايا).
- **الفصل الخامس:** كان عن مدينة صيدا ومعالمها الأثرية الدينية التي تعود للحقبة المذكورة، وألحقته دراسة عن جامع الأمير فخر الدين المعني الأول في دير القمر، الذي يعود الى الحقبة المملوكية نفسها.
- **أما الفصل السادس:** فخصص لمدينة بعلبك وأهم معالمها الدينية المملوكية من (جوامع، مساجد، وزوايا).
- **وجُعل الفصل السابع:** لمدينة طرابلس في العهد المذكور، وأشهر المعالم الأثرية الدينية المملوكية فيها من: (جوامع، مساجد، مدارس، زوايا، وخانقاوات).

وزودت الكتاب جدول بأسماء سلاطين المماليك وتواريخ حكمهم، وأثبتُ فيه قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدتها، كما زودته بفهرس للأعلام وفهرس بالمحتويات.

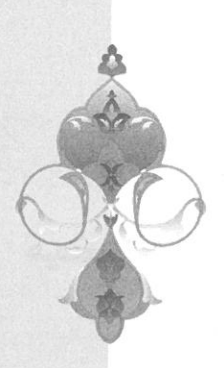
وقد اعتمدت بشكل اساسي في إيضاح هذه الآثار على شروح تفصيلية متضمنة صوراً فوتوغرافية لكل معلم من المعالم الدينية، بحيث تمكّن الباحث والقارئ من الوصول الى ادق المعلومات والحقائق التاريخية، بأسهل الطرائق وأبسطها.

إن هذا الكتاب هو مجرد نافذة على إدراك حقيقة هذا التراث وجمالية تلك الآثار المعمارية وتاريخها، دعوته نافذة كوني في الأساس حددت زماناً ومكاناً معيناً حصرت خلاله بحثي، وبالتالي باتت الدراسة محصورة في ميادين محددة، آخذاً بالإعتبار أن هذه الميادين تشكل جوهر الموضوع الذي بحث، ودعوته نافذة أيضاً لفتح المجال أمام أبحاث مستقبلية لاحقة تعتمد بحثي، بهدف التوسع

بما ورد به، من جميع الجوانب، وتوسيع دائرة دراسة فن العمارة الإسلامية، بحيث تشمل المباني ذات الوظائف المختلفة، وبإدخال فنون مهمة أخرى كفن الزخرفة والمنمنمات.

نستنتج في ختام هذا البحث المتواضع كلمة صغيرة منبثقة من تاريخ أجدادنا، الذين أبدعوا على مدى القرون، فصنعوا التاريخ. ففي وقت من الأوقات يُتاح للإزدهار فرصة الوجود، وذلك عند تلاقي أعمال النخبة، مع مثاليات عامة الناس، وأعني بذلك الأمة، فلدى الأمة نجد المخزون الفطري، الذي يحتضن نقاوة الماضي وحقيقة الحاضر وتطلعات المستقبل وآماله، أي نجد الأصالة وسر التجديد وهي المادة المطلوبة في جميع مجالات الإبداع. آملاً ان يؤدي هذا الكتاب دوره في خدمة طلاب المعرفة التاريخية والأثرية، والباحثين على امتداد مساحة الوطن العربي، ويسهم في تغذية المكتبة العربية بلبنة مهمة من هذه الدراسات الأكاديمية. ولا أقول اني وفيت هذا البحث حقه الكامل الا انني بذلت قصارى جهدي، والله ولي التوفيق.

د. مصطفى محمود سبيتي



الفصل الأول

الدولة المملوكية

1 ـ تعريف المماليك.

2 ـ بروزهم على مسرح الأحداث.

3 ـ تسلمهم الحكم.

4 ـ العوامل المساعدة على قيام دولتهم.

5 ـ الحقبة المملوكية الأولى: دولة المماليك البحرية:

● أشهر سلاطينهم:

أ ـ السلطان الظاهر بيبرس.

ب ـ سلاطين آل قلاوون.

6 ـ الحقبة المملوكية الثانية: دولة المماليك الجركسية أو البرجية.

● أشهر سلاطينهم:

أ ـ السلطان الظاهر برقوق.

ب ـ السلطان الناصر فرج بن برقوق

7 ـ تقسيم بلاد الشام.

الدولة المملوكية

من خلال دراسة التاريخ، ومتابعة سير أحداثه عبر الزمن، يتبين لنا أن الأحداث تسير من خلال نمطين مختلفين:

النمط الأول: وهو الحدث العارض، الذي يطفو على سطح الواقع، بلا مقدمات ولا جذور في الماضي الخفي أو المنظور، وقد يكون مثيراً لفجائيته، ككل فعل مباغت ثم لا يلبث أن يخبو فعله، ويندثر زخمه، في زاوية من ذاكرة الزمن.

أما النمط الثاني: الفاعل، فهو الحدث القاطع الذي بتر رتابة الزمن في المكان والزمان، من خلال سير أحداثه، فكان بداية التغيير، وفاتحة الانطلاقة للجديد.

إن المؤرخ الباحث، هو القادر على أن يربط بداية التأثير بخط النهاية، بحيث يكون بين السبب والمسبّب حقب وعهود مترابطة.

إن بروز الدولة المملوكية على مسرح التاريخ، هو من نوع هذا الحدث الفاصل في التاريخ الإسلامي، الذي يقوم في الأصل على أنقاض الأحداث التي سبقته، لينشئ معالم حضارة وحياة جديدة.

وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: من هم المماليك؟ ما هو أصلهم؟ وما هي أعمالهم وأهم آثارهم في لبنان.

1 ـ تعريف المماليك:

هم طائفة من الأرقاء[1]، بيعوا كعبيد، ثم كثر عددهم وحكموا مصر، وامتدت سيطرتهم إلى بلاد الشام. وقد عاش المماليك أثناء فترة حكمهم كطائفة منعزلة عما حولها، ولم يختلطوا بأهالي البلاد التي حكموها، واحتفظوا بالجندية لأنفسهم، أما الشعب فكان البارزون منه يتولون وظائف القلم، والباقون منه كانوا مقهورين يعيشون حياة الفقر والعجز. وهكذا كان المجتمع ينقسم بين نخبة حاكمة هم المماليك، وأكثرية محكومة هم الشعب.

هذا المجتمع المملوكي لم يكن متماسكاً متحداً، بل كان منقسماً ومتناحراً، إذا إنقسم المماليك إلى فئات عديدة، كل فئة تتبع أميراً لها وتعرف باسمه، فكثرت المؤمرات فيما بينهم وكانت الغلبة في مجتمعهم للأقوى، ولهذا اهتم الأمراء منهم في الإكثار من المماليك ليكونوا لهم عوناً في الوصول إلى الحكم، ولكن هذا التناحر والانقسام فيما بينهم لم يمنعهم من الإتحاد حين يواجهون خطراً خارجياً.

ومن خواص المماليك جميعاً، هو الصلاح في نظر الشعب والتمسك بقواعد الدين من صلاة وزكاة، وتشييد للعمائر الدينية والإجتماعية، بينما لا يتورعون في حياتهم الخاصة عن ممارسة أشنع المنكرات والتعسف، دون إكتراث بأبسط المبادئ الإنسانية.

أما وجودهم في العالم الإسلامي فيعود إلى ما قبل قيام دولتهم بأمد طويل[2]، وكان أول من إستخدمهم هو الخليفة العباسي المأمون 198 ـ 218هـ

(1) الرق: وهو تملك الإنسان لإنسان آخر، وممارسة حق الملكية عليه، وهو حق أنشأته القوة، التي كانت وما زالت تنشئ كثيراً من الحقوق متحدية أحكام العقل والضمير.

(2) أدى ضعف الدولة العباسية من جهة، ورغبة حكام الولايات في الاستقلال من جهة أخرى، إلى اعتمادهم على ما يشترونه من مماليك في تأليف جيوش يحققون بها مطامعهم.

/ 813 ـ 833م، إذ كان في بلاطه بعض المماليك المعتقين، ثم الخليفة العباسي المعتصم 218 ـ 227هـ / 833 ـ 842م، الذي إستخدم فرقاً من الأتراك لتدعيم سلطته[1]، وكان سبب إستخدام الخليفة المعتصم للأتراك، هو إعتقاده بأنهم مجردون من الطموح الذي إتصف به الفرس، ومن العصبية التي عرف بها العرب. ونحا الطولونيون هذا النحو، فأكثروا من شراء المماليك الذين بلغت عدتهم حوالي أربعة وعشرين ألفاً[2].

كذلك كان شأن الإخشيديين، فأشتروا الأتراك والديلم وقد بلغت عدتهم في مصر والشام ثمانية آلاف مملوك[3].

وعندما جاء الفاطميين الى مصر سنة 358 هـ/ 969م، كانوا في حاجة الى جيش كبير ليوطد أركان دولتهم فيها، ويسهل عليهم مد سلطانهم الى بلاد الشرق، وكان جيشهم في بادئ الأمر مؤلفاً بمعظمه من المغاربة، فأضافوا إليه في مصر الأتراك والأكراد والغز والديلم[4].

(1) السيوطي، تاريخ الخلفاء، بيروت، دار الفكر، 1974، ص 222.
إبن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، دار المعارف، 1951م، ج 1، ص 37.
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1930 ـ 1939م، ج 3، ص 256.

(2) فطولون الذي أسس ابنه أحمد الدولة الطولونية في مصر، كان مملوكاً تركياً آل الى الخليفة المأمون العباسي. وعندما طمع ابنه أحمد بن طولون في الإستقلال بحكم مصر، رأى ان يدعم إستقلاله بقوة ضاربة من المماليك الديالمة والأتراك.
ابن أياس، مصدر نفسه، ج 1، ص 37.

(3) ابن تغري بردي، مصدر نفسه، ج 3، ص 59، 256.

(4) الأكراد: جنس من المماليك، وبلادهم تدعى كردستان، وهي القسم الغربي من إيران وتتاخم ولايات العراق العربي وخوزستان والعراق الفارسي وأذربيجان ودياربكر، ومنهم كان السلاطين الأيوبيين.
الغز: وهم ينتسبون الى أحدى قبائل التركمان، وبلادهم تمتد من بحر الخرز الى أواسط مجرى نهر داريا.
الديلم: وهم جيل من الأعاجم سكنوا هذه البلاد فعرفت بهم، ومنهم كان ملوك بني بويه. بلادهم جبال متسعة، وقاعدتهم روز بار، ويحدها من الجنوب بحر قزوين والطرم وشيئ من أذربيجان وبعض الري، ومن الشرق طبرستان، ومن الشمال بحر الخرز، ومن الغرب اذربيجان.
ـ ابن حوقل، صورة الأرض، ص 318.

وعندما حكم الأيوبيون سنة 567هـ ـ1171م، نهجوا نفس السبيل، وأكثروا من شراء المماليك[1]، وقام السلطان الصالح نجم الدين أيوب[2] في سنة 639هـ ـ1240م، بشراء الكثير منهم، بنى الثكنات لهم في القلعة التي أنشأها سنة 638هـ ـ1240م، في جزيرة الروضة في النيل، وانتقل إليها مع أفراد عائلته. وفي هذا يقول المقريزي: «والملك الصالح هو الذي أنشأ المماليك البحرية بديار مصر، فصاروا بطانته المحيطين بدهاليزه، وسماهم البحرية لسكناهم معه في قلعة الروضة على بحر النيل»[3].

2 ـ بروزهم على مسرح الأحداث:

بعد ثماني سنوات من سلطنة الصالح نجم الدين أيوب، أي في سنة 646هـ ـ 1248م، كانت حملة لويس التاسع (Louis IX) على مصر، في وقت كان سلطانها مريضاً، فإستولى لويس التاسع على دمياط سنة 647هـ ـ 1249م، بغير قتال[4].

ولم يلبث أن توفي الملك الصالح في المنصورة في السنة نفسها، وجاءت وفاته في تلك الظروف الحرجة خسارة جسيمة، لعدم وجود من يحل محله بسرعة في حكم البلاد، وفي مواجهة الخطر الصليبي. وكان للصالح أيوب ولد واحد أسمه توران شاه وهو شاب عديم الخبرة، عينه والده نائباً عنه في حصن كيفا[5].

(1) ابن تغري بردي، مصدر سابق، ج 6، ص 319.
(2) هو السلطان الصالح نجم الدين أيوب، السلطان ما قبل الأخير من سلاطين الدولة الأيوبية في مصر.
(3) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق مصطفى زيادة، القاهرة، 1934- 1942، ق 2، ص 339 ـ 340.
Heyd, W., Histoire du commerce du levant au moyen age, Lepzig, 1985, T. 1, p. 260.
(4) المقريزي، الخطط المقريزية، دار صادر، بيروت، د.ت، ج 1، ص 219.
(5) حصن كيفا: ويوجد بين جزيرة إبن عمر وميافارقين بديار بكر، وهو في الأراضي التركية اليوم.

وكانت الظروف الحرجة تتطلب إخفاء خبر وفاة الملك الصالح، حتى لا يتجرأ الصليبيون على مهاجمة البلاد. فقامت زوجته شجرة الدر بتدبير أمُور الدولة بعد ان تكتمت على خبر وفاته، وأرسلت تستدعي ولده المعظم توران شاه من حصن كيفا[1].

ولكن نبأ وفاة الملك الصالح تسرب إلى لويس التاسع قائد الحملة الصليبية، فرأى ان يسرع بتوجيه ضربته قبل ان ينظم المسلمون صفوفهم. ولهذا تقدم الصليبيون إلى المنصورة ودخلوها حتى وصلوا إلى باب قصر السلطان، وقتل الأمير فخر الدين يوسف قائد الجيش المصري، وبينما الحال على ذلك ظهرت فرقة المماليك البحرية وهاجمت الفرنج بقيادة ركن الدين بيبرس، فرجحت كفة المسلمين عليهم وأبعدوهم عن باب القصر[2].

وفي أثناء ذلك وصل توران شاه الى مصر سنة 647 هـ ـ 1250م، عندها أعلنت شجرة الدر وفاة زوجها، وسلمت توران شاه السلطة. فقاد الجيش وحاصر القوات الصليبية التي إنسحبت الى دمياط، ودار القتال في فارسكور، وإنتهى الموقف العسكري لصالح الجيش المصري، ووقع لويس التاسع ومعظم الجيش الصليبي في الأسر[3]. كان من الطبيعي ان يشعر هؤلاء المماليك بأهميتهم بعد هذه المعركة الكبيرة داخل مصر، حتى ان السلطان توران شاه توجس خيفة من نفوذهم، فارتاب منهم وحاول ابعادهم وكسر شوكتهم، فقرب إليه مماليكه وسلمهم المناصب الهامة، واضمر للمماليك البحرية الشر[4]. ولم يكتف بذلك، بل قابل معروف شجرة الدر بالتنكر لها، فطالبها بمال أبيه، فخافت منه واتصلت بالمماليك البحرية وأخبرتهم بما حدث لها من السلطان.

(1) ابن تغري بردي، مصدر سابق، ج 6، ص 364.
(2) المقريزي، السلوك، ج 1، ق2، ص 345.
(3) المقريزي، مصدر نفسه، ج1 ، ق 2، ص 356.
(4) ابن تغري بردي، مصدر نفسه، ج 6 ، ص 370.

كل هذه الأمور جعلت المماليك يحنقون على توران شاه ويجمعون على التخلص منه[1].

قال المقريزي: «وبقتل المعظم توران شاه انقرضت دولة بني أيوب في أرض مصر، وكانت مدتهم أحدى وثمانين سنة، وعدة ملوكهم ثمانية»[2].

3 ـ تسلمهم الحكم:

بعد مقتل المعظم توارن شاه، إجتمع الأمراء والمماليك البحرية وأعيان الدولة للتشاور في أمر السلطنة، واتفقت الآراء على تنصيب شجرة الدر سلطانة على مصر، وان يكون مقدم الجيش الأمير عزالدين ايبك[3]. وأقسم الأمراء والعساكر على ذلك، وخرجت المراسيم والتواقيع وعلامتها عليها (والدة خليل)، وخطب لها على منابر مصر، ونقش اسمها على السكة ومثاله: «المستعصمية الصالحية، ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين»[4].

وعلى الرغم من قدرة السلطانة شجرة الدر على إدارة شؤون الحكم، وحب الناس والمماليك لها، الا ان ظروفاً أخرى كانت تقف أمامها، فقد عارض بقايا الأسرة الأيوبية في بلاد الشام، إنتقال السلطة في مصر إليها. أما موقف الخليفة العباسي في بغداد من تطور الأحداث في مصر، فأنه غضب لتولي شجرة الدر الحكم وأرسل الى الأمراء في مصر يقول لهم: «ان كانت الرجال قد عدمت عندكم فإعلمونا حتى نسير إليكم رجلا»[5].

---

(1) المقريزي، المصدر السابق، ج 1، ق2، ص 360.

(2) المقريزي، الخطط، ج 2، ص 236.

(3) هو عز الدين ايبك التركماني نسبة الى أسياده أولاد التركماني، وهم بنو رسول الذين استقلوا باليمن، ثم أنتقل الى خدمة الملك الصالح أيوب.
ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج 7، ص 19.

(4) المقريزي، السلوك، ج 1، ق2، ص362

(5) المقريزي، المصدر نفسه، ج 1، ق2، ص 368.

وأمام الخطر الأيوبي القادم من بلاد الشام، وتحذير الخليفة العباسي لإستمرار شجرة الدر في الحكم، عرض أمراء المماليك على شجرة الدر ان تتزوج الأمير عز الدين ايبك مقدم العسكر، فوافقت على ذلك، وتنازلت له عن السلطنة بعد ان حكمت البلاد ثمانين يوماً.

ويعتبر المعز عز الدين ايبك أول ملوك الترك المماليك في مصر[1]، وكان ابتداء حكمه سنة 648هـ/ 1250م، وظل المماليك يحكمون العالم الإسلامي حتى سنة 923هـ/ 1517م، أي نحو 275سنة، تعاقب خلالها على الحكم منهم فرقتين: الأولى المماليك البحرية، والثانية المماليك البرجية أو الجركسية.

4 ـ العوامل المساعدة على قيام دولة المماليك:

من العوامل التي ساعدت، وساهمت في نشوء الدولة المملوكية، هو قيام المغول سنة 616هـ/ 1219م، بهجماتهم على العالم الإسلامي، وما أحدث ذلك من خراب ودمار على يد جنكيز خان، ثم على يد خليفته هولاكو، الذي إنتصر على الحشاشين سنة 653هـ/ 1256م، ودمر قلعة الموت، وثم قام بتدمير مدينة بغداد سنة 655هـ/ 1258م، وقضى على الخلافة العباسية، كذلك أنهى في السنة 657هـ/ 1259م، الدولة الأيوبية في سوريا، وقام بقتل سكان مدن حلب وحماة، وتخريب بعلبك، وردم صيدا[2].

ثم أقام المغول تحالفاً مع الإفرنج لمواجهة المسلمين. وقام كتبغا، وهو صهر هولاكو بمهاجمة فلسطين، فتصدى له سلطان مصر المملوك قطز، يرافقه قائده بيبرس، الذي أظهر مقدرة حربية كبيرة، مكنته من أن يهزم المغول لأول مرة في تاريخهم، في عين جالوت بين بيسان ونابلس سنة 658هـ/ 1260م، وقتل فيها قائدهم كتبغا، وطارد الجيش المغولي المهزوم، وأبعده عن كامل سورية[3].

---

(1) القريزي. السلوك، ج1، ق 2، ص 367.

(2) احمد حطيط، تاريخ لبنان الوسيط، دار البحار، بيروت، 1986، ص 20 - 23.

(3) ابن تغري بردي، مصدر سابق، ج 7، ص 79.

ثم تمكن من تسلم الحكم بعد أن قام بقتل مولاه السلطان قطز أثناء عودتهما ظافرين من عين جالوت إلى مصر[1].

وهكذا تهيأت السبل والعوامل التي ساعدت على قيام الدولة المملوكية، التي بلغ سلاطينها شأناً عظيماً ومكانة رفيعة، خاصة بعد نجاحهم في طرد الصليبيين، وتصديهم لهجمات التتار، وقضائهم على الخارجين عن الإسلام في بلاد الشام وإعلاء شأنه. وبعد أن أمنوا سيادة دولتهم في مصر وسوريا وفلسطين، بدأوا في ممارسة سياسة خاصة تلائم وضعهم المعيشي[2].

5 ـ الحقبة المملوكية الأولى:

دولة المماليك البحرية (648 هـ / 1250م ـ 784 هـ/ 1382م):

الحروب ظاهرة إجتماعية تدل على وجود مشكلة بين الفريقين المتحاربين، يجبرهم الخلاف عليها وعدم تمكنهم من حلها سلماً، أن يحتكموا إلى الحديد والنار. ويتم الإتفاق على حلها بتغلب أحدهم على الآخر، ونشر مبادئه، وفرض شروطه ونظام حكمه.

فإن هذه الحروب لا يلبث أن تنقلب إلى تصادم بين ثقافتين أو مبدأين أو فلسفتين، فيخرج منها المتقاتلون بنتائج بعيدة، إيجابية حيناً وسلبية أحياناً، ويبقى أثرها قائماً يعمل في سبيل التطور أو الإنقراض. فتكون الحروب بذلك عاملاً فعالاً في نقل العلوم ونشر المعارف والعادات، ونقل المبادئ والأفكار من مراكزها الخاصة إلى عوالم وشعوب جديدة.

وبناء على مبدأ عام للحروب، كان طبيعياً أن تجري خلال احتدام وطيسها أو بعد انتهائها، الإتصالات والمفاوضات لترتيب أوضاع ما بعد الحرب، وقد تم ذلك كثيراً بين المسلمين والصليبيين خلال حروبهم في بلاد الشام. وكانت

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1960، ج 1، ص 207.
(2) فيليب حتي، تاريخ لبنان، دار الثقافة، بيروت، 1959، ص 400.

الإتصالات أحياناً عبارة عن تهديد ووعيد، وأحياناً أخرى تعبر عن تفاهم تام عميق بين الجانبين. هذا وأن مدونات التاريخ وسجلاته ووثائقه ملأى بما تحتويه من إتفاقات، ومعاهدات صلح أو إستسلام[1].

وقد كان للمماليك الحظ الوافر من هذه المعاهدات والإتفاقات لأن المماليك إعتمدوا إلى جانب إقدامهم وبطولاتهم الحربية التي أثبتوها في ساحات القتال[2]، سلاحاً آخر لا يقل أهمية عن السلاح العسكري، تمثل في إقامتهم للأحلاف وعقدهم للإتفاقات والهدن في سبيل تدعيم جبهتهم العسكرية من جهة، وإضعاف جبهة الخصوم من جهة أخرى.

فقد عقد السلطان قطز مع بارونات عكا إتفاقية تقضي بإلتزامهم الحياد في صراعه مع المغول، والسماح لجيشه باجتياز الأراضي الصليبية وهو في طريقه إلى عين جالوت[3].

كما أن عهد الظاهر بيبرس كان مليئاً بالحروب والمفاوضات. فقد أدرك الظاهر بيبرس ما تواجهه دولته الفتية من تحالف قوي يربط ما بين اثنين من ألد أعدائه هما: الصليبيون والمغول. فعمد إلى القضاء على كل من هذين الخصمين على حدة، فاختط لنفسه سياسة خارجية تقوم على تحصين دولته بعدد كبير من المعاهدات والأحلاف والإتفاقات الدولية، ليضمن تقويتها من جهة، واكتساب أعوان وحلفاء من جهة ثانية.

فقد حالف ميخائيل باليولوجس إمبراطور الدولة البيزنطية، واستطاع بسفارته وهداياه أن يحصل على إذن من هذا الإمبراطور بمرور سفينتين محملتين بالمماليك عبر مضيق البوسفور إلى البحر الأسود ذهاباً وإياباً مرة في السنة[4]،

(1) أنظر ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط، المعهد الألماني للدراسات الشرقية، فيسبادن، 1983، ص 33.
(2) Cahen, cl., Orient et Occident aux temps des Croisades, Paris, 1938, p.199.
(3) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، بيروت، دار النهار للنشر، 1977، ص 200.
(4) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، الرياض، 1396هـ، ص125-127.

كذلك تبادل الهدايا والرسائل مع مانفرد ملك صقلية، والفونسو العاشر ملك أسبانيا[1]، كذلك كانت له علاقات حسنة مع عز الدين كيكاوس سلطان سلاجقة الروم، الذي كان قد أستنجد بالسلطان بيبرس سنة 660هـ/ 1261م، لمساعدته ضد أخيه ركن الدين قلج أرسلان، وضد هولاكو وأطماعه في آسيا الصغرى، حيث أرسل بيبرس جنوده إلى دمشق وحلب استعداداً لتأييد السلطان عز الدين ضد أخيه وضد المغول. كذلك حالف بيبرس بركة خان القبيلة الذهبية، وكانت بلاده تمتد من تركستان شرقاً إلى شمالي البحر الأسود غرباً، وتعرف ببلاد القوازق، حيث تبادل معه الهدايا والسفارات، وكان قد تزوج ابنته، وأمر له بالدعاء على منابر القاهرة والقدس ومكة والمدينة[2].

وقد كان هذا التحالف موجهاً في الأساس ضد عدوهما المشترك المتمثل في دولة خانات فارس التي كان يحكمها هولاكو وأولاده، وكانت تشمل بلاد فارس والعراق. وقد كتب بيبرس إلى الملك بركة خان يغريه بقتال هولاكو ويرغبه في ذلك[3].

وكان بيبرس يلجأ إلى توقيع المعاهدات وعقد الهدن، إذا أحس نفسه بحاجة إليها، وكان لا يجد غضاضة في نقد تلك المعاهدات قبل إنقضاء أجلها[4].

ومن المعاهدات المعقودة بين بيبرس والصليبيين، تلك الموقعة بينه وبين الإسبتارية المخولين حماية عكا وحصن الأكراد وحصن المرقب، وبعض مدن الساحل الشامي. وتم عقد هذه الهدنة سنة 665هـ/ 1267م، وكانت مدتها عشرة سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات[5]. كذلك هدنته مع صاحب

(1) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، وزارة الثقافة والإرشاد، مصر، 1954، ج 28، ص 227.

(2) ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، باريس، 1920، ص 455 _ 462.

(3) المقريزي، السلوك، ج 1، ق2، ص 465.

(4) ابن أبي الفضائل، المصدر السابق، ص 533–534.

(5) Grousset, R., L'Epopée des Croisades, Paris, 1936, p. 375.

طرابلس بوهيمند السادس (Bohémond VI) سنة 669هـ/ 1271م[1]، كما أنه عمد إلى تجديد الهدنة مع ملكة بيروت إزابيلا إيبلان (Isabelle Ibelin)، والتي خولته الحق بحكم المدينة أثناء غيابها عنها[2].

وقد سار السلطان قلاوون في نفس السياسة، التي أتبعها قبله السلطان بيبرس، وقد كان يؤمن أيضاً بضرورة عقد المعاهدات والأحلاف الخارجية والداخلية، حيث نراه يحاول منع أي تقارب صليبي مع جنوى، أو مع المغول، كي تتاح له فرصة تدمير كل منهما على حِده، فحرص على إنشاء علاقات دبلوماسية مع جنوى، وعقد معها معاهدات تجارية منحها خلالها حقوقاً وإمتيازات تجارية ضخمة، مقابل التزامها الحياد في الصراع الصليبي المملوكي المرتقب، إبان تحرير بقية مدن الشام من أيدي الإفرنج[3].

كما أقام حلفاً دفاعياً بينه وبين الملكين الإيطاليين، جاك دوسيل والفونس دي كاستيل، (Jacque de Sisil et Alphonso de Gastille)، ووطد علاقاته الدبلوماسية مع إمبراطور بيزنطة، ومع الإمبراطور رودلف دوها بسبورغ، ومع صاحب سيلان، كما عزز العلاقات التي أنشأها بيبرس مع زعماء مغول القوزاق[4].

ولتدعيم جبهته ضد المغول قبل معركة حمص، لجأ السلطان قلاوون إلى إيقاع الخلاف بين الصليبيين والمغول، فعقد عام 680هـ/ 1281م، اتفاقية صلح مع الداوية والإسبتارية[5] ....

(1) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، القاهرة، 1960–1972، ج 8، ص 159.

(2) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، حققه قسطنطين زريق، المطبعة الأميركية، بيروت، 1936–1942، ج 7، ص 35.

(3) Cahen, op. cit., p.203.

(4) Hassamien, Rabie, art Kalawun, EI^{2}, IV, p. 505 a-507a.

(5) الداوية: فرقة دينية تدعى فرسان المعبد (Templiers) قامت في الأساس على الحماس الديني وعلى الفروسية في آن واحد، ولم تكن تربطه بالناحية الدينية سوى القسم الديني. ويرجع الفضل في نشأته الى سبعة رجال يتزعمهم هيوغ دي باينز، إتفقوا فيما بينهم على تكوين =

مدتها عشرة سنوات، كذلك فعل ذلك مع بوهيمند السابع أمير طرابلس[1].

ولكن بعد انتصاره على المغول، ومرور أربع سنوات على اتفاقية السلام مع الصليبيين، هاجم الإسبتارية واستولى على حصنهم المنيع في المرقب سنة 686هـ/ 1287م، ولكي يتفرغ لقتال خصمه الأمير سنقر الأشقر، عقد السلطان قلاوون اتفاقية سلام مع أميرة صور مارغريت، كما أنه لم يتورع عن مساعدة صاحب جبيل، بارتملي أمبرياتشو في الصراع الدائر حول زعامة طرابلس، أثر وفاة بوهيمند السابع، وذلك بعد أن وعده بارتملي، بأن يقتسم معه طرابلس[2].

هذه المعاهدات والإتفاقيات، إلى جانب قضائهم على ثورات الأعراب في مصر، وتغلبهم على معظم أبناء البيت الأيوبي في بلاد الشام، وإقامتهم للخلافة العباسية في القاهرة، كل هذه العوامل مجتمعة، جعلت دولة المماليك تنعم في شيء من الأمن، وهي التي طالما هدد كيانها المغول والصليبيون على السواء. وكانت السياسة الحكيمة التي اعتمدها سلاطين المماليك في علاقاتهم الخارجية، قد حققت لهم قدراً كبيراً من المكانة الدولية، وساعدتهم على بسط سيادتهم على كامل الأقطار الشامية.

= جماعة من بينهم تتولى مهمة الدفاع عن فلسطين والأراضي المقدسة. وأقسموا بالمحافظة على شعائر ثلاثة الفقر والطاعة والعفة وتلقبوا بجنود المسيح الفقراء، ومنحهم بلدوين الثاني خاناً يقيمون فيه قرب هيكل سليمان، فسموا لذلك بفرسان المعبد.

الإسبتارية: (Hospitaliers)، وهم جماعة من الفرسان الذين جمعوا بين الفكرتين الدينية والعسكرية، وترجع تسميتهم بهذا الإسم الى دير أقامه تجار من امالفي في بيت المقدس بجوار ديرسان ماري اللاتينية في عصر المستنصر بالله الفاطمي، جنوبي باب الضريح المقدس. وقد سكن هذا الدير جماعة من البندكتان الإيطاليين. ولم تلبث هذه الجماعة ان تطوعوا لحماية الحجاج، وكانوا عل جانب كبير من الشجاعة، وأصبحوا فرقة حربية كبيرة بقيادة جيرار، وقد ساهموا مساهمة فعالة في الحروب الصليبية في بلاد الشام. - بطرس البستاني، دائرة المعارف، ج 11، ص 140 ـ 141.

(1) ابن الفرات، مصدر سابق، ج 7، ص 206.

(2) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة، 1961، ص 82-83.

أشهر سلاطينهم:

أ ـ السلطان الظاهر بيبرس:

أعلن بيبرس نفسه سلطاناً على مصر وبلاد الشام، وقد دعم مركزه بنقل الخلافة العباسية إلى القاهرة في سنة 660 هـ/ 1262م، بعد أن أسقطها المغول في بغداد، مظهراً للعالم الإسلامي فضل الدولة المملوكية في الحفاظ على الإسلام.

ثم انتقل للعمل على التخلص من الأمراء الأيوبيين الذين ثبتهم السلطان قطز في إمارتهم، بعد أن أعلنوا الولاء والإستعداد لدفع الجزية، وذلك لأنهم أخذوا يهددون الدولة الناشئة بتحالفهم مع أعدائهم[1].

وبعد أن تمكن من الداخل، انتقل إلى إقامة علاقات طيبة ومحالفات مع الدول الأوربية مستبقاً ما قد يقوم به الصليبيون من إثارة لملوك أوروبا، كما فعل لويس التاسع ملك فرنسا في أواخر أيام الحكم الأيوبي.

وبعد أن حققت هذه الإتفاقيات والأحلاف مع الدول، شيئاً من الأمن للدولة المملوكية، عمد بيبرس ومنذ السنة 661هـ/ 1263م، إلى ترميم القلاع التي خربها المغول من حمص إلى حوران. فبات لديه خط دفاعي محصن إمتد من شرقي الأردن إلى نهر العاصي[2]، وأقام سلسلة من أبراج المراقبة، لحفظ الطرق، ومنع التعديات على إمتداد الحدود مع الصليبيين، كما اهتم بإنشاء عدد كبير من المناور، تنقل إلى القاهرة بواسطة المشاعل والدخان، الأخبار السريعة التي تشكل خطراً على حدود الدولة، ولم يكتف بيبرس بتلك الوسائل الدفاعية، بل عمل على تعزيزها بنظام للبريد، كانت مهتمه الأساسية الحفاظ على أمن الدولة في الداخل والخارج، وإبلاغ العاصمة بما يجري في الولايات من أحداث، وإبلاغ الولاة رغبات السلطان وأوامره[3].

---

(1) ابن عبد الظاهر، مصدر سابق، ص 39-40.

(2) القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، 1963، ج 4، ص 4، 8.

(3) محمد علي مكي، مرجع سابق، ص 242 ـ 243.

وعمل بيبرس على تقوية الأسطول المصري، وبناء جيش مملوكي دائم، تموله الضرائب التي فرضت على الشعب، وقد تألفت غالبية هذا الجيش من المماليك الذين أكثر بيبرس شراءهم من القفجاق[1]، وتم نقلهم من البحر الأسود إلى مصر عبر البوسفور[2].

وساعدت العلاقات الطيبة، التي نشأت بين بيبرس وبركة خان المغولي المسلم، على توفير هذه الجماعات، وتسهيل انتقالها إلى مصر[3]. وقد أعطى بيبرس للشؤون العسكرية أهمية كبيرة، وقد أحس بالخطر الصليبي الذي بدأ يهدد دولته، وخاصة وأن بعضهم أخذوا بالتعاون مع المغول، إذ سمحت بعض الإمارات الصليبية للمغول بالحلول في مواقعها وحصونها، متعاونة وإياهم لضرب المسلمين[4].

وبدأت الحرب بين المماليك والصليبيين بمناوشات، سرعان ما اتسمت بالعنف، وتحولت إلى عمليات عسكرية واسعة، فهاجم بيبرس في السنة 664هـ/ 1266م، قلعة صفد وهونين وتبنين[5] والرملة، وكان لسقوط صفد بأيدي

---

(1) القفجاق: إقليم بحوض نهر الفولغا، شمال البحر الأسود والقوقاز أهلها من الترك كانوا أهل حال وترحال على عادة أهل البدو وفي ضيق من العيش، وبلادهم فرضة عظيمة للتجارة، ورقيق الترك.
القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 458.

(2) Heyd, w., op. cit., p. 556-557.

(3) ابن واصل، مصدر سابق، ج 2، ص 401.
ابن أبي الفضائل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، وزارة الثقافة والإرشاد، القاهرة، 1961، ج2، ص 401.

(4) المقريزي، مصدر سابق، ج 1، ق2، ص 584، 600.

(5) **قلعة هونين**: بنى هذه القلعة الضخمة أنفرو الثاني أمير تبنين في عام 1179م. وبنيت على مرتفع يشرق من الشرق على وادي الحاصباني، كما تسيطر هذه القلعة على الخطوط التجارية للقوافل وعلى الممرات الطبيعية للجيوش القادمة من جهة الشرق في إتجاه اراضي الفرنج. وكانت هذه القلعة إقطاعاً تابعاً لإمارة تبنين.
قلعة تبنين: كانت هذه القلعة مركزاً لإمارة تبنين الصليبية، وقد بناها هيوغ دو سانت أومير أمير الجليل عام 1105م، واكتسبت هذه القلعة أهمية خاصة خلال الحروب الصليبية، =

المماليك صدىً واسعاً عمل على إضعاف معنويات الصليبيين، وجعل بعضهم يهرعون لعقد المحالفات مع السلطان بيبرس، وكان ثمنها مشاركته لهم في غلال مناطقهم[1]. ثم سقطت يافا وإنطاكية سنة 666هـ/ 1268م، وكان لسقوط هذه الأخيرة تأثير كبير، خاصة وأنها شغلت منذ بداية الحروب الصليبية، وبحكم موقعها الجغرافي، مركزاً مسانداً وداعماً للصليبيين.

ثم انتقل بيبرس بعد إنطاكية لمحاصرة طرابلس سنة 666هـ/ 1268م، فتمكن من الإستيلاء على المنافذ المؤدية إليها والحصون المحيطة بها، لكن أنباء حملة صليبية جديدة أنقذت طرابلس، وجعلت بيبرس يعود مسرعاً إلى مصر، لإعتقاده أن وجهة تلك الحملة الثغور المصرية، وبفشل تلك الحملة عاد بيبرس لمحاصرة طرابلس سنة 669هـ/ 1271م، إلا أن قدوم حملة صليبية إلى عكا، جعلت بيبرس يستجيب لطلب أمير طرابلس لعقد الصلح، والذي استمر حتى وفاته سنة 666هـ/ 1268م[2]، استطاع هذا السلطان العظيم بأعماله وإصلاحاته الواسعة النطاق أن يحّول دولة المماليك من دولة ناشئة إلى دولة قوية مدعمة الأركان، وأن يمهد الطريق لخلفائه من بعده كي يتمموا رسالته، ويصلوا إلى الهدف المنشود، وهو القضاء على المغول والصليبيين، ولهذا ذاع صيته، واشتهرت سيرته أكثر من بقية السلاطين، لدرجة أن أخباره امتزجت فيها حقائق التاريخ بخيال القصص، نذكر على سبيل المثال: تلك الملاحم الشعبية المعروفة بالسيرة الظاهرية أو سيرة الظاهر بيبرس، التي تصور شخصية بيبرس وكأنها شخصية عصر أكثر مما هي شخصية إنسان، إذ تنعكس فيها صورة هذه النقلة الجديدة، التي تحولت فيها دولة المماليك في مصر والشام إلى دولة قوية راسخة

= نظراً لمكانتها العسكرية التي احتلتها. فقد اعتمدها الفرنجة منطلقاً لهجومهم على مدينة صور، والمناطق المجاورة لها. وتحكمت بالطريق ما بين صور وصفد. وكانت وسطاً بين إمارات مملكة بيت المقدس، التي قامت في الجليل، وسائر مناطق جبل عامل.
محسن الأمين، خطط جبل عامل، ص 207- 208.

(1) القلقشندي، مصدر سابق، ج 14، ص 42-51.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، 1982، ج 13، ص 259.

الأقدام[1]. وقد قال فيه أبو المحاسن: «وكان الملك الظاهر رحمه الله، ملكاً شجاعاً مقداماً غازياً مجاهداً مرابطاً خليقاً بالملك خفيف الوطأة سريع الحركة يباشر الحروب بنفسه»[2].

ب ـ سلاطين آل قلاوون:

كان لهذه الأسرة أهمية خاصة في تاريخ المماليك، نظراً لإحتفاظها بمنصب السلطنة لمدة تزيد على قرن من الزمن من سنة 678 ـ 784 هـ/ 1279 ـ 1382م[3]، ومساهمتها في إرساء عصر الإزدهار في الدولة المملوكية، حيث برزت في عهد هذه الأسرة مميزات تلك الدولة.

وإذا كانت هذه العائلة قد حوت الكثير من الرجال، غير أن الشهرة لم تنل الجميع، ولم يصل إلى المجد إلا ثلاثة منهم هم: السلطان المنصور قلاوون، والأشرف خليل، والناصر محمد.

1 ـ الأمير المنصور سيف الدين قلاوون:

هو أحد المماليك البحرية، عرف بالألفي، تمكن من الوصول إلى السلطة بفضل عدد من الأحداث صاحبت قيام دولة المماليك. كان ظهوره الجلي في عهد بيبرس. ولكن خلافات المماليك فيما بينهم، جلب عليه النقمة، خاصة بعد موت بيبرس ومحاولته الإستئثار بالحكم دون الإفصاح عن ذلك.

وظل يتحين الفرص لتحقيق هدفه، فعاصر عهود السعيد بركة وبدر الدين سلامش، أبناء بيبرس، وكان يعمل على تهيئة الظروف لوصوله إلى الحكم، فقبل في بادىء الأمر بمنصب الأتابك[4] للسلطان، حيث تمكن من الإمساك

(1) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ص 239- 240.
(2) ابن تغري بردي، مصدر سابق، ج 7، ص 177.
(3) سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص 190.
(4) أتابك: وهو لقب يطلق على القائد العام للجيش

بزمام الأمور في أكثر الأحيان، وعندما حانت ساعة توليه الحكم، استدعى أمراء المماليك، وتحدث إليهم حول صغر سن العادل. وقال لهم: «قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل». فخلعوا العادل سلامش، ونصبوه على السلطنة سنة 678هـ/ 1279م[1].

كان السلطان المنصور قلاوون، رجلاً طيباً عفيف الخلق، يحب التقرب من الناس، كثير الخير. وبالرغم من ذلك فقد تعرض لكثير من المؤامرات، كمؤامرة نائب الشام الأمير شمس الدين سنقر الأشقر[2]. ومؤامرات بعض الأمراء الظاهرية الذين فشلوا في التخلص منه، فسجن بعضهم، وقتل البعض الآخر[3]. بعد هذه الأحداث اخذ قلاوون يشتري كثيراً من المماليك الذين عمل على تربيتهم في أبراج القلعة، والذين عرفوا فيما بعد بالمماليك البرجية[4].

وبعد فشل المؤامرات الداخلية، أخذ يتطلع إلى الأخطار المحيطة بالبلاد، من الصليبيين والمغول وأعوانهم كسنقر الأشقر. ولكن قلاوون تمكن بما عرف عنه حنكة ودراية أن يفشل المؤامرات الخارجية، ويحقق انتصارات ساحقة على الصليبيين والمغول، واستطاع أن يستميل إليه سنقر الأشقر الذي عينه حاكماً على إقليم إنطاكية[5].

ثم انصرف بعد ذلك إلى تسديد ضرباته القاضية إلى الصليبيين، فإنتزع منهم طرابلس في سنة 688هـ/ 1289م، كما تمكّن المسلمون بعد ذلك من إسترجاع المراكز التي أخلاها الصليبيون قرب طرابلس كبيروت وجبلة، ولم يبق للصليبيين من مراكز سوى عكا وصيدا وصور وعتليت[6].

(1) ابن عبد الظاهر، تشريف الايام، ص 43.
(2) ابن تغري بردي، مصدر سابق، ج 7، ص 292-294.
(3) النويري، مصدر سابق، ج 19، ص 278.
(4) ابن اياس، مصدر سابق، ج 1، ص 120.
(5) النويري، المصدر نفسه، ج 39، ص 370
(6) المقريزي، السلوك، ج 1، ق3، ص 746- 747.

وقد تجددت الحملات الصليبية، بوصول حملة جديدة من إيطاليا، والتي تمكنت من إلحاق هزيمة كبيرة بالمسلمين. وبينما السلطان قلاوون يستعد للقيام بحملة الثأر لدماء المسلمين، وللقيام بعمل حربي كبير ضد عكا، توفي فجأة في سنة 690هـ/ 1291م[1].

2 ـ السلطان الأشرف خليل:

بعد وفاة السلطان قلاوون، تسلم الحكم ولده الأشرف خليل، وقد قام الأمير حسام الدين طرنطاي بمؤامرة ضده، تمكن الأشرف خليل من كشفها وقتل صاحبها، وصادر أمواله ومنح إقطاعه إلى الأمير بدر الدين بيدرا وعينه نائباً للسلطنة[2]. ثم قاد الجيش الذي تركه والده، وقام بمحاصرة عكا، عندها حاول الصليبيون استمالة الأشرف خليل، بأن يسألونه العفو، ولكن السلطان لم يقبل منهم ما اعتذروا به[3]، فأقام حصاراً محكماً حول عكا إلى أن سقطت بيده، بعد فرار الكثير من رجالها، وغرق العديد من سفن ومراكب الفرنجة[4].

وكان سقوط عكا بمثابة كارثة للصليبيين، الذين أخذوا يفقدون مراكزهم الواحد تلو الآخر، كصور وصيدا وأنطرطوس وعتليت[5]. وبذلك كانت تخط آخر سطور الحرب الصليبية في بلاد الشام.

ولم تشفع تلك الإنتصارات للأشرف خليل، إذ أخذت المؤامرات تزداد عليه، ومنها واحدة بزعامة بدر الدين بيدرا نائب السلطنة، وقد عمل على قيامها

(1) ابن كثير، مصدر سابق، ج 13، ص 316.
(2) نائب السلطنة: ويعبر عنه بكافل الممالك الإسلامية ويعتبر السلطان الثاني، لأنه يحكم في كل ما يحكم به ولي الأمر، ويعين أرباب الوظائف الجليلة كالوزارة وكتابة السر.
(3) المقريزي، المصدر السابق، ج 1، ق3، ص 762–764.
(4) أبو الفداء، مصدر سابق، ج 4، ص 25–26.
(5) المقريزي، مصدر نفسه، ج 1، ق3، ص 764–765.

الوزير شمس الدين بن السلعوس. غير أن الأشرف خليل تسرع في حكمه على بيدرا، وعندما أدرك ذلك حاول إسترضاءه[1].

غير أن هذا الأخير كان قد أعدّ خطته بالإشتراك مع حسام الدين لاجين وشمس قراسنقر وسيف الدين بهادر، حيث تمكنوا منه في رحلة صيد في سنة 693هـ/ 1293م[2].

3 ـ السلطان الناصر محمد بن قلاوون:

بعد مقتل السلطان الأشرف خليل، تم تنصيب الأمير بيدرا سلطاناً مكانه وتلقب بالملك الأوحد. غير أنّ مماليك السلطان القتيل إنتقموا لسيدهم، حيث لاحقوا بيدرا وقتلوه، عندها ظهر الأمير زين الدين كتبغا، وسار إلى القاهرة للمناداة بنفسه سلطاناً، إلا أنّ الأمير علم الدين سنجر الشجاعي لم يقبل بذلك وتصدّى لكتبغا، وحال بينه وبين السلطنة، عندها جيء بالملك الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً[3].

غير أن أمور الحكم لم تستقم للسلطان الجديد، نظراً لصغر سنه. وتلك كانت عادة وميزة من مميزات المماليك، أن يأتي الأمراء بسلطان صغير السن كي يتسنى لهم السيطرة والإستئثار بالحكم لأنفسهم. إذ جمع الأمير كتبغا الأمراء، وأخبرهم عن ضرورة الأتيان بسلطان كبير، يرعى شؤون القوم، فتم عزل الناصر محمد وإحلال كتبغا مكانه في سنة 694هـ/ 1294م.

وقد واجهت كتبغا المؤامرات، كما واجهت غيره من السلاطين، إلى أن تكمن منه حسام الدين لاجين، واضطره إلى الهرب، ونصّب نفسه سلطاناً[4]. وقام بتعيين أحد مماليكه المدعو منكوتمر نائباً للسلطنة، ثم أخذ منكوتمر يعد العدة لقتل سيّده ليتولى منصب السلطنة بدلاً منه.

(1) ابن أبي الفضائل، مصدر سابق، ص 403–404.
(2) أبو الفداء، مصدر سابق، ج4، ص 29.
(3) أبو الفداء، مصدر نفسه، ج4، ص 30.
(4) المقريزي، مصدر سابق، ج 1، ص 822–823.

وفي نفس الوقت كان غضب الأمراء يتعاظم ويشتد على السلطان ونائبه، إلى أن تم قتل الإثنين الواحد تلو الآخر. عندها شغر منصب السلطنة، الذي لم يستطع أي من الأمراء أن يملأه، فإضطر الأمراء إلى استدعاء الناصر محمد وتوليته السلطنة للمرة الثانية.

ثم قام الناصر محمد بتعيين الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطنة، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير إستداراً[1].

وفي سلطنته الثانية سنة 709 ـ 741هـ/ 1309 ـ 1340م، واجهت الناصر محمد مشاكل عدة، أبرزها حربه مع المغول، الذين هزمهم في معركة مرج الصفرا قرب دمشق[2].

وبعد تغلبه على العواصف الخارجية، واجهته مشاكل داخلية، لكونه ما زال صغيراً في السن، بينما أحلام وآمال قادته وأمرائه أكبر من عمره بكثير، فعمدوا إلى تضييق الخناق عليه وحجز حريته وتحركاته ومنع تنفيذ طلباته، فتفاعلت كل هذه العوامل في نفسه، واستدعى الأمير بكتمر الجوكندار لمساعدته في التخلص من الأميرين سلار وبيبرس. وعندما علما بذلك قاما بالتخلص منه، وعندما عرف الشعب ذلك هبّ مطالباً بالناصر محمد سلطاناً، عندها إضطر الأميران إلى تجديد ولائهما للسلطان الناصر محمد[3]. غير أن نفس السلطان لم تطمئن كلياً إلى نيّات كل من سلار وبيبرس، لذلك فكر في الهرب وترك السلطنة، واتخذ من سفره إلى الحج وسيلة للهرب إلى الكرك، التي ما أن وصلها حتى أعلن أمام أمرائه ومماليكه المرافقين له عن تخلّيه عن السلطنة، وأرسل كتاباً بهذا المعنى إلى الأمراء في مصر، الذين فوجئوا بذلك وإحتاروا في من يمكن أن يخلفه، خاصة وأنّ سلار رفض المنصب كي لا يتعرّض لمصير

(1) ابن ابي الفضائل، مصدر سابق، ص 614

(2) ابن كثير، مصدر سابق، ج 14- ص 24-26.

(3) أبو الفداء، مصدر سابق، ج 4، ص 65.

أسلافه، وسرعان ما بايع بيبرس الجاشنكير لمنصب السلطنة، وطلب من باقي الأمراء مبايعته[1].

وفي الكرك، راحت الأيام والسنون تكسب الناصر محمد مزيداً من الخبرة في الحياة، وتمرساً في مزاولة الحكم بصورة أفضل، بعدما خبر أمر من معه ومن عليه من الأمراء، إذ التفّ حوله في هذه الفترة كثير من الأمراء، خاصة نواب حلب وحماه وطرابلس، وأعلنوا ولاءهم له، وطالبوه بإستعادة ملكه، حيث أخذ ينظم صفوفه، مما أدى إلى ترك كثير من المماليك جانب بيبرس والتحقوا بالناصر. وفي دمشق إستقبل الناصر محمد بحفاوة بالغة وخطب بإسمه. أما بيبرس فحاول تجديد ولائه ولكنه فشل. وعند مجيء الناصر محمد إلى مصر، لم يجد بيبرس بدأ من طلب السماح من السلطان الناصر محمد، إلاّ أنّ الناصر محمد أبى، وأمر بحبسه، ثم قتله فدفن في قبر أخفيت معالمه[2].

وفي سلطنته الثالثة، كان الناصر محمد في الخامسة والعشرين من عمره، وقد أكسبته الأيام خبرة، وتمرساً في شؤون الحكم، فانتقم لنفسه من أعدائه، وأولهم بيبرس الذي قبض عليه في غزة وأعدمه. وألقى بسلار في غياهب السجن.

دام حكمه في هذه الفترة إحدى وثلاثون سنة، عرفت بأعظم عصور التاريخ المصري زمن المماليك، وأكثرها رقياً وإزدهاراً[3]. وقد امتد ملكه من بلاد المغرب غرباً حتى الشام والحجاز شرقاً، ومن النوبة[4] جنوباً حتى آسيا الصغرى شمالاً.

وفي هذه الفترة عمد إلى الكثير من الإصلاحات، فقد أجرى الروك[5]

(1) المقريزي، مصدر سابق، ج 1، ص 870-876

(2) محمد جمال سرور، دولة قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، 1947، ص 50.

(3) المقريزي، السلوك، ج 2، ص 80-81.

(4) النوبة: أو بلاد النوبة: وهي أراضي واسعة في جنوبي مصر وشرقي النيل وغربيه، وأهلها امة عظيمة أغلبيتهم من النصارى.

(5) الروك: هو اصطلاح عرف في القرون الوسطى، ومعناه عملية المسح وتقسيم =

الشهير الخاص بتنظيم الإقطاع، وقام بتخفيف الضرائب، وأعلن حرباً على الفساد، فساد الأمراء والناس.

ويعد الناصر المثل الأعلى للرجل السياسي في دولة المماليك، كما كان بيبرس من قبله المثل الأعلى للقائد الحربي[1]. فقد كان الناصر بحسب قول أبي المحاسن: «أعظم ملوك الترك بلا مدافعة»[2].

وكان السلاطين الذين اعتلوا العرش من أولاد الناصر وأحفاده، أطفالاً لم يبلغوا سن الرشد، يولون ويعزلون أو يقتلون حسب إرادة أمراء ذلك العهد. وكان أكثرهم قبولاً لدى الأمراء هو أضعفهم إرادة، فإذا ما بدأ يعارضهم، بادر الأمراء إلى عزله أو تدبير أمر قتله. وقد نتج عن صغر سن السلطان وقصر مدة حكمه، ظهور نفوذ الأتابكة بشكل جلي، وتركز السلطة في أيديهم، ولم يعد للسلطان وجود إلا بالاسم، وتضاءلت شخصيته، حتى لم يكن يسمع عنه إلاّ وقت التولية وحين العزل[3].

وكان آخرهم السلطان حاجي، الذي خلعه أتابكة برقوق وتولّى العرش مكانه. وبعزل الصالح حاجي ينتهي عصر أولاد الناصر وأحفاده، وبزوال الملك عن بيت قلاوون بعد حكم دام مائة وثلاث سنوات، قبض فيها السلطان قلاوون وأبناؤه، صلاح الدين خليل، والناصر محمد على زمام الأمور بأنفسهم، بينما حكم الباقون من ذرية قلاوون حكماً صورياً، ولم يكن كل منهم أكثر من ألعوبة في أيدي الأمراء.

وقد حكم مصر بعد دولة المماليك البحرية، دولة المماليك البرجية.

= الأراضي وضبطها، ودراسة خصبها، وذلك من أجل تمكين الدولة من فرض الضرائب المناسبة عليها. وقد أمر بتنفيذ روك لبنان السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ولذلك عرف بإسمه الروك الناصري.

(1) Hautecoeur wiet, Les Mosquées du caire, p. 45.

(2) ابن تغري بردي، مصدر سابق، ج 7، ص 317.

(3) وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، مطبعة المعارف، مصر، 1342هـ/ 1924م، ص 95.

وأبرز مظاهر هذه الدولة، هو الإضطراب الداخلي الذي ساد في عصرها، حيث طبع عهدها بطابع الفتن والثورات التي كانت تقوم بين حين وآخر[1].

6 ـ الحقبة المملوكية الثانية:

دولة المماليك الجركسية أو البرجية: (784ـ923هـ/ 1382ـ1517م).

وهذه هي الدولة الثانية من دولتي المماليك، ويعود أصلها إلى الجنس الجركسي. وقد أوجد هذه الفرقة السلطان قلاوون، الذي عمل على شراء الكثيرين منهم من بلاد الكرج[2]، ليكونوا عوناً له ضدّ أخصامه من المماليك، وقد عرفوا بقوةالبدن والشجاعة[3]، وقد عمل على تربيتهم في أبراج القلعة، حيث عرفوا بالبرجية.

وبعد المنصور قلاوون تابع أولاده عملية شراء المماليك، خاصة الأشرف خليل بن قلاوون.

وقد أثبت هؤلاء المقدرة على تحقيق الهدف الذي جلبوا من أجله، فكانوا المدافع الأول عن أسيادهم المماليك، إذ عمدوا الى الإنتقام من قتلة الأشرف خليل، وكان لهم الفضل في إختيار الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً للمرة الأولى في سنة 693هـ/ 1293م، رغم صغر سنه، وكذلك التصدّي لمحاولات عزله[4].

---

(1) إبراهيم علي طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1960، ص 1-2، 10-11.

(2) بلاد الكرج: وتقع في الأجزاء الشمالية الغربية من القوقاز، يحدها من الشرق البحر الأسود، وكان يدعى سكانها بإسم الجراكسة أما لفظ جركس فلقبهم به جيرانهم الفرس، وهو مركب من كلمتين الأولى جهار أو جار وتعني أربعة، وكاف س الثانية وتعني رجل، فيكون المراد: الرجال الأربعة. ولعل ذلك عائد الى كون الجركس تكاثروا عن طريق قبائلهم الأربعة ترس ودكس وكاواس وأواص، فتداول المؤرخون العرب ذلك اللقب. ـ القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 451.

(3) المقريزي، المواعظ، ج 2، ص 213

(4) ابن تغري بردي، مصدر سابق، ج 7، ص 19-20

وبعد وفاة السلطان المنصور قلاوون تمكن البرجية من البروز على مسرح الأحداث، مستغلين وفاة السلطان الذي حاول عزلهم في أبراجهم، ومنع عليهم الإتصال بغيرهم من المماليك كي لا تدخل الى نفوسهم روح الفساد المستشرية آنذاك.

غير أن الأشرف خليل لم يتمكن من الإبقاء عليهم في العزل. بسبب الضغط الذي مارسوه، فسمح لهم بالخروج من قلاعهم والعودة إليها[1]، مما كان له أثر كبير في تغيير نفوسهم وأخلاقهم، وخاصة بعد إطلاعهم على كثير من الأوضاع السائدة. وبسبب سياسة السلطان المنصور تجاههم، والامتيازات العديدة التي منحهم إياها، كل ذلك أوجد عند المماليك الأتراك[2] كراهية وبغضاً، وقد شعروا بخطرهم، مما أدى إلى البغضاء والعنصرية والتعصب بين الفريقين. وقد طمع الجراكسة في آخر الأمر إلى القضاء على الأتراك الذين طال إستبدادهم بالحكم مما أدى إلى نزاعات طويلة بين الفريقين.

وقد أدت سلسلة المنازعات هذه إلى ازدياد نفوذ المماليك البرجية وسطوتهم.

وقد ذكر المقريزي في حوداث سنة 698هـ/ 1299م، أي في سلطنة الناصر محمد الثانية: «وقويت شوكة البرجية بديار مصر وصارت لهم الحمايات الكبيرة، وتردد الناس إليهم في الأشغال».

كذلك يذكر المؤرخ نفسه في حوادث سنة 708هـ/ 1308م، «أن البرجية أصبح لهم رأي مسموع في إختيار السلاطين، فعندما إختار الأمراء سلار في تلك السنة ليتولّى منصب السلطنة، قلق البرجية ولم تبق إلاّ إقامتهم الفتنة. حتى

---

(1) المقريزي، المصدر السابق، ج 2، ص 213-214.

(2) الأتراك: أسم يطلق على جنس من شعوب الأمة التترية المغولية، من العرق الأصفر، وجعلت المصادر التي أرخت للترك هذا الشعب من أقدم أمم الأرض وأعظمها، وتجمع المصادر العربية على ان تركستان هي موطن القبائل التركية. وكانت هذه العناصر التركية ذات فاعلية في الدولة الإسلامية المملوكية.

إذا ما تنازل سلار عن المنصب ورشح له زميله بيبرس الجاشنكير، سارع البرجية وقالوا بأجمعهم: صدق الأمير، وأخذوا بيد بيبرس وأقاموه كرهاً، فصاحوا بالجاويشية فصرخوا بإسمه»[1].

وقد تعاقب على العرش من سلاطينهم ثلاث وعشرون سلطاناً، عدا واحد من آل قلاون، وأحد الخلفاء العباسيين. أما أشهرهم فهو الأمير برقوق.

أ ـ السلطان الظاهر «برقوق العثماني» سيف الدين: (784 ـ 790هـ/ 1382 ـ 1388م)

هو برقوق بن أنص الجركسي، وينسب الى الخواجا عثمان تاجر الرقيق الذي جلبه إلى مصر[2]، تمكن من الوصول الى أتابكية العسكر في سنة 780هـ/ 1378م، وتمتع بعد ذلك بقوة كبيرة في عهد السلطان الصغير علاء الدين.

وبعد وفاته أصبحت الكلمة الأولى في الدولة لبرقوق، الذي لم يسارع الى الإستيلاء على السلطنة، بل فضل التريث لوجود معارضين كثر في وجهه وقد سارع الى إستدعاء أحد حفدة السلطان الناصر محمد، وأعلنه سلطاناً أمام الخليفة والقضاة وكبار الأمراء[3].

ولم يكن هذا السلطان إلاّ رمزاً إسمياً، في حين كانت كل مقدرات الدولة بيد برقوق، الذي أخذ يعمل على تجييرها لمصلحته ومصلحة أنصاره، الذين أهدى إليهم الخلع الثمينة والمناصب الرفيعة[4]. وتمكن من إكتساب محبة الناس عن طريق تخفيف الضرائب، وسك نقوداً جديدةً أصلية وغير مزوّرة.

وبعد أن تهيأت له كل العوامل المساعدة على توليه السلطنة، أعلن أن البلاد بحاجة الى سلطان جديد قوي ليقوم بالقضاء على الإضطرابات والفتن في الداخل فعقد إجتماعاً في قلعة الجبل سنة 784هـ/ 1382م، بحضور الخليفة

---

(1) المقريزي، السلوك، ج 1، ق3، ص 875.

(2) ابن تغري بردي، مصدر سابق، ج 11، ص 223.

(3) ابن تغري بردي، مصدر نفسه، ج 1:1، ص 214-215.

(4) المقريزي، المواعظ، ج 1، ص 106.

والقضاة والأمراء، كان من نتيجته، أن خلع السلطان أمير حاجي، وأعلن برقوق سلطاناً، وتلقب بالملك الظاهر[1]. وهكذا إنتهى حكم أسرة قلاوون، وإنتهى معها حكم المماليك البحرية، أو دولة المماليك الأولى، ثم إبتدأ حكم دولة المماليك الثانية، أو دولة المماليك البرجية الجراكسة. وبقيام هذه الدولة ذات العنصر الجركسي، ظهر تبدل في بعض النواحي العامة، والتي سادت غداة قيام الدولة الأولى، حيث ألغي مبدأ الحكم الوراثي. وكان سلاطينهم زعماء أو أمراء كبار أكثر منهم سلاطين. وكان نجاح السلطان في الحكم يتوقف على مدى توفيقه في توجيه الأمراء، وضرب طوائف المماليك بعضها ببعض[2].

ب ـ الناصر فرج بن برقوق:

هو زين الدين أبو السعادات بن برقوق. ولّي الملك سنة 801هـ/ 1398م، بعد وفاة أبيه بعهد منه، فبايعه الخليفة والقضاة، وشيخ الإسلام عمر البلقيني والأمراء. وكانت سنه حينئذٍ إثنتي عشرة سنة. فدبر له الملك الأتابكي أيتمش البجاسي، غير أنه إنقلب على السلطان الصغير بعد فترة، فوقعت بين أنصار الإثنين معارك حامية، إنهزم على أثرها جند أيتمش ففروا الى الشام. وفي عهده زحف تيمورلنك على مدينة حلب، واستولى عليها وفتك بأهلها. فجهز السلطان فرج عسكراً كثيفاً وخرج لملاقاته، فتلاقى الجيشان لقاءً جزئياً ثم تصالحا على أن يطلق كل منهم ما لديه من أسرى[3].

ومن أهم ما شغل بال السلطان فرج، الفتن والثورات الداخلية، التي أضرم نارها الأمراء فيما بينهم، بسبب أطماعهم ونزوعهم إلى العصيان. فسئم السلطان تلك الحال ورأى أن يهجر القلعة مقر حكمه ويختفي، بعد أن حكم نحو ست سنوات ونصف. ولم يلبث أن عاد إلى الحكم بعد فترة وجيزة،

(1) المقريزي، السلوك، ج 3، ق1، ص 405.

(2) المقريزي، مصدر نفسه، ج3، ق1، ص 307.

(3) سعيد عاشور، مرجع سابق، ص 160- 161.

وكانت الفتن المتوالية والعصيان المستمر، سبباً حبّب له معاملة المماليك بالعنف، حتى أنه كثيراً ما كان يذبح بعض مماليكه بيده. فنفرت منه القلوب، وهجره كثير من جنوده، وانحازوا إلى أعدائه في الشام، وتجمعوا تحت قيادة الأميرين شيخ المحمودي ونوروز الحافظي، فخف السلطان فرج الى لقائهم بجهة تدعى اللجون بالشام، فهزم وقبض عليه وأعدم عام 815هـ بعد أن حكم في هذه المرة سبعة سنوات.

ويعتبر الناصر فرج من عظماء سلاطين المماليك الجركسية، لشجاعته وبطولته في القتال، وما جدّده من المباني، ولزخر عصره بالعلماء والأدباء[1].

7 ـ تقسيم بلاد الشام:

بعد انكسار المغول في معركة عين جالوت في سنة 658هـ/ 1260م، اندفع المماليك الى سوريا، فتمكنوا من السيطرة عليها، لتبدأ مرحلة جديدة من الصراع المملوكي ـ الصليبي، الذي انتهى بالقضاء على الصليبيين وترحيلهم عن الساحل اللبناني السوري.

وبعد أن تسلم المماليك مقدرات الشرق وسيطروا على مصر، فلسطين، وسوريا الداخلية ما بين السنوات 648هـ/ 1250م، عمدوا إلى الإستيلاء على طرابلس وبيروت وصيدا وصور وحيفا وطرطوس[2]. باشروا ممارسة تنظيم إداري متقن، أخذوه عن الدولة الأيوبية التي وفقت في الجمع بين التقاليد الإدارية للدولة الفاطمية من جهة وتقاليد المماليك السلجوقية والأتابكية من جهة ثانية[3].

فقاموا بتقسيم بلادَ الشام الى ست مقاطعات أو نيابات أو ممالك، على

(1) أبن اياس، مصدر سابق، ج1، ص 319- 324، 353.

(2) الياس القطار، الشرق العربي في العصور الوسطى، الدار البنانية للنشر الجامعي، أنطلياس، 1996م، ص 387.

(3) كمال الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، منشورات كرافان، بيروت، 1979، ص 125.

رأس كل منها نائب للسلطنة، وذلك على ثلاثة مراحل، المرحلة الأولى بعد معركة عين جالوت عندما أنشئت نيابتا دمشق وحلب في عهد الظاهر بيبرس، والمرحلة الثانية عندما أضيفت نيابتا الكرك وصفد، والمرحلة الثالثة بعد قيام نيابة طرابلس[1].

وكانت كل نيابة تقسم بدورها إلى أقسام اصغر منها، لكنها لم تكن ذات أسماء محددة، فكانت تطلق عليها لفظة (قاعدة، حاضرة، ولاية، صفقة، وعمل)، وهذه التسميات هي مصطلحات لتوضيح عمل كل بلد يكون تحت حكمها.

وهذه هي على التوالي من حيث الأهمية:

أ ـ نيابة الشام أو نيابة دمشق:

وهي من أهم نيابات بلاد الشام وقد عرفت بإسم مملكة الشام، ويعبر عنها بكفالة السلطنة المملوكية بالشام، وكان نائبها يقوم بأكثر أعمال نيابته مقام السلطان المملوكي في مصر. وقاعدة هذه النيابة مدينة دمشق، وكان يتبع نيابة دمشق عدة نيابات صغرى وولايات. أما النيابات الصغرى فأهمها: غزة والقدس وصرخد وعجلون وبعلبك وحمص ومصياف والرحبة. أما ولايات نيابة دمشق فعديدة أهمها: الرملة وبيسان والبقاع وبيروت، وصيدا وقارا وغيرها.

ب ـ نيابة حلب:

وهي ثاني نيابات بلاد الشام من حيث الأهمية، ولا يلقب نائبها بكافل السلطنة. وقد إشتملت على عدد كبير من النيابات الصغرى. ومن هذه النيابات الصغرى: نيابة قلعة الروم غربي الفرات في مواجهة البيرة، ونيابتا الكختا وكركر وسمسياط وعينتاب ودربساك والرواندان وبغراس والقصير وبكاس. هذا فضلاً عن عدد آخر من النيابات الصغرى، كانت تقع خارج حدود الشام ولكنها تتبع نيابة حلب بحكم ملكية دولة المماليك لها.

---

(1) القلقشندي، مصدر سابق، ج 4، ص 174-176.

أما ولايات النيابة الحلبية فأهمها: برحلب وكفرطاب وعزاز وتل باشر ومنبج والباب وبزاعا وإنطاكية[1].

ج ـ نيابة طرابلس[2]:

وتأتي في الأهمية بعد نيابة حلب، وكان نائبها يجمع بين نيابة الإقليم ونيابة قلعة طرابلس، على عكس ما هو الحال عليه في نيابة دمشق وحلب، حيث كان هناك نائب للقلعة، ونائب طرابلس كان يلقب بكافل المملكة الشريفة الطرابلسية. وكانت تشمل من النيابات الصغرى نيابة حصن الأكراد ونيابة حصن عكار، ونيابة بلاطنس، ونيابة صهيون ونيابة اللاذقية، هذا فضلاً عن ست نيابات صغرى أسماها القلقشندي «نيابات قلاع الدعوة»، إي أنها كانت مراكز جماعة الإسماعيلية، وهي: نيابة الرصافة، ونيابة الخوابي، ونيابة القدموس، ونيابة الكهف، ونيابة المينقة، ونيابة العليقة.

أما الولايات التابعة لنيابة طرابلس فعددها ست وهي أنطرطوس وجبة المنيطرة، والظنين، وبشرية، وجبلة وأنفة.

د ـ نيابة حماة:

وتلي نيابة طرابلس من حيث الأهمية، وتتميز هذه النيابة عن النيابات السابقة، بعدم وجود نيابات صغرى تابعة لها. وإنما يتبعها ثلاث ولايات هي: ولاية بر حماه، وولاية بارين، وولاية المعرة.

هـ ـ نيابة صفد:

وتأتي بعد نيابة حماة من حيث الأهمية، ولا تشتمل على نيابات صغرى، ولكنها تضم عكا، والتي كان لقلعتها نائب نظراً لأهميتها الحربية، وتتبعها إحدى

---

(1) القلقشندي، مصدر سابق، ج4، ص 184، 217.

(2) عمر تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، عصر دولة المماليك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981، ج 2، ص 24-31.

عشرة ولاية هي: ولاية برصفد، وولاية الناصرة، وولاية طبرية، وولاية تبنين وهونين، وولاية عكا، وولاية صور، وولاية الشاغور، وولاية الإقليم، وولاية الشقيف، وولاية جينين.

و ـ نيابة الكرك[1]:

وتتبع نيابتها أربع ولايات ولها قلعة على رأسها نائب. أما ولاياتها فهي: ولاية بر الكرك، وولاية الشوبك، وولاية زغر، وولاية معان.

ز ـ نيابة غزة[2]:

هذه النيابة السابعة يضيفها ابن شاهين الظاهري، ويبدو انها كانت نيابة صغيرة تابعة لنيابة الشام أو دمشق.

8 ـ تقسيم لبنان:

إنّ التقسيم الإداري لبلاد الشام، قد شمل لبنان أيضاً، حيث قسم إلى ثلاثة أجزاء، توزعت في ثلاث نيابات، وجاء القسم الأكبر من لبنان ضمن الصفقة الشمالية وهي الصفقة الرابعة من نيابة دمشق[3]، وكانت قاعدتها بعلبك. ومن ضمن هذه الصفقة، عمل البقاع العزيزي وقاعدته كرك نوح، وولاية صيدا وتشمل جبل الشوف، وولاية بيروت، وتشمل جبل الغرب والمتن والجزء الأكبر من جبل كسروان.

وجاء القسم الجنوبي من لبنان ضمن نيابة صفد، التي ضمت ولاية تبنين وهونين، وولاية صور، وولاية الشقيف. أما نيابة طرابلس فشملت المنطقة

---

(1) القلقشندي، مصدر سابق، ج 4، ص 240 ـ 242.

(2) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشره بول رافيس، باريس، 1894م، ص 134.

(3) الياس القطار، تكوين لبنان السكاني من العهود القديمة الى العصور الحديثة، مجلة الجريدة، السنة الثلاثون رقم 7162، حزيران 1982، ص 17.

الساحلية من شمالي اللاذقية الى نواحي جبيل، وكانت تتبعها عدة ولايات ومنها بلاد الضنيين (أي الضنية) وبسرية (أي بشري).

9 ـ الحكم المملوكي للبنان:

بدأ الحكم المملوكي للبنان في سنة 659هـ/ 1260م، واقتصرت سيطرتهم في البداية على سهل البقاع وبلاد الغرب التنوخية، في حين كانت معظم المناطق اللبنانية في الجنوب والشمال والساحل بيد الصليبيين، الذين استمرّت سيطرتهم عليها حتى سنة 691هـ/ 1291م. وقد لجأ المماليك الى إسكان جماعات من التركمان على السواحل بين انطلياس وطرابلس، لتطلعهم على تحركات الصليبيين، أما الدفاع عن بيروت والساحل الجنوبي، فكان من نصيب الأمراء البحتريين الذين كان عليهم إبلاغ المماليك بكل تحرّك معادي من جانب سفن الفرنجة[1]. وقد عمد المماليك الى أنّ يسكنوا مع آل بحتر، أسراً محلية أخرى من بني أبي الجيش المعروفين، وبني سعدان من عرامون. وأصبح آل أبي الجيش ينافسون آل بحتر على الزعامة في الغرب ويقومون بالوشاية ضدهم إلاّ أنّ الولاء البحتري للمماليك لم يكن كلياً، فقد كان ولاؤهم متأرجحاً بين الصليبيين أحياناً والمسلمين أحياناً أخرى. كما تأرجحوا بين الولاء للمماليك من ناحية وخصومهم من ناحية ثانية.

وفي ذلك يقول صالح بن يحي: «إنّ جمال الدين بن حجي حارب مع المغول في معركة عين جالوت، بينما كان ابن عمه الأمير زين الدين بن علي يحارب مع المماليك، ليكون أحدهم مع المنتصر فيسد خلة رفيقه وخلة البلاد قصدا بذلك إصلاح الحال»[2].

وقد عهد السلطان بيبرس إلى الأميرين البحتريين زين الدين بن علي

---

(1) صالح بن يحي، تاريخ بيروت، وهو أخبار السلف من ذرية بحتر بن علي أمير الغرب ببيروت، حققه فرنسيس هورس وكمال الصليبي، بيروت، دار المشرق، 1969، ص 32، 63.

(2) صالح بن يحي، مصدر نفسه، ص 41- 42، 60.

وجمال الدين بن حجي، بمراقبة تحركات الفرنج بين بيروت وصيدا، ولكن دعاة السوء تمكنوا من شحن بيبرس ضدّ الأمراء البحتريين، وتم إتهامهم بالولاء للصليبيين، مما جعله يأمر في سنة 670هـ/ 1271م، بسجنهم مع الأمير سعد الدين خضر، كل واحد في سجن منفرد، وفي أمكنة متباعدة في الديار المصرية. وقد ابقي عليهم في السجن إلى حين تحرير المدن الساحلية من أيدي الصليبيين، ولم يطلق سراحهم إلاّ بعد وفاة السلطان بيبرس، عندما عفت عنهم السلطنة المملوكية، في عهد بركة خان إبن بيبرس سنة 676هـ/ 1277م. غير أنّ التعاون القائم بين البحتريين والمماليك، لم يمنع من الإبقاء صلات الود بين البحتريين والصليبيين، بحيث تمكن الأمير جمال الدين بن حجي من الحصول على اعتراف بتثبيته على إقطاعه في العمروسية وذلك من قبل هنفري بن دمو نقرب (Hnfri bn Damo Nkrab)، صاحب بيروت الفرنجي، شرط أنّ لا يبيعه أويهبه، وإذا فعل ذلك سقط حقه فيه، كذلك من الشروط أن لا يقيم في إقطاع الأمير حجي أي هارب أو فار[1]. إلا أن التواجد الصليـبي في هذه الفترة لم يكن قوياً كما في السابق، خاصة بعد سقوط إنطاكية سنة 666هـ/ 1268م، فراحوا يتطلعون إلى عقد الإتفاقات مع السلطان بيبرس، وعرضوا عليه مشاركتهم في منتوجاتهم وغلاتهم.

ثم لم يلبث أنّ عقد معاهدة مع ملكة بيروت إيزابيلا المعروفة بالدبونة في المراجع العربية، وهي من أفراد أسرة ديبلين الفرنسية (Débelin) التي كانت تحكم بيروت، وكانت مدة الهدنة عشر سنوات[2]. وقد جدّدت هذه الهدنة بين السلطان المنصور قلاوون وأميرة صور مرغريت لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام، تم بموجبها التعهد بعدم إقامة تحصينات جديدة في صور، وبوقوفها على الحياد إزاء أي صراع يحصل بين السلطان والصليبيين، على أن يتعهد المماليك بعدم التعرض لإمارة صور.

(1) القلقشندي، مصدر سابق، ج 14، ص 40 أ41، 73 ـ 74.

(2) ابن الفرات، مصدر سابق، ج 7، ص 35.

بعد ذلك تم تحرير مدينة طرابلس على يد قلاوون في سنة 688هـ/ 1289م، وفي سنة 691هـ/ 1291م، نشبت المعارك بين المماليك وبين الصليبيين على عهد الأشرف خليل بن قلاوون، الذي تمكن من إلحاق هزائم بالصليبيين وانتزع منهم عكا[1].

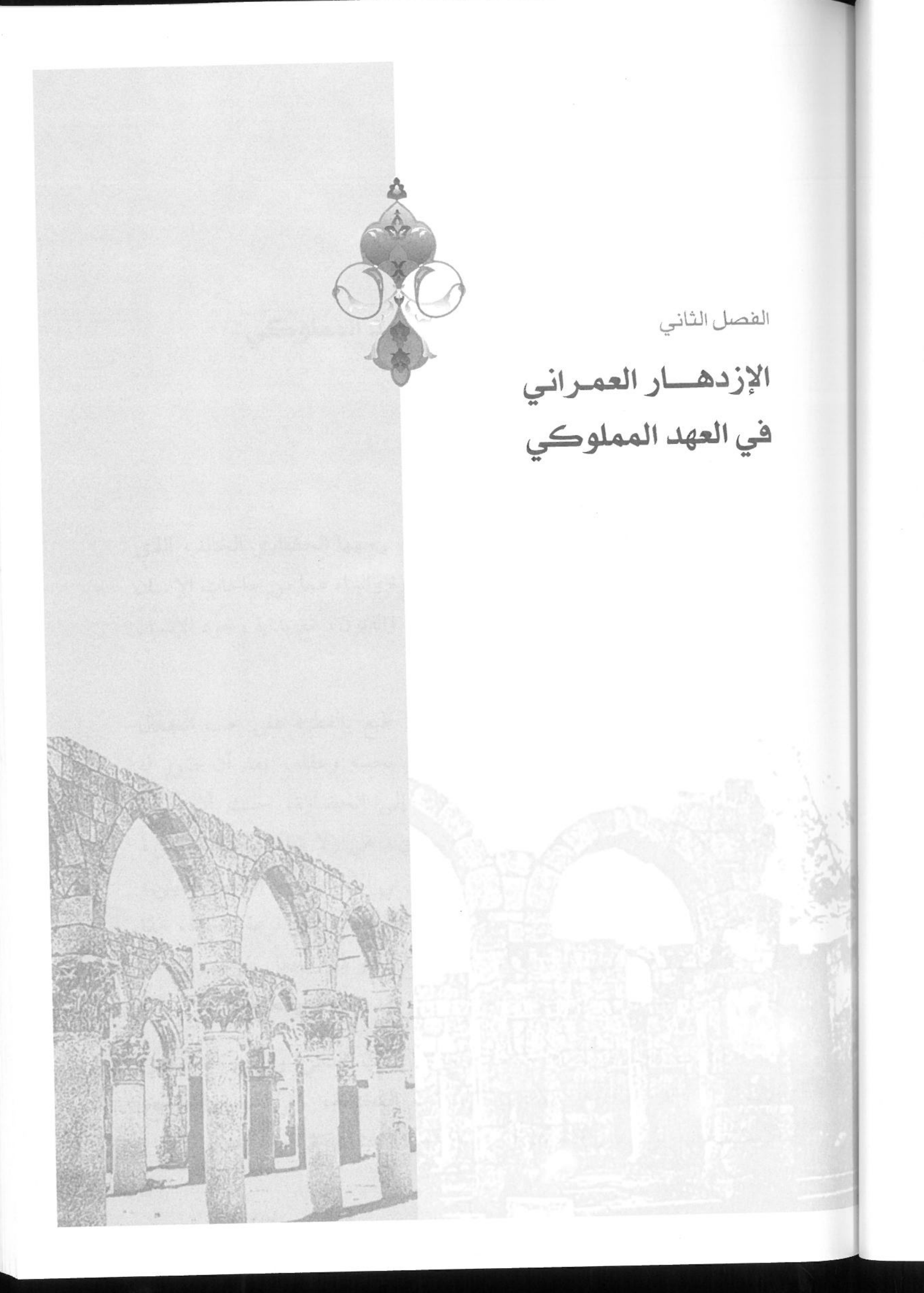
بسقوط عكا، سارع الصليبيون إلى إخلاء صيدا وصور وحيفا، غير أنّ قلعة صيدا أبدت بعض المقاومة، فتقدم منها الأمير سنجر الشجاعي وسيطر عليها وضمها إلى أملاك السلطان الأشرف، الذي كافأه بإعطائه نيابة الشام.

وفي هذا قال المقريزي: «وكان الأمير سنجر الشجاعي، نائب الشام قد سار رابع رجب إلى صيدا، وحاصر البرج حتى فتحه في خامس عشرة، وعاد إلى دمشق يوم رحيل السلطان منها». بعد ذلك طلب السلطان من سنجر دخول بيروت، بعد أنّ تقدم صاحبها بطلب الأمان من السلطان نفسه. وعلى هذا فقد إستعاد المماليك بيروت من الصليبيين دون مقاومة وذلك في سنة 691هـ/ 1291م[2].

وقد امتاز عهد السلطان الأشرف خليل بكثرة الفتوحات، وفي عهده دان الساحل اللبناني بكامله لسلطة المماليك وقد ارفق فتوحاته بعادة سيئة، ألا وهي قيامه بهدم هذه المدن، وتلك كانت عادة سيئة ورثها مماليك مصر عن أسيادهم السابقين من الأيوبيين. وذلك لكي لا تعود صالحة إذا ما فكر الصليبيون بالعودة إليها والتحصن فيها.

(1) أبو الفداء، مصدر سابق، ج 4، ص 25.

(2) المقريزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 769.



الفصل الثاني

الإزدهـــار العمـراني في العهد المملوكي

الإزدهار العمراني في العهد المملوكي

إن التراث المعماري لأمة من الأمم، هو وجهها الحضاري الخالد، الذي يحكي قصة أمجادها وتاريخها الطويل، والعمارة والبناء هما من حاجات الإنسان الضرورية الأولى. ولقد ابتدأت ملامح العمارة والفنون، مع بداية وجود الإنسان على هذه المعمورة.

فالإنسان منذ وجد على هذه الأرض، طبع بالفطرة على حب الجمال والفن، وهو الذي قاده إلى الحضارة والرقي بحسه وعقله، بعد أن صور له العالم إنفتاحاً لا ينتهي، وهو الذي قاده إلى الحضارة، حيث أن أقرب الإنجازات العلمية للتعبير عن الواقع الحضاري، هي ولا شك إنجازات الفن، مهما إختلفت وتباينت أشكالها. فالشعور الفني في الإنسان، هو الشعور الديني، الذي يجعل عواطف كل شعب من الشعوب، متآلفة تلتقي في نزعة واحدة، هذا الشعور الذي يجمع بين تطلعات أفراد المجتمع، هو ذاته يجعل نفوسهم تتناغم معاً مع معطيات الفن، وتتخذ منها مثلها ورموز مقدساتها وروابط التقائها.

فكانت العمارة سجلاً حافظاً لمعالم التراث الديني والرقي الحضاري الإنساني. وقد قامت في الأقاليم الإسلامية المختلفة، وفي عصور التاريخ الإسلامي الطويل، طرز فنية متنوعة في جزئياتها، متشابهة في مجموعها.

فالتنوع في الأجزاء، يرجع إلى إختلاف الأساليب الفنية القديمة في كل أقليم، بحسب الإقليم والعصور والأسرات الحاكمة، وبحسب تأثير المؤثرات الخارجية على الفنون الإقليمية، وإلى تطور هذه الفنون بمرور الزمن[1]، أما التشابه في المجموع فأساسه الإشتراك في العقيدة الدينية.

ويعتبر عصر دولتي المماليك فيما بين عامي 648هـ/ 1250م، و 923هـ/ 1517م، العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر وبلاد الشام، فقد زادت الرغبة، وكان الإقبال عظيماً على تشييد عدد كبير من المباني، من جوامع ومدارس وأضرحة وحمامات ووكالات وأسبلة[2].

كما ظهر التنوّع والإتقان والأناقة في شتى العناصر المعمارية من واجهات ومآذن وقباب وزخارف، كما شاع بناء المدافن الكبيرة.

وكانت دولة المماليك تحكم مناطق واسعة من البلاد الإسلامية، شملت مصر وبلاد الشام والجزيرة العربية واليمن والحجاز وليبيا، وهذا مما ساعد على تبادل التأثيرات الحضارية بين مختلف الأقاليم الخاضعة للحكم المملوكي، وبشكل خاص بين مصر وبلاد الشام[3].

ويتبيّن لنا فيما تبقى من الأبنية المملوكية، بأنّ هناك تطوراً في فنون العمارة، وتنوعاً وغنىً في العناصر المعمارية والزخرفية، ويعود ذلك إلى طول فترة العهد المملوكي من ناحية، وإلى تغيّر ظروف الحياة بالنسبة إلى العهود السابقة، فقد أخذ الناس في هذا العهد يبتعدون عن التقشف، ويميلون إلى البهرجة والإسراف في الزينة، وظهر ذلك جلياً على حركة البناء، فبدت المباني

---

(1) توفيق عبد الجواد، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، 1970، ج3، ص47.

(2) كمال الدين سامح، العمارة الإسلامية في مصر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، لا تاريخ، ص78.

(3) عبد القادر الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1979، ص157.

غارقة في الزخرفة في الداخل ومن الخارج، وطغى حبّ المظاهر على ما كان سائداً من مثل وتقاليد معمارية، مثل: الحرص على المتانة والضخامة ومراعاة النسب والبساطة[1].

وقد روعي في بناء المساجد تصميم المدارس والضرائح، مع المحافظة على تصميم الجوامع ذات الإيوانات والعمد والأكتاف. وفي العمائر التي روعي فيها تصميم المدرسة ذات الإيوانات المعقودة والمتقابلة على شكل صليب، فقد زيد في مساحة البناء ليكون مدرسة ومسجداً في الوقت نفسه، بل إنّ الإسمين معاً كانا يطلقان عليه في مثل هذه الحال. وكثيراً ما كان يضاف إليه ضريح للمنشئ. وكان إيوان القبلة في هذه المدارس والمساجد أوسع من سائر الإيوانات، بحيث تبدو هذه وكأنها حنيات في الجدران[2].

كذلك كان من مميزات العمارة المملوكية، زيادة العناية بواجهات المساجد، وهي العناية التي بدأت في عمائر العصر الفاطمي، وأصبحت بعد ذلك قاعدة متبعة في العصر المملوكي، وكانت تتجلّى في تتابع طبقات أو مداميك أفقية، من أحجار صفراء وأخرى حمراء داكنة، ولإحداث التوازن بين هذه الخطوط الأفقية، التي تعتمد على ألوان المداميك ، عملت تجاويف أو حنايا عامودية طويلة تشمل حائط البناء كلّه تقريباً، وفتحت فيه نوافذ تنتهي من أعلى بكورنيش من المقرنصات[3] تعلوه شرفات مسننة هذه الحنيات الرئيسة بما تحدثه من ظلّ ونور تساعد على تنويع السطح وإعطاء الإحساس بإرتفاع البناء، ويزين الواجهة أيضاً أشرطة من النقوش الكتابية والآيات القرآنية لإضافة نغمة ملمسية وضوئية للواجهة[4].

---

(1) نجدة خماش، دراسات في الآثار الإسلامية، مطبعة رياض، دمشق، 1981-1982، ص163

(2) زكي محمد حسن، فنون الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، 1981، ج2، ص32.

(3) المقرنصات: وهو جمع مقرنص، وهو إصطلاح معماري، معناه حنيات مقعرة توجد في أركان المربع المراد تحويله الى مثمن لإقامة قبة عليه. وقد تتعدد صفوف المقرنصات في أركان المربع، بحيث تصبح صغيرة جداً، وفي هذه الحالة تعرف بإسم الدلايات.

(4) أبو صالح الألفي، الفن الإسلامي، دار المعارف، مصر 1969، ص203.

وكان المهندس في العصر المملوكي يحرص كل الحرص على إبراز الواجهة، وما فيها من تجاويف وحنايا، فكان يفضل ألاّ يكون المدخل في وسطها بل في ركن منها، وأن يكون مرتفعاً بعض الشيء عن الأرض فيصعد إليه بسلّم من بضع درجات، ومن الوسائل التي أدت إلى إبراز الواجهة إتخاذ المئذنة في طرف منها بحيث يكون للمسجد مئذنة في ركن أو مئذنتان في ركنين من أركانه، وتبدو المئذنة بدون قاعدة مستقلة لها، وكأنها قائمة فوق شرفات المسجد[1].

وإمتازت المآذن في العهد المملوكي برشاقتها وإعتدال إرتفاعها، وبتناسق جمال النسب وروعة الإنسجام لأجزائها المختلفة، وقد تباينت أشكالها وتعددت صورها وإختلفت مواد بنائها، بإختلاف مواطنها، ففي المغرب والأندلس احتفظت بشكلها المربع المقتبس من المآذن السورية، وفي مصر إتخذت شكلاً مثلّث الطبقات، الأدنى مربع والأوسط مستدير والأعلى مثمّن تعلوه قبة مفصّصة يقال لها المبخرة، أو تنتهي بجوسق مسحوب إلى أعلى، ولا تخلو طبقة من هذه الطبقات الثلاثة من الزخارف الهندسية[2]، المحفورة على الحجر، من خطوط متعرّجة، أو دوائر متقاطعة أو نجوم متشابكة ويفصل بين الطابق والآخر شرفة تحملها مقرنصات على شكل خلايا النحل.

وفي بلاد الشام توحدت أشكال العمارة الدينية، بينها وبين مصر، وإتخذت القبة شكل الخوذة وقامت على قاعدة مضلعة أو مستديرة، مكوّنة في الغالب من مقرنصات مصحوبة بمثلثات كروية، وقد شاعت في سوريا القباب المزدوجة، التي تفصل بينها حنية البوابة[3].

ولم يعد المحراب يصنع من الجصّ أو الخشب، كما كان الحال أيّام

(1) زكي محمد حسن، مرجع سابق، ج2، ص79–80.
(2) عبد العزيز سالم، القيم الجمالية في فن العمارة الإسلامية، مطبعة المصري، بيروت، 1962، ص16.
(3) أبو صالح الألفي، مرجع سابق، ص203–204.

الفاطميين، وإنما أصبح يصنع من الرخام، وأصبحت وظيفته أكثر التصاقاً ووحدة مع البناء، مكملاً بطريقة عضوية للعناصر المعمارية والزخرفية الداخلية، فكانت هذه المحاريب ميداناً للإبداع في الفسيفساء الرخامية، وقد أصبحت تغشى بالرّخام الملوّن والصدف[1].

وإزدهرت في العهد المملوكي زخرفة الأرضيات بالرخام الملوّن كما كانت تكسى جدران المساجد من الداخل بوزرات الرخام الدقيقة، التي يتعاقب فيها اللونان الأبيض والأسود، ويرصعها بالصدف في أشكال هندسية فائقة الجمال، أمّا البهو فكان يكسى بفسيفساء من الرخام المتعدّد الألوان تتجلّى فيه رسوم هندسية تستهوي القلوب بجمالها وبهائها، ونحتت الزخارف نحتاً بسيطاً وكانت تقتصر على الأشرطة والألواح المنقوشة التي زين بها المبنى حسب التصميم الموضوع[2].

وكان للإيوانات ذات السقوف المسطّحة عوارض مذهّبة مزخرفة بالعرانيس، كذلك نجد أحياناً أفاريز من الجص المنقوش بالكتابة الزخرفية، والزخارف الفنية، وكانت الأبواب تحلّى بصفائح من البرونز، اتبع في تركيبها طراز الصناديق والأحقاق الصغيرة المستعملة في زخرفة الخشب. أما النوافذ الجصّية المكعّبة التي كانت معروفة في العهد الفاطمي، وكانت مزوّدة بالزجاج الملوّن (القمريّات)، فقد زادت أشكالها وتنوعت تصاميمها، وكانت تستعمل للتخفيف من ضوء النهار، الذي كان ينفذ ساطعاً جداً لوجود ذلك العدد الكبير من فتحات النور[3]. وكانت دور السكن تحتوي في العادة على طبقة عليا تخصّص للحريم[4]، وقاعة تطلّ من مقصورة على الفناء الداخلي، الذي كانت توجد بجانبه حجرة للإستقبال، وكانت القاعة تنقسم إلى ثلاثة أقسام، الوسط

(1) زكي محمد حسن، مرجع سابق، ج2، ص80.
(2) ديماند، الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد عيسى، دار المعارف، القاهرة، 1954، ص109.
(3) أرنست كونل، الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، دار صادر، بيروت، 1966، ص 110.
(4) كمال الدين سامح، مرجع سابق، ص21.

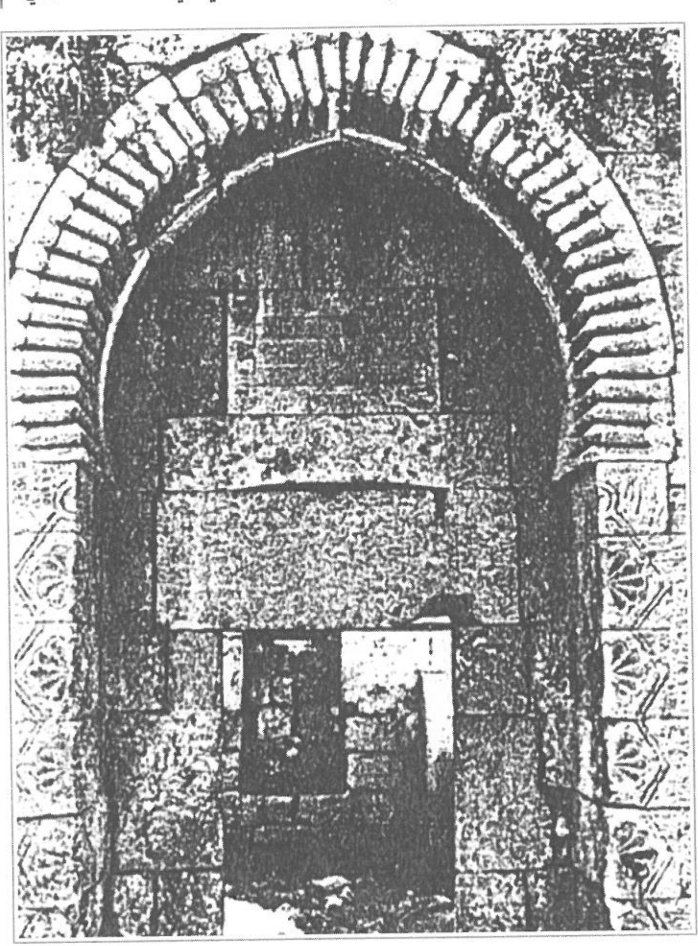
أقلّ إنخفاضاً من الإيوانين الجانبيين، ويوجد فيه نافورة للماء، وهو في العادة مقّبب تتخلّله قمريات، أمّا الزخرفة فهي بالرّخام وأشكال العقود والتيجان، مما نجده في دور العبادة، نجده هنا أيضاً. ولكن الخشب المحفور والمدهون ذات الحشوات، كان يلعب في الجهاز الداخلي دوراً أكبر من دوره في أماكن العبادة، كما كان الأجر أكثر إستعمالاً في مواد البناء من الحجر[1].

وغدت الواجهات في العصر المملوكي أكثر إنفتاحاً على الشارع، بواسطة الشبابيك العديدة في القسم السفلي، والطاقات الصغيرة في القسم العلوي، والشبابيك مستطيلة الشكل، وكانت الأقواس أو العقود المستعملة في قناطر الأروقة، وفي الأبواب من النوع الشائع في العمارة الإسلامية، كالقوس المدبّب المؤلف من قوسين متلاقيين في الأعلى، وهو واسع الفتحة من النوع المسمّى بالمخموس، ولا يتجاوز نصف الدائرة إلا نادراً، كما عاد إلى الظهور القوس الفارسي، ولعلّ ذلك يرجع إلى التأثر بمباني الأناضول وقونية[2].

كذلك كان هناك قوس جديد شاع في العصر المملوكي، نجده يعلو أواوين الأبواب والشبابيك أو الأسبلة، وهو مفصّص بحيث يشبه مجموعة من مجلدات الكتب المرصوصة إلى بعضها، ويمكن أن نعتبره شكلاً متطوّراً للقوس الكثير الفصوص[3]، نجد أمثلة على هذا القوس في قبة السعادين في بعلبك، وفي شباك البرج الإسلامي في قلعة صيدا البحرية، الذي بناه الأمير جلبان الظاهري.



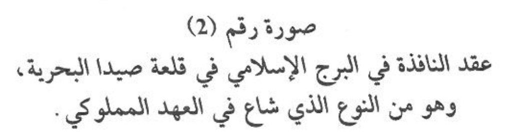
(1) أرنست كونل، مرجع نفسه، ص111.
(2) توفيق عبد الجواد، مرجع سابق، ص116.
(3) عبد القادر الريحاوي، مرجع سابق، ص161.



صورة رقم (1)
مدخل قبة السعادين
في بعلبك

كذلك إستمر إستخدام القوس المفصّص (ثلاثي الفصوص)، بغرض التنويع والزخرفة، ونجده في واجهات المباني والمآذن[1]، أمّا الأقواس العاتقة التي تخفّف الحمل عن سواكف الأبواب والشبابيك، فقد أصبحت قليلة الإرتفاع، وهي عبارة عن شق أو فراغ صغير، ولكنها مزدوجة، غالباً الواحد فوق الآخر، ليكون مفعولها مؤكداً، وقد لجأ المعماري إلى ذلك بسبب ما شاهده من تكسر سواكف المباني.

(1) نجدة خماش، مرجع سابق، ص164



صورة رقم (2)
عقد النافذة في البرج الإسلامي في قلعة صيدا البحرية،
وهو من النوع الذي شاع في العهد المملوكي.



تصوير خاص بالباحث

وهذا العقد هو من العقود ذات الوسائد المتصلة، الشبيهة بمجلدات الكتب المرصوفة بجانب بعضها البعض، وهو عقد نجد له نماذج كثيرة في الآثار المملوكية، مثل: مئذنة جامع الأمير سيف الدين طينال في طرابلس، ومنظرة المدرسة الشمسية المطلة على مدخل الجامع المنصوري الكبير في طرابلس، ومدخل قبة السعادين في بعلبك.

أما تيجان الأعمدة فقد غلب عليها النوع المقرنص الذي بدأ يظهر في العهد الأيوبي، ولم يعد يستعمل التاج الكورنثي إلاّ نادراً. وكانت المقرنصات شائعة الإستعمال في الزخرفة الداخلية، خاصة في رقاب القباب، وكان لها

أهمية معمارية أيضاً، إذ إستعملت كعنصر إنشائي في تحويل المسقط المربع إلى دائرة لإمكان التغطية بالقبة[1].

وكانت القباب كشكل للتغطية، يكاد لا يخلو منها أيّ من المباني، سواء أكان مسجداً أو مدرسة أو تربة أو حماماً أو قصراً، كذلك نجد أحياناً قبتين متناظرتين متساويتين في الحجم على جانبي أبواب المباني، وهذه صفة انفردت بها أكثر مباني دمشق، إضافة إلى القباب كانت التغطية تتمّ في الأجزاء العامة من البناء بواسطة الأقباء، أو السقوف المستوية المكسوّة من الداخل بالخشب المزخرف.

وكان الطابع المميز للعمارة في العصر المملوكي، كثرة الزخارف، ولقد زوّدت المباني بعناصر معينة، نكاد نلحظها في سائر مباني هذا العهد، ذلك أنّ الزخارف الحجرّية اعتمدت على نحت الحجر وحفره ونقشه، ومن أنواعه المقرنصات التي نجدها في أماكن عديدة، كزوايا القباب من الداخل، وفي تيجان الأعمدة، وفي عقود أواوين الأبواب، وبعض الشبابيك وفي شرفات المآذن البارزة[2]. كذلك نجد الزخارف الحجرية في الأشرطة المنقوشة بالخطوط الهندسية النافرة، أو المتداخلة التي تتخلّل الواجهات، أو تؤلف إطارات حول الأبواب والشبابيك، أو التي تؤلف أقواساً للمحاريب، كذلك في الأشرطة المؤلفة من سلسلة من المحاريب الصغيرة، التي تأتي غالباً في أعلى الواجهات الخارجية والداخلية.

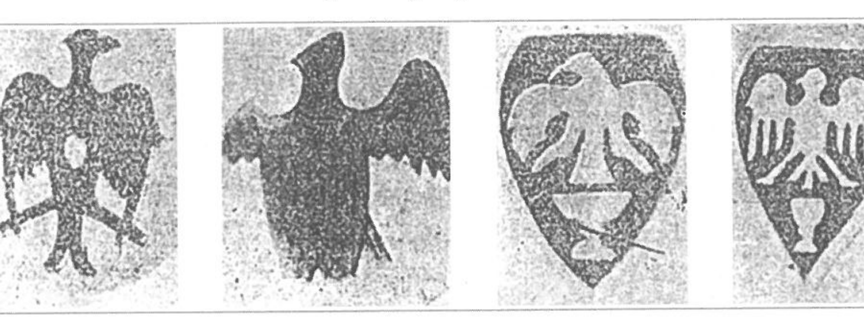
كذلك نجد إطارات تحيط بعقود الأبواب منقوشة بأوراق نباتية، ويتخلّل هذه الأنواع من الزخارف الحجرية، كتابات زخرفية منقوشة على

(1) صالح لمعي، مرجع سابق، ص50.

(2) جورج مارسيه، الفن الإسلامي، ترجمة عفيف بهنسي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1968، ص31.

الحجر بخطوط كوفيّة أو نسخية، أو رنوك[1] تنقش في الواجهات أو على الأبواب كشعار خاص بصاحب المبنى إذا كان من الملوك أو الأمراء[2].

صورة رقم 3
أشكال متنوعة لرنك النسر



عن إبراهيم طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص333، رقم 8، 9، 10، 11

(1) رنك (Logo): كلمة فارسية بمعنى لون، وقد استعملت في أوروبا في العصور الوسطى كشعار للأشخاص والأسر، بينما استعملت في المشرق كشعار للوظائف. وكان من عادة كلّ أمير مملوكي أن يكون له رنك يخصه، والرنك شعار فيه رسوم تدل على الوظيفة التي يؤثر أن يعرف بها من بين الوظائف التي تقلّب فيها، وهو لا يختلف عن رنوك الأسر الإقطاعية في أوروبا في العصور الوسطى، إلاّ من حيث كونها شخصية، ومن حيث دلالتها على الوظائف فكان لوظيفة الدوادار رسم دواة، وللساقي رسم كأس، وللسلاح دار سيف، وللبندقدار سيف، وللجمدار بقجةب

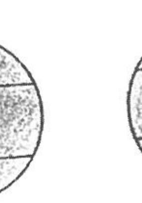
وقد جعل الأمراء من هذه الرنوك رسماً أو نقشاً على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم، والأملاك التابعة لهم، وعلى قماش خيولهم وجمالهم، وربما جعلوها على السيوف والأقواس الخاصة بهم وبمماليكهم. وقد ظهرت الرنوك في العالم الإسلامي منذ عهد الأتابكة، ولكنها شاع أستخدامها في عصر المماليك، ثم أختفت تماماً بعد الفتح العثماني لمصر. - أحمد مختار العبادي قيام دولة المماليك، ص165.

(2) نجدة خماش، مرجع سابق، ص167.

صورة رقم 4
أشكال متنوعة لرنوك مملوكية

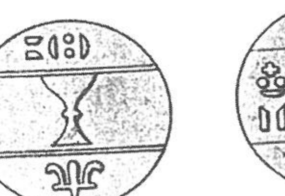


1 ـ رنك الشرقي يوقس الدوادار (دوادار برقوق) به كأسان ومحبرة



2 ـ رنك مشابه وجد على مئذنة مسجد برقوق

رنك النسر الخاص بالسلطان إينال.



3 ـ رنـــك وجد على سبيل في دمشق ويرى فيه فرعان في أعلى الرنك بينهما بقجة، وفـي الوسط (الله) على كأس، وفـــي الجانب الأيمن قرن بارود وفي الجـانب الأيسـر محبرة. وفي أسفل الرنـك فرعـان بينهما كأس.



4 ـ رنك بأعلاه محبرة وفي وسطه كأس، وفي أسفله زهرة الزنبق.



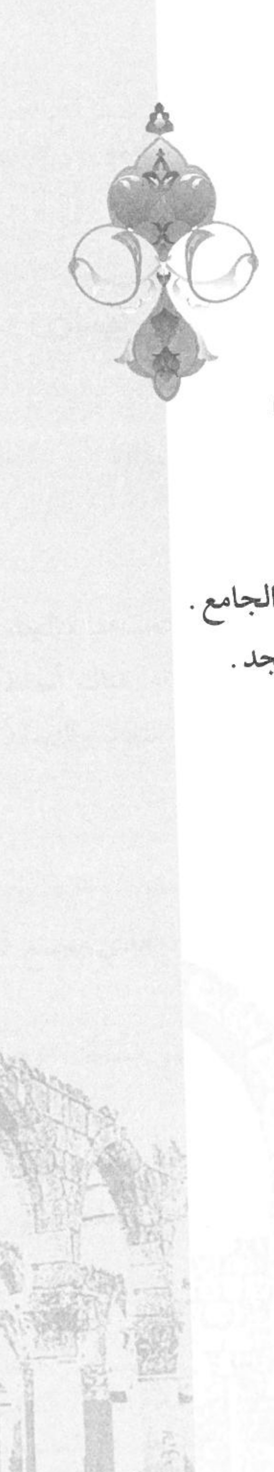
نسـر لـه رأسـان، نقـش على نسيج مـن الحـرير الأزرق، ووجـد بجانبه عبارة، (عز لمولانا السلطان عز نصر).



5 ـ رنك في أعلاه المحبرة وفي الشطب كـأس في جانبيها مضربان وكرتان وفي القسم الأسفل زهرة الزنبق.

(من متحف الفن الإسلامي بالقاهرة)

صور عن إبراهيم طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص. 32



الفصل الثالث

أماكن العبادة في لبنان

1 ـ المسجد والجامع :

أ ـ الفرق بين المسجد والجامع .

ب ـ الأهداف العامة للمسجد .

2 ـ الخانقاه .

3 ـ الزاوية .

4 ـ التكية .

5 ـ الرباط .

6 ـ المصلى .

7 ـ المقام والمزار والمشهد .

8 ـ الكنائس والأديرة .

9 ـ الخلوة .

أماكن العبادة في لبنان

وعلى الرغم من شيوع استعمال كلمة المسجد والجامع على أبنية العبادة الإسلامية، التي يؤدون فيها صلواتهم، إلا أنه هناك أنماط أخرى من الأبنية الدينية، استعملها المسلمون وما زالوا من أجل التعبد والتهجّد.

ومن هذه الأنماط العمرانية الدينية:

1 ـ المسجد والجامع

جاء في تاج العروس: المسجد الجامع: الذي يجمع أهله، نعت له لأنه علامة للإجتماع[1].

وقال الزركشي: «كلّ موضع يتعبد فيه فهو مسجد، وهو يلفظ بفتح الجيم وكسرها»[2].

ويقول جواد علي: «وقد وردت اللفظة (أي المسجد)، في نصوص بني أرم. وفي النصوص النبطية والصفوية، وردت على هذه الصورة (مسجداً)، وقد عنت به معبداً»[3].

---

(1) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس ، المطبعة الخيرية، مصر، 1306هـ، ج5، ص305.

(2) الزركشي، أعلام الساجد بأحكام المساجد، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، 1965، ص27.

(3) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط. دار العلم، بيروت، 1968، ج6، ص400-401.

كان المسجد أوّل عمل معماري أبدعه الإسلام، وميّزه عن بقية الأمم، فهو نواة تشكيل المدينة الإسلامية، ويعتبر المسجد من أهمّ المباني التي تمتاز بها العمارة الإسلامية، وكان أوّل ما جرى الفاتحون المسلمون على القيام به بعد فتح بلد ما، هو إنشاء المسجد الجامع[1].

وكانت المساجد الأولى في الإسلام بسيطة في تخطيطها تناسب شعائر الدّين الجديد، فكانت قطعة الأرض تحاط بجدران أربعة، وكان السقف يقام على أعمدة مصنوعة من جذوع النخل، أو مأخوذة من الأعمدة الحجريّة في المعابد والكنائس المهجورة في الأقطار التي فتحها العرب. ولكنّ المسلمين وجدوا في هذه الأقطار بنائين مهرة، فتطوّرت عمارة المساجد، وزادت فيها أجزاء يظنّ بعض الباحثين أنّها منقولة عن بعض أجزاء العمارة المسيحية، فالمئذنة قد تكون منقولة عن أبراج الكنائس، والمحراب قد يكون منقولاً عن حنية في صدر الكنيسة[2].

والرسول (ص) أنشأ أوّل مسجد في الإسلام، بعد وصوله مهاجراً من مكة إلى المدينة عام 1هـ/ 622م، فقام بتخطيطه، وجعل له قبلة يُولّيَ المصلون جميعاً وجوههم إليها. وكانت القبلة الأولى تجاه بيت المقدس. ثم أمر الله تعالى بتغيير إتجاه القبلة نحو الكعبة، حيث جاء في القرآن الكريم: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[٣].

وعندما شرع النبي (ص) في بناء مسجده في المدينة، فإنه لم يصممه على النحو الذي نعرفه اليوم في المساجد، ذلك أنّ هذه المساجد، دخلت عليها

(1) أحمد فائز الحمصي، روائع العمارة الإسلامية، وزارة الأوقاف السورية، دمشق 1982، ص13.
(2) زكي محمد حسن، فنون الإسلام، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1948م، ج3، ص21.
(3) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 144.

أطوار عديدة نتيجة لإحتكاك المسلمين بغيرهم من الأمم، واستجابة للمتطلبات التي تقتضيها الضرورات التي فرضها الواقع الحضاري وحاجة المسلمين إلى التفاعل معها ومسايرتها. ولقد نقل إلينا إبن سعد في طبقاته صورة عن هذا المسجد، وكيف كان بناؤه، حيث قال:[1]

«فأمر رسول الله (ص) بالنخل الذي في الحديقة وبالغرقد الذي فيها أن يقطع، وأمر باللّبْن فضرب، وكان في المربد قبور جاهلية، فأمر بها رسول الله (ص)، فنبشت، وأمر بالعظام أن تغيب، وكان في المربد ماء مستنجل[2] فسيروه حتى ذهب، وأسسوا المسجد، فصّفوا النخل قبلة، وجعلوا عضادتيه حجارة، وجعلوا طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، وفي الجانبين مثل ذلك، ويقال كان أقلّ من مائة، وجعلوا الأساس قريباً من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة، ثم بنوه باللبن....

وجعلت قبلة المسجد بإتجاه بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب: باب في مؤخره، وباب يقال له باب الرحمة، وهو الباب الذي يدعى باب عاتكة، والباب الثالث الذي يدخل فيه رسول الله (ص)، وهو يلي مساكن آل عثمان. وجعل طول الجدار بسطة[3] وعمده من جذوع النخل وسقفه جريداً. ولم يكن لهذا المسجد أوّل الأمر سقف، فقال الصحابة للنبي (ص): ألا تسقفه، فقال: عريش كعريش موسى، خشبيات وتمام الشأن أعجل من ذلك».

وقد أثار تحوّل النبي (ص) عن الصلاة بإتجاه بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة، لغطاً وتعليقات شتى بين اليهود، الذين رأوا في عمل النبي (ص) إنتقاصاً من كبريائهم الدينية، فراحوا يقولون للمسلمين: «ما صرفكم إلى مكة وتركتم قبلة موسى ويعقوب والأنبياء، والله ما أنتم إلاّ تعبثون!» فأنزل الله تعالى على النبي الآية الكريمة:

(1) إبن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، 1380هـ-1960م، ج1، ص239.
(2) مستنجل: مستنقع.
(3) بسطة: أي بمقدار قامة الرجل العادي.

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾[1].

كان مسجد الرسول (ص) في المدينة يضم في صورته الأولى العناصر التالية:

- ساحة مكشوفة، وهي التي تعرف بالصحن في مصطلح المساجد. وجزء من تلك الساحة مغطى بسعف النخيل والطين يقع في ناحية القبلة. هذا الجزء يسمى المصلّى أو الحرم.
- قبلة محدّدة يقف المصلّون تجاهها صفوفاً جنباً إلى جنب بحيث يؤلفون جبهة عريضة متراصة وجوههم تتجه ناحيتها، وهي البيت الحرام في مكة.
- موضع محدّد في جدار القبلة يقف اتجاهه الإمام، وهو المحراب.
- موضع مرتفع إلى يمين المحراب يقف عليه الخطيب، وهو المنبر.

وهذه العناصر الرئيسة، الصحن والحرم والقبلة والمحراب والمنبر، لا يمكن أن يخلو منها أيّ مسجد، وكلّ ما عدا ذلك فهي زيادات وعناصر إكمال وتجميل حدثت فيما بعد[2].

أ ـ الفرق بين المسجد والجامع

إن كلمة الجامع والمسجد مترادفتان، وهما تؤدّيان في مفهوم الناس في زماننا معنىً واحد. مع أن كلمة جامع يقصد بها إطلاق القول على عمومه، وكلمة مسجد يراد بها تخصيصه. لأن كل جامع هو في نفس الوقت مسجد، ولكن ليس كل مسجد جامعاً.

ذلك أن الجامع هو المسجد الذي تؤدى فيه الصلاة الجامعة، بينما المسجد هو المكان الذي يؤدي فيه المسلمون صلاتهم اليومية.

(1) سورة البقرة، الآية 142.

(2) أحمد فائز الحمصي، مرجع سابق، ص 14.

يقول المقريزي في خططه: «إنه لما إفتتح عمر البلدان، كتب إلى أبي موسى الأشعري، وهو على البصرة يأمره بأن يتخذ مسجداً للجماعة، ويتخذ للقبائل مساجد، فإذا كان يوم الجمعة انضمّوا إلى مسجد الجماعة، وكتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك، وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك، وكتب إلى أمراء الأجناد بالشام ألاّ يتبددوا إلى القرى، وأن ينزلوا المدائن وأن يتخذوا في كلّ مدينة مسجداً واحداً، ولا تتخذ القبائل مساجد. فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده»[1].

«ومن هنا أصبحت كلمة الجماعة خاصة على جماعة من المسلمين يؤدّون الصلاة جميعاً خلف الإمام، والمكان الذي تقام فيه الصلاة جماعة، يسمى مسجد الجماعة».

ذكر ابن طولون: «إنّ دمشق من فتوح عمر إلى اليوم، لم يكن في داخل سورها إلا جمعة واحدة»[2].

وعندما سيطر الأيوبيون على حكم مصر، أسندوا منصب قاضي القضاة إلى عالم شافعي، هو عبد الملك بن درباس، الذي أفتى بعدم جواز إقامة الجمعة في مسجدين في بلد واحد. وبهذه الفتوى توقفت الخطبة إلاّ في جامع الحاكم، الذي أصبح مسجد الجماعة

نظراً لإتساع رقعته. وبقي المصريون يؤدّون الجمعة في هذا الجامع فقط حتى كانت سنة 665هـ/ 1266م، ففيها أراد الأمير عزّالدين أيدمر الحلّي نائب السلطنة في عهد السلطان الظاهر بيبرس، العودة إلى إقامة الجمعة في الأزهر، فرفض قاضي القضاة ذلك لعدم جواز الجمعتين في بلد واحد، لكن بعض العلماء خالفوه وأفتوا بجواز ذلك، فأخذ النائب المذكور بفتواهم، فأقيمت

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص246.

(2) ابن طولون، مصدر سابق، ص 245.

جمعة ثانية في جامع الأزهر، وتمّت الصلاة في ربيع الأول سنة 665هـ/ 1267م، في حفل مشهود[1].

يقول الخطيب البغدادي في تاريخه: «إنّ أوّل من سمح بتعدّد الجمعة في البلد الواحد، هو الخليفة المعتضد بالله المتوفي سنة 289هـ/ 895م، وسبب ذلك أن أمير المؤمنين المعتضد بالله أخبر بضيق المسجد الجامع بالجانب الغربي من مدينة السلام، في مدينة المنصور، وأن الناس يضطرهم الضيّق إلى أنّ يصلّوا في المواضع التي لا يجوز فيها الصلاة. فأمر بالزيادة فيه من قصر أمير المؤمنين المنصور، فبني مسجد على مثال المسجد الأول وفي مقداره أو نحوه»[2].

أما إبن طولون فيقول: «أمّا لفظ الجامع، فهو للمسجد الذي تقام فيه الجمعة، وهو أكبر مسجد في البلد، فدمشق المسورة، لم يكن يصلى فيها إلاّ جمعة واحدة في الجامع الأموي. وكان يصلّى في مساجد أخرى خارج السور، بإعتبار أنّ كلّ جهة هي بلدة مستقلة، كجامع التوبة في العقيبة، وكجامع تنكز ويلبغا»[3].

يتبين لنا من كلّ ذلك أن كلمة الجامع تطلق على المسجد الذي تقام فيه الصلوات الخمس، والجمعة والعيدان، أمّا كلمة المسجد فهي تطلق على المكان الذي تقام فيه الصلوات الخمس فقط.

ب ــ الأهداف العامة للمسجد

يحتل المسجد المكانة الأولى بين الأبنية الإسلامية، ذلك أنّ العلوم والفنون على إختلافها إرتبطت بالمسجد وعمارته، ولم تقتصر وظيفة المسجد في أوّل الأمر على الصلاة فحسب بل كان المسجد مركز الإدارة والدعوة

(1) المقريزي، مصدر سابق، ج2، ص275.

(2) البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967، ج1، ص108.

(3) إبن طولون، مصدر سابق، ص 245.

والتشاور، كما كان محل القضاء والإفتاء والعلم وغير ذلك من أمور الدّين والدولة[1].

فالمسجد عند المسلمين، لا سيما في العهود الغابرة، كان إلى جانب وظيفته كمكان للتعبّد والصلاة، يؤدي في نفس الوقت رسالته الحضارية في مختلف وجوه النشاطات الإنسانية، التي يمارسها البشر ويحتاجون إليها في حياتهم.

وفي هذا يقول الكاتب الفرنسي غوستاف لوبون (Gustave Lebon): «المسجد مركز الحياة الحقيقي عند العرب، فالعرب يتخذون من المسجد محلاً للإجتماع والعبادة والتعليم والسكن عند الإقتضاء، وملاجئ للغرباء ومراجع للمرضى، لا للعبادة فقط، كبيع النصارى، وهكذا يتجلّى إختلاط الحياة الدينية بالحياة المدنية عند المسلمين في مساجدهم»[2].

ومما لا شك فيه أنّ المسجد أنشئ في بداية الأمر ليكون معبداً للمسلمين، ولكن العبادة في الدين الإسلامي لا تنحصر في ما تعنيه هذه الكلمة في الأديان الأخرى، لأن النبي (ص) لم يجعل دعوته محصورة في المراسم الشكلية التي تحدّد المفهوم الديني في النظريات الروحية، وتعزل المسلم عن المشاركة الفعلية بين علاقته بربّه، وعلاقته بالمجتمع الإنساني، فالإسلام هو محاولة لتنظيم الأفراد على أساس وجودهم على هذه الأرض من خلال شدّهم إلى عقيدة الإيمان بالمثل العليا، التي جاء بها القرآن الكريم. ولهذا نجد المسجد يعكس في طبيعته وأهدافه نزعة الرسول (ص)، لتحقيق المجتمع الأفضل عبر المفاهيم التي جاءت بها رسالته الإسلامية. ونتيجة لتداخل المفاهيم الروحية بالمفاهيم الإنسانية في الإسلام، فإن المسجد هو في نفس الوقت مكاناً للتعبّد الروحي، وكذلك مركزاً للإنطلاق الحضاري[3].

(1) حسن الباشا، مدخل إلى الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1979، ص127.

(2) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ط3، ص425.

(3) طه الولي، المساجد في الإسلام، ص158-159.

يقول المقريزي عن الجامع الذي بناه عمرو بن العاص في فسطاط مصر: «بيت المال الذي في علو الفوارة بالجامع، بناه أسامة بن زيد التنوخي، متولّي الخراج بمصر سنة 97هـ، أيّام سليمان بن عبد الملك، وأمير مصر يومئذ عبد الملك بن رفاعة الفهميب وكان بيت مال المسلمين فيه».

كذلك يقول: «إنّ أبا عمرو الحارث، لما ولّى القضاء بمصر من قبل المتوكّل على الله سنة 237هـ/ 852م، أمر ببناء الرحبة الملاصقة لدار الضرب ليتسع بها الناس، ثم زاد فيه أبو بكر محمد بن عبد الله الخازن رواقاً واحداً من دار الضرب، وهو الرواق ذو المحراب والشباكان المتصلان برحبة الحارث...»[1].

وكلام المقريزي يبيّن لنا، أن المسلمين لم يستعملوا المسجد للصلاة فقط، بل إنهم إلى جانب ذلك، إتخذوا منه خزينة للدولة ومصنع نقودها.

وفي المسجد الجامع، كان أمير المؤمنين يجلس أياماً معينة في الإسبوع للفصل بين الناس فيما يعرضونه عليه من القضايا والمنازعات.

يقول إبن قاضي شهبة في حوادث سنة 555هـ/ 1158م،: «وفيها استعفى زكريا أبو الحسن علي بن محمد بن يحي بن علي القرشي من القضاء بدمشق فأعفاه نور الدين، وولى مكانه القاضي كمال الدين الشهرزوري وكان من خيار القضاة، وإليه ينسب الشباك الكمالي الذي يجلس الحكام فيه بالجامع بعد صلاة الجمعة، من المشهد الغربي بالجامع الأموي»[2].

كذلك فإن المسجد، كان يقوم بدوْر الإذاعة، وكانت قرارات الخليفة والحكام تتلى على جماهير المسلمين من فوق المنابر[3].

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص249-250.
(2) إبن قاضي شبهة، الكواكب الدرية في السيرة النبوية، تحقيق محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971م، ص159.
(3) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج4، ص421-422.

وفي هذا يقول المقريزي: «إنّ الخليفة الفاطمي، الحاكم بأمر الله، أمر بأن يقرأ سجل على سائر المنابر، بتلقيب القائد حسين بقائد القواد، وخلع عليه»[1].

كما كانت بيانات الخلفاء تعلّق على أبواب المساجد الجامعة، حيث يكثر تجمع الناس للصلاة ولحضور المناسبات الدينية، كذلك فإنّ بعض الحكام كانوا يأمرون بنقش هذه الأوامر على جوانب مداخل المساجد، وعلى أعمدتها الداخلية، كي تبقى ثابتة ودائمة، وما تزال هذه النقوش ظاهرة حتى اليوم في كثير من المساجد القديمة.

وكانت المساجد تقوم بدور المؤسسات العلمية، حيث أنّ أشهر العلماء بدأوا حياتهم العلمية من أروقة المساجد. وقد ذكر غوستاف لوبون الدور العلمي للجامع الأزهر فقال: «الجامع الأزهر الشهير القائم في القاهرة، الذي يضم ثلاثماية أستاذ، وأكثر من عشرة آلاف طالب، يقصدونه من جميع أنحاء العالم الإسلامي. حقاً إنّ هذا الجامع هو مركز ديني وأدبي مهم إلى الغاية، وأنه يتخّرج على أساتذته خلق كثير من الوعاظ والعلماء والقضاة والأعيان والنافذين»[2].

وقد نقل المستشرق آدم متز عن المقدسي، ما شاهده في جامع الفسطاط، حيث يقول: «وبين العشائين يزدحم جامع الفسطاط بخلق من الفقهاء وأئمة القراء وأهل الأدب والحكمة ودخلتها مع جماعة من المقادسة، فربّما جلسنا نتحدّث، فنسمع النداء من الوجهين: «دوروا وجوهكم إلى المجلس، فننظر، فإذا نحن بين مجلسين، وعلى هذا جميع المساجد، وعددت فيه مائة وعشرة مجالس»[3].

وكانت المساجد تحتوي على مكتبات، تضم في رفوفها المراجع

---

(1) المقريزي، مصدر سابق، ج2، ص15.
(2) غوستاف لوبون، مرجع سابق، ص427.
(3) آدم ميتز، الحضارة الإسلامية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967، ص100.

والمصادر والمصنفات، التي تساعد الطلبة على الدراسة والبحث، وكان الخلفاء والأعيان والعلماء يتنافسون في وقف الكتب على المساجد.

وأخيراً يمكننا القول مع الشيخ علي الطنطاوي حيث يقول: «المسجد هو المعبد، يدع المسلمون أحقادهم ومطامعهم وشرورهم وفسادهم على الباب، ويدخلون إليه بقلوب متفتحة بالإيمان، متطلعة إلى السماء، متحلّية بالخشوع، ثم يقومون صفّاً واحداً، يستوي فيه الكبير والصغير والأمير والحقير، والغني والفقير، أقدامهم متراصة وأكتافهم متزاحمة، وجباههم إلى الأرض، يستوون في شرف العبودية، وفي شرعة العبادة.

والمسجد هو البرلمان، إذا ما دهم المسلمون أمر، وما عرض لهم عارض، إلا نودي الصلاة جامعة، فإجتمع الشعب في المسجد، ففي المسجد، يكون إنتخاب الخليفة، وفيه تكون البيعة.

وفيه تبحث القوانين، تستمدّ من الشرع ثم تعلن على الناس»[1].

وهو النادي، إذا قدم أمير بلداً، كان أوّل ما يدخله هو المسجد، وعلى منبره يعلن سياسته ويُذيع منهاجه، وإن كانت حرب، عقدت الرايات في المسجد. وهو المدرسة، وفي المساجد، وضعت أسس الثقافة الإسلامية، وفيها إرتفعت ذراها وشيدت صروحها، وكان يُدرس في المسجد كل علم ينفع الناس من علوم القرآن وعلوم السنّة، وعلوم اللسان، وعلوم سنن الأكوان، وكلّ علم تحتاج إليه الأمة الإسلاميّة[2]. هكذا كانت المساجد فيما مضى، أما اليوم فهي مجرد مكان لأداء المناسك الروحية، والطقوس الشكلية، ولإثبات الهوية الطائفية.

2 ـ الخانقاه

قال المقريزي: «الخوانك، جمع خانكاه، وهي كلمة فارسية، معناها

(1) علي الطنطاوي، الجامع الأموي في دمشق، نشر دار الفكر، 1380هـ-1961م، ص18.
(2) حسن إبراهيم حسن، مرجع سابق، ج4، ص422.

البيت، وقيل أصلها خونقاه، أي الموضع الذي يأكل فيه الملك. والخوانك حدثت في الإسلام، في حدود الأربعماية من سني الهجرة. وجعلت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى»[1].

وقال إبن طولون: «الخوانق والربط في الإسلام، كالأديرة في النصرانية. ويقصد بالنزول في الخوانق التقشف والعبادة، والهدوء والبعد عن الناس، وكثيراً ما ينزلها العلماء والوزراء والمتزهدون»[2].

وأول من أفرد للمتفرغين للعبادة أمكنة خاصة بهم، هو عثمان بن عفان. وفي ذلك يقول المقريزي: »وأول من إتخذ بيتاً للعبادة زيد بن صوحان بن صبرة، وذلك أنه عمد إلى رجال من أهل البصرة، قد تفرغوا للعبادة، وليس لهم تجارات ولا غلات، فبنى لهم دوراً وأسكنهم فيها، وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وغيره»[3].

وأول ما بني في مصر من الخوانك، الخانقاه الصلاحية، وكانت تعرف في الأصل في الدولة الفاطمية، بدار سعيد السعداء، وهو الأستاذ قنبر، ويقال عنبر، فلما إستبد صلاح الدين بملك مصر، عمل هذه الدار برسم الصوفية الفقراء الواردين من بلاد الشام ووقفها عليهم سنة 569هـ/ 573م، وولى عليهم شيخاً، ووقف عليهم بستان الحبانية بجوار بركة الفيل خارج القاهرة، وقيسارية الشراب بالقاهرة، وناحية دهمرو من البهنساوية، وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين ديناراً فما دونها، كانت للفقراء ولا يتعرض لها الديوان السلطاني، ومن أراد منهم السفر يعطى تسفيره، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ واستمر ذلك من بعده»[4].

وقال المستشرق آدم متز: «وكان في المملكة الإسلامية خوانق وأماكن

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص414.
(2) إبن طولون، مصدر سابق، القسم الأول، ص15.
(3) المقريزي، مصدر نفسه، ج2، ص415
(4) المقريزي، المصدر نفسه، ج4، ص373.

للعبادة قبل ظهور الصوفية. وكان للكرامية أصحاب محمد بن كرام أكبر عدد من الخوانق، ويذكر المقدسي، أنه كان لهم خوانق كثيرة بإيران وما وراء النهر، وكان لهم أيضاً خوانق ومجالس ببيت المقدس. ويذكر المقدسي أنه قرأ في كتاب صنّفه بعض المشايخ الكرامية بنيسابور، أنّ بالمغرب سبعماية خانقاه لهم. إلاّ أنّ المقدسي عقّب على هذا الكلام بقوله: «لا والله ولا واحدة»[1].

وقد أنشئت في العصر المملوكي مراكز كثيرة، كانت خوانق وزوايا وربط، شارك في إنشائها السلاطين والأمراء والشيوخ والنساء. وآخر ما بقي من الخوانق في لبنان الخانقاه الموجودة في مدينة طرابلس، وهي تقع بالقرب من الجامع المعلّق، وهي مخصصة اليوم لإقامة النساء اللواتي فقدن معيلهن، من الأرامل والعوانس فهن يقمن بها وتجري عليهم دائرة الأوقاف في المدينة ما يلزمهنّ من طعام وشراب وكسوة دون مقابل[2]. وتضم هذه الخانكه بين جدرانها قبور الشهداء الذين سقطوا أثناء الغارة، التي شنها الصليبيون على طرابلس في العهد المملوكي.

3 ـ الزاوية

الزوايا وواحدتها: زاوية:[3]، وهي في الأصل ركن البناء، أطلقت في البدء على صومعة الراهب، وتطور معناها مع الزمن، فإذا هي مسجد صغير أو مصلّى يؤمه الناس من ذوي المذاهب الصوفية، ومن بعد أصبح مقام بعض الأولياء، أو ضريح بعض المرابطين المنتمين لهذه المذاهب، يجتمع فيه الأتباع والمريدون، فيقيمون الصلوات ويحيون حلقات الذّكر، مردّدين إسم شيخهم،

(1) آدام متز، مرجع سابق، ج2، ص19-20.
(2) عمر تدمري، تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك، مطبعة دار البلاد، 1974 م، ص340
(3) إبن منظور، مصدر سابق، ج4، ص365.

منقطعين لله تعالى، وقد يلحق بهذه الزوايا تربة تشتمل على قبور أولئك الذين أوصوا في حياتهم بأن يدفنوا فيها[1].

وكان إسم الزاوية يطلق في الأصل على ناحية من المسجد، يجلس عندها أحد العلماء عند إلقاء دروسه على طلابه. وكان لكل عالم مكان خاص يجلس فيه دائماً، وكان الناس يطلقون على هذا المكان إسم الزاوية فيقولون: هذه زاوية الشيخ الفلاني. فعندما إنتشر التدريس خارج المدارس، إصبح لكل شيخ بناء مستقل يدرّس به طلابه، وأطلق على هذا البناء إسم الزاوية[2].

أما إبن بطوطه فيقول في رحلته إلى بلاد المشرق: «لكل زاوية شيخ وحارس، وترتيب أمورهم عجيب. ومن عوائدهم في الطعام أن يأتي خديم الزاوية إلى الفقراء صباحاً فيعين لهم كل واحد منهم ما يشتهيه مـن الطعام، فإذا إجتمعوا للأكل، جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه، في إناء على حدة، لا يشاركه فيه أحد، وطعامهم مرتان في اليوم. ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف، ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد إلى عشرين، ولهم الحلاوة من السكر في كلّ ليلة جمعة، والصابون لغسل أثوابهم، والأجرة لدخول الحمام، والزيت للإستصباح، وهم أعزاب وللمتزوّجين زوايا على حدة، ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت في الزوايا، وإجتماعهم بقبة داخل الزاوية»[3].

أمّا المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون فيقول:

«وأذكر بجانب المباني الدينية الزوايا التي يقيم بها أصحاب الطرق من الدراويش، والتي أرى عددها قليلاً، إذا ما قيس بعدد الأديار الواسعة الإنتشار

(1) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص195.
(2) طه الولي، مرجع سابق، ص91.
(3) أبن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ط2، ج1، ص20.

لدى الأمم النصرانية في أوروبا، ولا تختلف الزوايا عن مباني المسلمين الأخرى إلاّ قليلاً، ولا ترى فيها منظر أديارنا الأدجن»[1].

4 ـ التكيّة:

هذا النوع من المعابد الإسلامية، يكاد لا يختلف عن الخوانق من حيث شكله وغايته. وقد ظهرت في العهد العثماني إلى جانب المدرسة، كمجمع معماري ديني له هندسة وتخطيط جديد. والتكية أكثر شمولاً وضخامة من المدرسة، وتضم المسجد الذي يشغل جناحاً خاصاً في جهة القبلة، وغرفاً للسكن، والمطابخ والمطاعم، ومخازن التموين والقاعات والحدائق.

ويقول كمال الدين حسين سامح: »في الأيام الأولى لحكم الدولة العثمانية، قام نظام الدراويش جنباً إلى جنب مع نظام الخدمة في الجيش. والإنكشارية كانوا يجمعون في حداثتهم من الرعايا المسيحيين، وكان بينهم وبين البكتاشية[2] إرتباط، وبظهور هذه الفرق ظهر نوع جديد من المساجد الجامعة يعرف بالتكية، وهو نظام محاط بفرق الدراويش. وهذا النظام الجديد يشبه إلى حد بعيد الخانقاه التي ظهرت في العهد الأيوبي، وإنتشرت في العهد المملوكي، وليست التكية إلاّ الإسم التركي للخانقاه»[3]. ولقد كانت التكايا منتشرة في طول العالم الإسلامي، ولا سيما في الأراضي العثمانية، غير أن هذه التكايا إندثرت ولم يبق لها أثر، وآخر ما تبقى منها في تركيا ألغاها مصطفى أتاتورك، أما في

(1) غوستاف لوبون، مرجع سابق، ص 428.

(2) البكتاشية: وهي إمتداد للحركة القرمطية، قامت بتفسير القرآن والعبادات والتكاليف الشرعية من صلاة وصوم، فقد أحلّت العضو من تأدية التكاليف الشرعية على طريقتها الخاصة، وحلّلت له شرب الخمر وغيره من المحرّمات، إبتدأت في الأناضول وإنتشرت بشكل كبير في ألبانيا، وكانوا يأمنون بوحدة الوجود، ولا وجود للقبلة في مؤسساتهم.

(3) كمال الدين حسين سامح، العمارة الإسلامية في مصر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص 214.

لبنان، فإن ألتكية الوحيدة فيه، هي التكية المولوية في طرابلس، وهي تستعمل اليوم كمنزل خاص لآل المولوي[1].

5 ـ الرباط

قال إبن منظور في (لسانه)[2]: الربط: جمع رباط وهو دار يسكنها أهل طريق الله. وقيل: الرباط هو بيت الصوفية ومنزلهم، ولكلّ قوم دار، والرباط دارهم. ويقول المتصوّفون: أنّ الرباط هو المكان المسبل للأعمال الصالحة والعبادة للرّجال والنساء، إعتماداً منهم على حديث رسول الله (ص)، (اسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط). وقال تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا أصبروا وصابروا ورابطوا﴾[3]. نجد أنّ التفسير هنا هو إنتظار الصلاة بعد الصلاة، لأنه لم يكن في زمان الرسول الكريم غزو يرابط به. وهذا التفسير له ما يناقضه، وهو قول الرسول (ص): «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها». إستناداً إلى ذلك يمكن القول: »إنّ الرباط إذا وجد في مناطق الثغور فهو للجهاد والعبادة، وإذا وجد في العواصم فهو للعبادة والعزلة، وهو بذلك يختلف عن الخانقات»[4].

وقال المقريزي في خططه: «إنّ أصل الرباط، ما تربط فيه الخيول، ثم قيل لكل ثغر يدافع أهله عمن وراءهم، رباط. فالمجاهد المرابط يدافع عمن وراءه. والمقيم في الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد»[5].

وبينما كانت الثغور بمثابة المخافر الأمامية في الحدود الفاصلة بين مناطق

(1) طه الولي، مرجع سابق، ص 91.

(2) إبن منظور، مصدر سابق، ج7، ص 307.

(3) القرآن الكريم، سورة آل عمران، من الآية 200.

(4) دائرة المعارف الإسلامية، ج10، ص90.

(5) المقريزي، الخطط، ج 2، ص 427.

المسلمين ومناطق أعدائهم، وموقعها في البر. فإنّ الرباطات كانت في الغالب، تقع على ساحل البحر، حيث يخدم فيها المرابطون متطوّعين لوجه الله بدون مقابل، يقيمون فيها لمدة محدّدة، ومهمتهم الأساسية مراقبة البحر والدّفاع عن الساحل. وكانت مدينة بيروت رباطاً للمسلمين المجاهدين على ساحل بحر الروم، وفيها يقول إبن حوقل[1]: «مدينة بيروت التي على ساحل بحر الرّوم، وهي فرضة دمشق وساحلها، وبها يرابط أهل دمشق وسائر جندها، وينفرون إليها عند إستنفارهم».

6 ـ المصلّى

المصلى كلمة تكاد تكون خاصة بالمكان الذي تقام فيه الصلاة الجامعة في مناسبات معينة، مثل صلاة العيدين، وصلاة الجنازة، وصلاة الإستسقاء[2]، وصلاة الشكر. والمصلى عبارة عن رحبة من الأرض وتكون عادةً في ظاهر المدن، والأصل في ذلك هو ما عرف عن الرسول (ص) من أدائه لصلوات الأعياد والجنائز والإستسقاء عند مقدمه للمدينة المنّورة، في مكان بعينه في العقيق[3]. وإن المصلى قد خصّص لهذه الصلوات، لما رواه أنس بن مالك: »إنّ الرسول (ص) خرج إلى المصلى يستسقي فبدأ بالخطبة ثم صلّى وكبّر واحدة إفتتح بها الصلاة وقال: »هذا مجمعنا ومستطمرنا ومدعانا لعيدنا ولفطرنا وأضحانا فلا يبنى فيه لبنة على لبنة»[4].

وأوّل مصلّى كان في الإسلام، هو المصلى الذي صلّى فيه الرسول (ص) وموقعه في عقيق المدينة.

(1) إبن حوقل، صورة الأرض، طبع مكتبة الحياة، بيروت، لا تاريخ، ص162.
(2) صلاة الأستقاء: وهي صلاة خاصة يقوم بها المسلمون عند أنحباس المطر في بعض السنين العجاف، يعقبها دعاء وإبتهال الى الله لكي يحل عليهم الخير والبركة بتساقط الأمطار. ـ السمهودي، وفاء الوفاء، ج 2، ص 11.
(3) طه الولي، مرجع سابق، ص79–80.
(4) السمهودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ج2، ص11.

وقد بني عليه فيما بعد مسجد عرف بإسم مسجد المصلّى، وقد أشار إليه السمهودي بقوله[1]: «إنّ بناءه كان في زمن عمر بن عبد العزيز، فلم يزل مصوناً وكان بابه لا يزال مفتوحاً فربما وقع له إنتهاك، فأمر شيخ الخدام بغلقه، وعمارته الموجودة اليوم لا أدري لمن تنسب إلاّ أني رأيت على بابه حجراً قد انمحى بعض الكتابة منه وفيه: (أمر بتجديد هذا المسجد المنسوب للنبي (ص) بعد خرابه وذهابه عز الدين شيخ الحرم النبوي الشريف، وذلك في أيّام السلطان الناصر حسن ابن السلطان محمد بن قلاوون الصالحي). وما بعد ذلك قد انمحى».

وقد كان في كل مدينة من مدن المسلمين مصلّى روعيت فيه الملامح التي كان عليها مصلّى النبي (ص) بعقيق المدينة، ولقد ذكر المقريزي في (خططه)، أسماءها ومواقعها وأسماء الأشخاص الذين بنوها[2].

وقد ذكر عبد القادر بدران جامع المصلّى في دمشق بقوله:

«أنشأه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب سنة 606هـ وجعله لصلاة العيدين ولم يتهيأ له وقف»[3].

كذلك كان في بيروت وطرابلس وغيرهما، كثيراً من المصلّيات التي درست معالمها واختفت[4].

7 ـ المقام والمزار والمشهد

أ ـ المقام

عرف القلقشندي المقام بقوله: »أصل المقام في اللغة، إسم لموضع

(1) السمهودي، مصدر سابق، ج2، ص2 ـ 3.
(2) المقريزي، مصدر سابق، ج2، ص254، 451.
(3) عبد القادر بدران، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، مطبعة روضة دمشق، 1331هـ–1912م، ص389.
(4) عمر تدمري، تاريخ وآثار، ج2، ص51.

القيام، أخذاً من قام يقوم مقاماً. وقد ورد في التنزيل بمعنى موضع القيام في قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[1].

ولقد اصطلح الناس على إطلاق إسم المقام على المكان الذي فيه ضريح لأحد الأنبياء أو الأولياء من أهل التقوى.

وفي بيروت مقامان، أحدهما للنبي يحي، وهو موجود في الجامع العمري الكبير، والثاني للإمام الأوزاعي، في الضاحية الجنوبية للمدينة حيث كان يقوم جامع حنتوس القديم[2].

وكثير من الناس يحرصون على أداء صلواتهم داخل المقام، إلتماساً للبركة والتيمن بمكانه المدفون في الضريح الموجود داخله.

ب ـ المزار

ويقصد بالمزار المكان الذي دفن فيه أحد الأنبياء أو غيره من الأشخاص الذين لهم منزلة دينية عند الناس، فهم يقصدونه في مواسم معينة، ويصلّون فيه إعتقاداً منهم بأن صلاتهم بالقرب من ضريح هذه الشخصية المقدسة، أجزل للأجر والثواب. وقد لا يكون المزار قبراً، بل بناءً تذكارياً يشير إلى عمل أو حادثة معينة قام بها الشخص المذكور في هذا المكان.

وقد جرت العادة عند بعض الناس، بتخصيص المزارات بالنذور، كأن يلزم الشخص نفسه إذا حقق الله له أمنية معينة، بأن يهب للمزار زيتاً أو شمعاً أو أضاحي توزع لحومها صدقة على إسم صاحب المزار تقرباً منه وإجلالاً له.

وفي كتاب (خطط جبل عامل)، ذكر للنذور التي يقوم بها الشيعة في مشاهدهم ومزاراتهم[3].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ط. دار الكتب المصرية، ج5، ص493.

(2) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ط2، دار النهار للنشر، بيروت، 1979م، ص208.

(3) للتوسع أنظر، محسن الأمين، خطط جبل عامل، ص122-123.

ج ـ المشهد

المشهد من الكلمات الإصطلاحية، التي تحمل معنى دينياً معيناً، وهو المسجد المدفني، أي الذي بني في الأصل، ليكون مدفناً للشخص الذي يتمتع بمكانة دينية وروحيّة معينة لدى الناس. وهذا المدفن غالباً ما يكون مخصّصاً للمتوفيّن من آل البيت النبوي الشريف، ذكوراً وإناثاً.

والمشهد أيضاً هو المزار، أي البناء الذي يستهدفه عامةُ الناس بالزيارة، ويقدّمون له الهدايا والنذور تعبيراً عن عاطفتهم نحو الشخص الذي دفن فيه. بيْد أنّ الغالب هو إستعمال كلمة المشهد من قبل الطائفة الشيعيّة، على البناء الذي يكون في داخله ضريح ينتسب صاحبه إلى الأئمة الحسن والحسين، أبناء الإمام علي بن أبي طالب (ع)، وربما كان إستعمال كلمة المشهد، لهذا الغرض بالذات، لأن أضرحة ألسلف من المنسوبين إلى البيت النبوي الطاهر، تكون في العادة مقصـداً لعامة الناس، الذين يزورونهم من أجل الحصول على البركة الروحية، ولأجل التقّرب إلى الله من خلال التمسُّح بأطرافها، والتوجه بطلب الشفاعة من أصحابها[1].

ومن المشاهد التي تنسب للحسين بن علي بن أبي طالب (ع):

- المشهد الحسيني، الذي يقع داخل جامع سيّدنا الحسين في مدينة القاهرة، والذي دفن فيه رأس الإمام الحسين (ع) بعد نقله من عسقلان إلى القاهرة، في سنة549هـ/ 1154م[2]. وعندما زار الرحالة ابن جبير مصر، زار هذا المشهد، ووصفه بقوله: «المشهد العظيم الشأن، الذي بمدينة القاهرة، حيث رأس الحسين بن علي بن أبي طالب (ع)، وهو في تابوت من فضّة مدفون تحت الأرض، قد بني عليه بنيان حفيل، يقصر الوصف عنه، ولا يحيط الإدراك به، مجلّل بأنواع الدّيباج محفوف بأمثال العمد الكبار شمعاً أبيض،

---

(1) طه الولي، مرجع سابق، ص111.

(2) كمال الدين سامح، مرجع سابق، ص69.

ومنه ما هو دون ذلك، قد وضع أكثرها في أكوار فضّة خالصة، ومنها مذهّبة، وعلّقت عليه قناديل فضّة، وحفّ أعلاه كلّه بأمثال التفافيح ذهباً، في مصنع شبيه الروضة، يقيد الأبصار حسناً وجمالاً. فيه أنواع الرخام المجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع، ما لا يتخيّله المتخيّلون، ولا يحقّق أدنى وصفه الواصفون».

وفي وصف التقاليد الذي يتبعها الناس في أثناء زيارتهم لهذا المشهد، يقول الرحالة إبن جبير:

«وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك وإحداقهم به، وإنكبابهم عليه، وتمسّحهم بالكسوة التي عليه، وطوافهم حوله، مزدحمين، داعين باكين، متوسّلين إلى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدّسة، ومتضرّعين بما يذيب الأكباد، ويصدع الجماد، والأمر فيه أعظم ومرأى الحال أهول»[1].

- مشهد الحسين في كربلاء، وهو المدفن الذي توجد فيه جثته الشريفة، التي دفنت بعد أستشهاده في محاولته الإصلاحية ضد البيت الأموي في أيام يزيد بن معاوية.
- مشهد الحسين، داخل باب الفراديس في دمشق، وكان قديماً يعرف بإسم مسجد الرأس. قال إبن شداد: «فيه قناة، يقال أنّ رأس الحسين (ع) وضع فيه حين أُتيَ به إلى دمشق»[2].
- مشهد الحسين بمدنية مرو في خرسان.
- المشهد الحسيني، وهو بالطرف الشرقي الشمالي من الجامع الأموي بدمشق.
- مشهد الحسين بعسقلان. يقول المقريزي في «خططه»: أن هذا المشهد قام ببنائه أمير الجيوش بدر الجمالي[3]، وأتمه إبنه الأفضل، ونقل إليه رأس

(1) إبن جبير، رحلة إبن جبير، ص18-19
(2) إبن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص118.
(3) بدر الجمالي، كان وزيراً للخليفة الفاطمي المستنصر في مصر.

الحسين الذي كان، حسبما يقولون، في مكان دارس هناك، إلى القاهرة، حيث بني عليه فيما بعد المشهد الحسيني[1].

8 ـ الكنائس والأديرة

ومن الأماكن الدينية التي إستعملها المسيحيون للعبادة، الكنائس والأديرة، وقد كانت المناطق اللبنانية بعد الفتح الإسلامي تضم العديد من الكنائس والأديرة، وقد زادت هذه الأبنية الدينية في العهد الصليبي، إلاّ أنّ المماليك قد قاموا بتدميرها عند إستيلائهم على هذه المناطق.

وقد علّل محمد كرد علي، هذا التدمير بقوله: «وكان الصليبيون أنشأوا عدة كنائس في أرواد وطرطوس وصيدا وبيروت وطرابلس وغيرها من مدن الساحل، فهدمت ثم بنيت مساجد، لأن بعضها كان بمثابة حصون في أيدي الرهبانيات المتجنّدة مثل الهيكليين والأسبتاريين والتوتوليين[2] (Les Templiers et les Hospitaliers et les teutons).

وبرغم سياسة القمع والإرهاب، والتدابير المشدّدة التي إستعملها المماليك ضدّ النصارى في البلاد الخاضعة لهم، كفرض لباس معين وإغلاق للكنائس، وبرغم ندرة المصادر التي تتحدّث عن معابد النصارى في لبنان، مما لا يسمح لنا بالتعرف على تلك الأبنية الدّينية في العهد المملوكي. إلاّ أنّ الموارنة الذين كانوا بمنأىً عن هذه الشروط، بسبب وجودهم خارج التجمعات المدنية، يعيشون حياة ريفية في جبالهم الحصينة بعيداً عن الرقابة المملوكية المباشرة. عمدوا إلى بناء العديد من الأديار والكنائس في شمال لبنان، وكانت أكثرية هذه الكنائس فقيرة بسيطة تأخذ شكل الأقبية، وذلك لحجب بنائها عن إهتمام السلطات المملوكية. وكانت أكثرية هذه الكنائس تقام للعذراء مريم، أمّ يسوع، وذلك لأنه كان للعذراء مريم تكريم خاص وكبير عند الموارنة، خاصة

(1) المقريزي، الخطط، ج 1، ص 477.
(2) محمد كرد علي، مرجع سابق ، ج6، ص 23.

زمن الحروب والأوبئة والخطوب والفتن[1]. وكانت هذه الأديار مراكز التعليم والتثقيف، وكان المعلمون رهباناً وقسيسين، وكان بناء المدرسة الكنيسة ذاتها أو البناء الملاصق لها.

9 ـ الخلوة

أما أماكن العبادة عند الدروز، فمن الشائع بين الناس أنّ خلوات الموحّدين هي أماكن العبادة عندهم. وعلى هذه القاعدة تكون الخلوة للموحّد، كالجامع للمسلم، والكنيسة للمسيحي.

والخلوة هي مكان ينقطع فيه المعرض عن مغريات الدنيا وتبنى عادة على تلال أو روابي تشرف على قراهم، ولا تصبح الخلوة وقفاً إلاّ إذا أراد صاحبها ذلك.

والخلوات أنواع متعدّدة، فمنها الصغيرة التي لا تتعدى الغرفة الواحدة، ومنها الكبيرة المؤلفة من عدة غرف، في وسطها مصطبة بشكل طاولة يعلوها ستار من القماش يقسم الخلوة قسمين: قسم للرجال، وقسم للنساء، لكل قسم منها باب ونافذة، يجلس شيخ عقل القرية أو البلد في الوسط وظهره إلى المصطبة والشيوخ عن يمينه وشماله وأمامه فسحة لإداء الطقوس، يبدأ الوعظ العام مساء الخميس للجميع ثم يخرج الجهال ثم يقدم وعظ خاص للأجاويد، ثم يخرجون، ويبقى العقال يدرسون ما لا يحق لغيرهم الاطلاع عليه. وأقدم هذه الخلوات وأرفعها مقاماً عندهم خلوات البياضة قرب حاصبيا، التي نهب كتبها جيش ابراهيم باشا عام 1843م، فكانت المرة الأولى التي تعرّف فيها العالم إلى كتبهم.

ولم تشتهر خلوات الموحّدين وتعرف قبل مطلع القرن الثامن عشر للميلاد، وأشهر خلواتهم هي:

---

(1) الياس القطار، نيابة طرابلس، ج1، ص247-248.

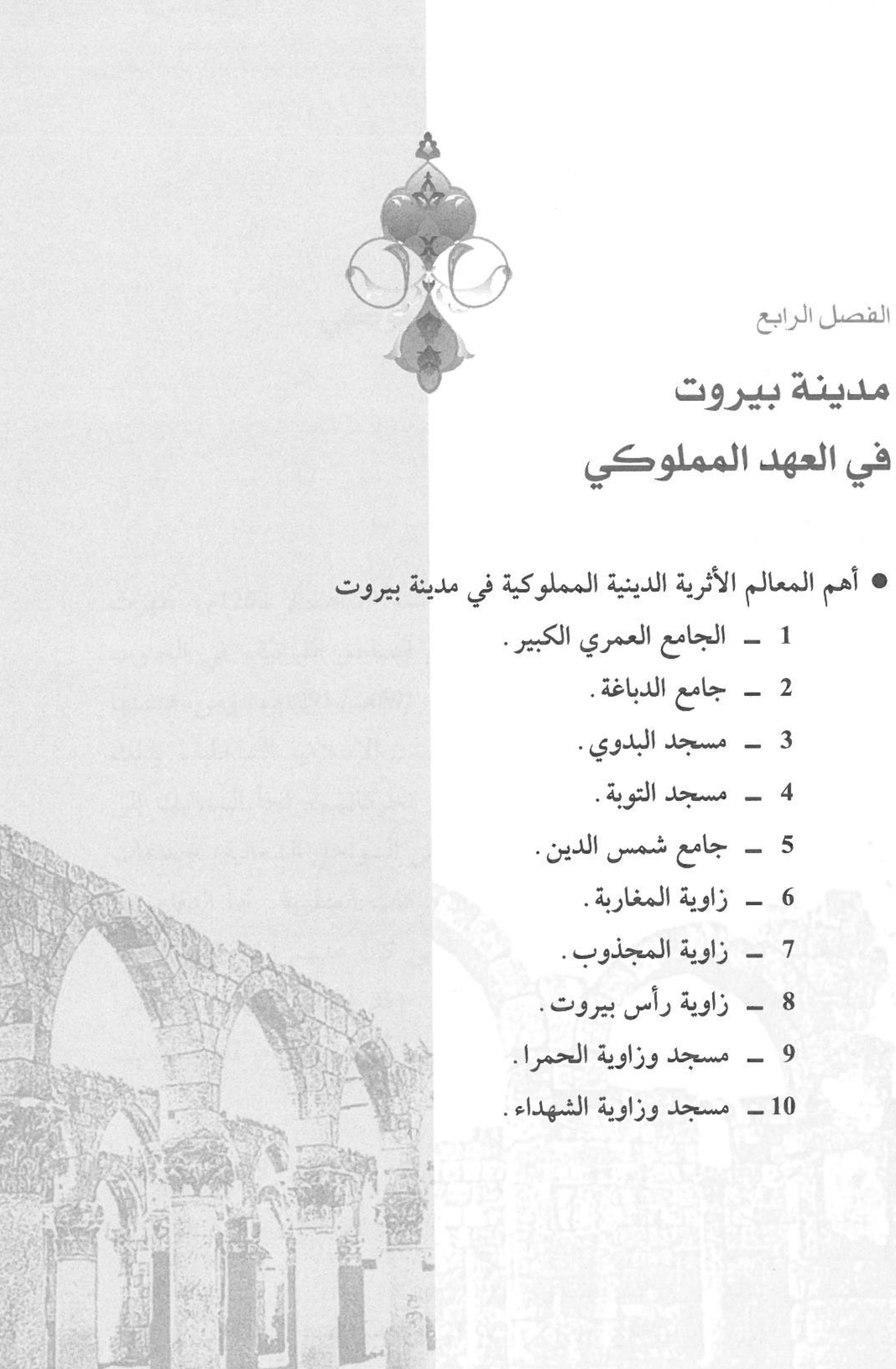
خلوة البياضة في حاصبيا، وقد رعتها الست نايفة جنبلاط شمس في منتصف القرن التاسع عشر ميلادي، وبنت فيها جناحين من أربع غرف، وأوقفت عليها الأملاك لصيانتها، وقد دفنت فيها.

ولم تقتصر أماكن العبادة عند الدروز على لبنان، بل نجدها قد تعدت ذلك إلى بلاد أخرى هي: سوريا والأردن وفلسطين، وأضحت أمكنة للزيارة وللتبرك ولإستقبال النذور. ومن تلك المزارات نذكر:

مقام النبي شعيب في فلسطين، بالإضافة إلى مقام النبي أيوب الموجود في بلدة نيحا الشوف[1].

---

(1) أنور فؤاد أبو خزام، مرجع سابق، ص255-256.



الفصل الرابع

مدينة بيروت
في العهد المملوكي

● أهم المعالم الأثرية الدينية المملوكية في مدينة بيروت

1 ـ الجامع العمري الكبير.

2 ـ جامع الدباغة.

3 ـ مسجد البدوي.

4 ـ مسجد التوبة.

5 ـ جامع شمس الدين.

6 ـ زاوية المغاربة.

7 ـ زاوية المجذوب.

8 ـ زاوية رأس بيروت.

9 ـ مسجد وزاوية الحمرا.

10 ـ مسجد وزاوية الشهداء.

بيروت في العهد المملوكي

بعد أن سيطر المماليك على لبنان في سنة 659هـ / 1260م، ظهرت سلطتهم في البقاع أولاً، في حين كانت معظم المناطق اللبنانية، في الجنوب والشمال والساحل بيد الصليبيين حتى سنة 691هـ/ 1291م، ومن ضمنها بيروت، وكانت غاية بيبرس تحرير بيروت والمدن الإسلامية الساحلية، لذلك عمد إلى تقصّي أخبار الصليبيين ومعرفة جميع تحركاتهم، لجأ المماليك إلى حماية الساحل من ناحية الفرنجة، بأن أقاموا على السواحل الشمالية، جماعات من التركمان تميل إليهم تطلعهم على كل التحركات الصليبية. أما الدفاع عن بيروت فكان من نصيب الأمراء البحتريين، الذين كان عليهم إبلاغ المماليك، بكل تحرك معادي من جانب سفن الفرنج[1]. وقد أسندوا إليهم ذلك نظراً للعلاقات التي قامت بين الأمراء البحتريين والمماليك، وبعد أن قام المماليك بتثبيتهم على إقطاعاتهم في الغرب[2].

إلا أنّ الولاء البحتري للمماليك لم يكن كلياً، فقد كان ولاؤهم متأرجحاً

---

(1) صالح بن يحي، تاريخ بيروت، ص 32، 63.
فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج2، ص260.
(2) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ص214.

بين الصليبيين وبين المسلمين، كذلك بين المماليك وخصومهم من جهة أخرى.

وفي ذلك يقول صالح بن يحي: «إنّ جمال الدين حجى حارب مع المغول في معركة عين جالوت، بينما كان إبن عمه الأمير زين الدين بن علي يحارب مع المماليك المصريين، ليكون أي منتصر من الفريقين أحدهما معه، فيسد خلة رفيقه وخلة البلاد، قصداً بذلك إصلاح الحال[1].

بعد ذلك قام الظاهر بيبرس، وعهد إلى الأميرين البحتريين زين الدين بن علي وجمال الدين بن حجى، بمراقبة تحركات الفرنج بين بيروت وصيدا، ولكن دعاة السوء تمكنوا من شحن بيبرس ضدّ الأمراء البحتريين، وإتهامهم بالتعامل مـع الصليبيين، مما جعله يأمر في سنة 670هـ/ 1271م. بسجنهم مع الأمير سعد الدين خضر، كل واحد في سجن منفرد عن الآخر، وفي أمكنة بعيدة عن الأخرى في الديار المصرية، وأبقى عليهم في السجن إلى حين تحرير المدن الساحلية من الصليبيين، ولم يطلق سراحهم إلاّ بعد وفاة بيبرس، عندما عفت عنهم السلطنة المملوكية[2].

إلاّ أنّ التواجد الصليبي في هذه الفترة، لم يكن قوياً كما في السابق، خاصة بعد سقوط أنطاكية سنة 666هـ/ 1268م، فراحوا يتطلعون إلى عقد الإتفاقات مع السلطان بيبرس، الذي طلبوا منه مشاركتهم في منتوجاتهم وغلاتهم[3].

ثم أبرم معاهدة مع ملكة بيروت إيزابيلا، المعروفة بالدبونة في المراجع العربية، وهي من أفراد أسرة ديبلين التي كانت تحكم بيروت، وكانت مدة الهدنة عشر سنوات[4].

(1) صالح بن يحي، مصدر سابق، ص60.
(2) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج14، ص 40-42.
(3) القلقشندي، مصدر نفسه، ج14، ص 31-39.
(4) إبن الفرات، تاريخ الدول، ج7، ص 35.

وإذا ما تفحصنا نصوص هذه الهدنة، نجد أنّ حدود مملكة بيروت تمتد من جبيل إلى صيدا جنوباً، كذلك نلاحظ أنّ مجمل الأسماء الواردة فيها لإقطاعات بيروت القديمة هي ذاتها الآن: كجونية والعصفورية وسنّ الفيل وإنطلياس وجديدة المتن والبوشرية والدكوانة وخلدة والناعمة.

وقد تزوجت إيزابيلا ملكة بيروت هامو الغريب سنة 671هـ/ 1272م، الذي سرعان ما استنجد بالظاهر بيبرس، ووضع زوجته في حماه، خوفاً عليها من مطامع ملك قبرص هيو الثالث، لذلك أصبحت ايزابيلا كلما أرادت السفر إلى قبرص تلتقي بيبرس، وتضع مملكتها أمانة لديه[1].

جددت الهدنة عام 683هـ/ 1285م، في عهد السلطان قلاوون، حيث سمح لأهالي بيروت بالعودة إلى مزاولة نشاطاتهم التجارية[2].

ولكن ملك قبرص هيو الثالث (Hyo III)، ونظراً لأطماعه الخاصة، عمد إلى اختطاف ملكة بيروت بعد وفاة زوجها، كي يجبرها على الزواج من شخص يميل إليه، ليعمل بعدها على استغلالها بوصفها وريثة لعرش قبرص، عندما يقوم بتنفيذ مشاريعه الصليبية في الشرق[3].

غير أنّ بيبرس تصدى لمشاريع هيو الثالث ومخططاته، وطلب منه تنفيذ وصيّة هامو زوج إيزابيلا، فأذعن هيو لتهديد بيبرس وأعاد إيزابيلا إلى بيروت، التي وضعت لحمايتها حراساً من المماليك، فكان ذلك تأكيداً على تنامي قوة المماليك، التي تفوّقت على الصليبيين المحتلّين للسواحل الإسلامية، وخاصة بيروت التي استمرّ حكم إيزابيلا لها حتى وفاتها سنة 681هـ/ 1282م.

وقد بقيت بيروت تحت حكم أسرة ديبلين الصليبية، إلى أن حررها

(1) إبن الفرات، مصدر سابق، ج7، ص 35.
(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1963، ج2، ص 1169.
(3) اسطفان الدويهي، تاريخ الازمنة، بيروت، 1976م، ص 248-249.

السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، الذي تمكّن من إلحاق الهزائم بالصليبيين. ولكن بعض المصادر تقول إنها أخذت بالحيلة دون قتال في سنة 691هـ/ 1291م[1]، عندما طلب السلطان قلاوون من الأمير سنجر الشجاعي نائب الشام بالدخول إلى بيروت بعد أن تقدّم صاحبها الإفرنجي بطلب الأمان.

وما أنّ وصلها سنجر حتى أمر بنقل أهاليها إلى القلعة، الذين ظنوا إنّ ذلك تكريماً لهم، ولم يدروا أنها خديعة للقبض على الرّجال ورميهم في الحفرة. كما قام سنجر بتجميع النصارى والصليبيين الذين كانوا ساكنين في بيروت، وأرسلهم إلى دمشق ثم إلى مصر، حيث مات معظم العُجز والنساء في الطريق، وعندما إلتقاهم سلطان مصر، خيّرهم بين العودة إلى بيروت أو الإلتجاء إلى قبرص، حيث فضلوا ذلك وانتقلوا إليها[2].

وجاء عند إبن أبي الفضائل: «أنّ بيروت فتحت بالمخادعة في رجب سنة 690هـ/ 1290»[3]. أما الذهبي فقد ذكر: «نّ أهل بيروت كانوا متمسّكين بهدنة، مفيداً منهم أنهم خائفون، فنازلهم الشجاعي بهدمها، ثم أخذت في رجب وأسر أهلها، ودكّت قلعتها المنيعة[4].

وإمتاز السلطان الأشرف خليل بفتوحاته لكثير من المناطق، كعكار وعتليت وحيفا وصيدا وجبيل وبيروت والبترون والصرفند.

وكان أرفق ذلك بعادة سيئة، ألا وهي قيامه بهدم هذه المدن. وتلك كانت عادة قديمة ورثها المماليك عن أسيادهم السابقين من الأيوبيين»[5].

---

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج4، ص 25.

(2) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج3، ص 769.

E.I[2]: Elisséeff, N., «Bayrut», 1, A B, p. 1172.

Said Chehab-ad-Dine, Géographie Humaine de Beyrouth, Paris, 1969, p.62.

(3) إبن أبي الفضائل، النهج السديد، ص548-549.

(4) الذهبي، تاريخ دول الإسلام، دار إحياء التراث الإسلامي، 1327هـ، ج2، ص 145.

(5) الذهبي، مصدر نفسه، ، ص 145.

ولهذا أصبيت بيروت وسورها بالتهديم من جرّاء هذه السياسة المملوكية، وذلك لكي لا تعود صالحة إذا ما فكّر الصليبيون بالعودة إليها والتحصن فيها[1].

وقد عرف المماليك بعد سيطرتهم على بيروت، ما لها من أهمية ومكانة، فعملوا على استغلال موقعها الأستراتيجي بعد أن جدّدوا تحصيناتها، وجعلوا بينها وبين دمشق بريداً منتظماً، وتعاونوا مع أمراء الغرب على حمايتها من كلّ إعتداء خارجي.

وأنشأ المماليك في بيروت شبكة منظمة من البريد بين بيروت ودمشق، لنقل الأخبار السريعة، وقد أقاموا لذلك محطّة في الحصين (بين عالية وبحمدون)، وفي قرية زبدل في البقاع، وفي خان ميسلون، ومنهما إلى دمشق.

ومن أجل البريد السريع، لجأوا إلى طرق مختلفة، فإستعملوا النار ليلاً، وذلك بإشعالها في مكان ظاهر في بيروت، فتجاوبها نارٌ أخرى في رأس بيروت العتيقة، والراجح هو دير القلعة في بيت مري، ومنه إلى جبل بوارش، ومن ثم إلى جبل يبوس (في سلسلة جبال لبنان الشرقية)، ومنه إلى جبل الصالحية (جبل قاسيون المطلّ على دمشق)، ومنه إلى قلعة دمشق، وبهذه الطريقة كان يتم إرسال الأخبار السريعة. وهكذا أشعلت النار في بيروت، عندما تعرضت لهجوم السفن الجنوية سنة 806هـ/ 1403م، فوصل الخبر إلى دمشق في تلك الليلة، فحضرت النجدة بسرعة[2].

إحتل ميناء بيروت أهمية خاصة عند المماليك، لأنه كان الميناء الرئيس في بلاد الشام، حيث كانت جميع البضائع الداخلة والخارجة من بلاد الشام تمرّ عبره. وكان يوجد على بابه دواوين وعامل وناظر ومشارف وشاد، تعيّنهم دمشق وتدفع لهم أجورهم من مدخول الميناء، أمّا ما تبقى من أموال فكان يتم إرساله إلى دمشق[3].

---

(1) أبو الفداء، مصدر سابق، ج4، ص 25.

(2) عصام شبارو، تاريخ بيروت، دار مصباح الفكر، بيروت، 1986، ص 107.

(3) صالح بن يحي، مصدر سابق، ص 32-35.

وأصبحت بيروت مركزاً لتجمّع تجار دمشق وحلب وحماه وبعلبك وتجمع سلعهم، كذلك وجد فيها أيضاً عدد من المراكز التجارية الأوروبية وذلك نتيجة للمعاهدات والإتفاقيات بينهم وبين المماليك. ومن جراء تواجد التجار الأوروبيين في بيروت، فقد أنشأ عدداً من الفنادق لإستقبالهم. وقد أقام المماليك عدداً من المؤسسات لتنشيط التجارة دُعيت بالوكالات والخانات والقيساريات، مما ساعد على إزدياد عدد التجار الأوروبيين[1].

وكانت سهول بيروت غنية بأشجار التوت الأبيض، الذي كان يستخرج منه الحرير، كذلك بأشجار الخرّوب والزعرور والصّبّار والتين والسنديان والبطم[2].

واشتهرت أسواق بيروت بمصنوعات العاج والحديد، والنسيج المصبوغ، كذلك بيعت في أسواق بيروت السجاجيد والخزف المطلي. في حين كانت ضواحي بيروت تنتج الزيت والزيتون والصابون.

وكان يتم تزويد بيروت بالقمح المصري، وعندما أصيب أحد المواسم بالجرادسنة 765هـ/ 1364م، وفقدت معظم المواد الغذائية من بيروت، مما أدّى إلى المجاعة، قام أحد الأمراء البحتريين بالتوّجه إلى مصر لشراء كمية من قمحها للقضاء على الأزمة في بيروت[3]، وكان يصدر من بيروت إلى مصر أنواع من الفاكهة والزيت والصابون.

ويستدل من تاريخ بيروت، أنّ بعض أمراء الغرب كانوا يضمنون ميناءها، وفي هذا قال صالح بن يحي: «أنّ الأمير عز الدين جواد ضمن ميناء بيروت وتكلم فيها مدة»[4].

وذكر صالح بن يحي في تاريخه، بعض من تولّى أمر بيروت في عهد

(1) حسان حلاق، بيروت المحروسة في العهد العثماني، الدار الجامعية، بيروت، 1987، ص 12.
(2) هنري غيز، بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن، تعريب مارون عبود، دار المكشوف، بيروت، 1949، ص 44-46.
(3) صالح بن يحي، مصدر سابق، ص 208
(4) صالح بن يحي، مصدر نفسه، ص 174.

المماليك، فيذكر الدّمياطي الذي قام بإنشاء جسر عند نهر الدامور ربطت بواسطته بيروت بمدينة صيدا، حيث وفّر على الناس الكثير من مشقّات السفر. غير أنّ هذا الجسر هدمته السيول بعد سنتين على إنشائه، وقد أعيد تشييده ثانية في أيام سيف الدين تنكز[1].

وقد شيد أمير الغرب سيف الدين يحي إيواناً ببيروت، جعل فيه كثيراً من الزخارف والنقوش البديعة، وجاء بالماء إلى حارة بيروت القريبة من البحر، وقد ورث إبنه الأمير فخر الدين بن عثمان، كثيراً من البيوت في بيروت، كما ورث تجارته المكوّنة من الزيت والصابون والقماش[2].

وفي كثير من الأحيان كانت بيروت سكناً إضطرارياً لأمراء الغرب، بسبب حراستهم لها ليلاً نهاراً، غير أنهم كانوا يفضلون السكن في مناطق غرب بيروت، لإنتقادهم أهل بيروت، بسبب ما كانوا يصادفون من مشقات أثناء حمايتهم لها، بينما كانوا في مناطق غرب بيروت يجدون ملاذهم الآمن[3].

أمّا في الجهة المقابلة للرخاء الإقتصادي والعمران والتقدم الحضاري، فقد ابتليت بيروت بعدد من المصائب والنكبات، بالإضافة إلى الزلازل والحرائق والمجاعات.

فقد ضربها الطاعون في سنة 796هـ/ 1394م، حيث قضى على عدد كبير من أهلها، ومن ضحايا هذا الطاعون، أشقاء أمير الغرب فخر الدين عثمان، وهم عبد الرحمن وأحمد وفاطمة وهولا[4].

وقد علا شأن بيروت الإسلامية في زمن المماليك، حيث راح عدد المسلمين يتزايد فيها بشكل مّطرد، ومما ساعد على إزدياد عدد المسلمين في بيروت، تمسّك المماليك بالمذهب السنّي، وقيام بعض سلاطينهم، بمنع أهل

(1) صالح بن يحي، مصدر سابق، ص 104.
(2) مصدر نفسه، ص 214.
(3) صالح بن يحيى، مصدر نفسه، ص 179.
(4) عصام شبارو، مرجع سابق، ص 113.

صيدا وبيروت وأعمالهم من إعتقاد الرافضة (الشيعة)، وردعهم والرجوع إلى أهل السنة والجماعة[1].

وبسبب هذا الإضطهاد الذي كان يتعرض له الشيعة، فقد تمسك هؤلاء بالسّنّة في الظاهر، بينما كانوا في الباطن على المذهب الشيعي، وقد أدّى ذلك إلى كثير من المنازعات مع المماليك، الذين جرّدوا عليهم بعض الحملات العسكرية، حيث قضوا على حركة الرّدّة الشيعية، وطردوا القائمين بها إلى الجبال والوديان.

أهم المعالم الأثرية الدينية المملوكية في بيروت

لكل شعب من الشعوب أثر يدلّ على حضارته وأيام ملكه، خيرها وشرها، مجدها واندثارها، فهذه الآثار الباقية، هي النافذة التي ننظر من خلالها إلى تلك الأيام الغابرة، التي شهدت حضارات كبيرة وصروحاً شامخة قمة في الفكر والإبداع.

كان لوجود المماليك في بيروت، وتأثيرهم عليها، أثر حضاري كبير برز في مختلف نواحي الحياة الإجتماعية والفكرية والفنية.

ومع ذلك فإن هذه الحضارة برزت بشكل خاص في ميدان العمارة الدّينية.

وبالرّغم من أنّ معظم هذه المعالم قد اندثر مع الزمن، فإنّ ما تبقى منها يعتبر خير شاهد على البراعة الفنية التي تميزت بها الهندسة المعمارية في ذلك العصر.

1 ـ الجامع العمري الكبير

يقع هذا الجامع في وسط مدينة بيروت على العقارين رقم 418و417، من

(1) القلقشندي، مصدر سابق، ج13، ص 14.

منطقة المرفأ العقارية، ويعتبر من أقدم وأعظم جوامع مدينة بيروت. وقد أطلق عليه إسم الجامع العمري الكبير، ذكرى للخليفة عمر بن الخطاب، ومن المحتمل أن يكون الخليفة عمر، هو الذي بنى هذا الجامع، ذلك أنّ سراديب الجامع تعود إلى القرن الأول للهجرة[1].

وتبلغ مساحة الجامع ثلاثة آلاف متر مربع[2].

وقد تبادل الصليبيون والمسلمون المسجد مرّتين، الأولى بعد إستيلاء صلاح الدين الأيوبي على بيروت عام 583هـ/ 1187م، والذي استمرّ عشرة أعوام، واستعمل المبنى خلال تلك الفترة مسجداً، لعدم توفّر مسجداً يؤدّي فيه المسلمون شعائر دينهم، وذلك لتدمير الصليبيين للمعابد الإسلامية[3].

ثم إستعمل المبنى كنيسة، بعد سقوط المدينة في أيدي الصليبيين مرة ثانية عام 593هـ/ 1197م، وقد استمرّ ذلك حوالي خمسة وتسعين عاماً، إلى أن سقطت المدينة مرة ثانية في أيدي المسلمين عام 690هـ/ 1291م.

وعند إستعمال البناء مسجداً دهنت الحوائط بالطلاء لتغطية الصور الدّينية المسيحية، التي كانت تزين الأسطح الداخلية، كما هي العادة في المباني الدّينية المسيحية في تلك الفترة.

وقد عرف الجامع بإسم فتوح البلدان، وذلك طبقاً لنص وجد على الحائط الغربي يعود إلى سنة 1112هـ/ 1700م، كذلك عرف فيما بعد بإسم جامع النبي يحي، حيث يشيع البعض أنّ قبر النبي يحي موجود في داخله.

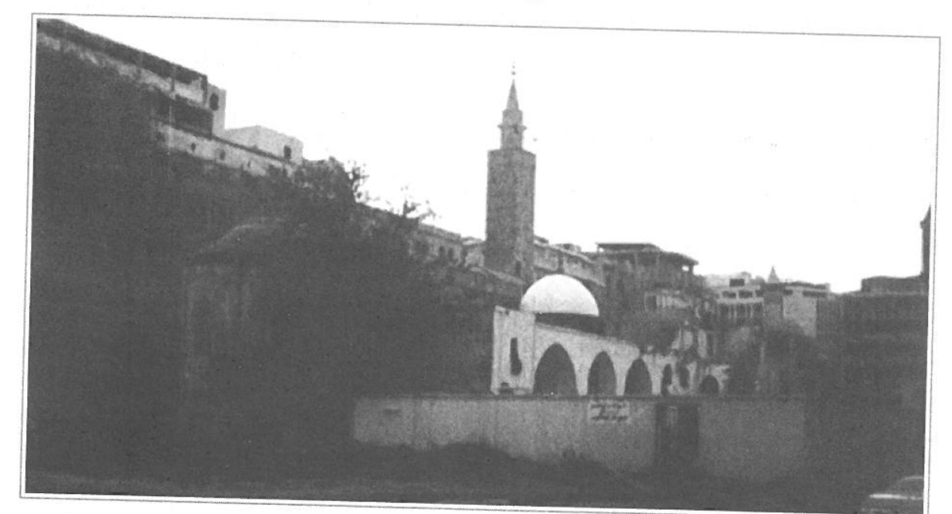
وخلال زيارة الرّحّالة عبد الغني النابلسي إلى بيروت سنة 1112هـ/ 1700م، كان هذا الجامع معروفاً بإسم الجامع الكبير[4].

(1) عبد الغني النابلسي، التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، بيروت، 1971م، ص 43.
(2) عبد الرحمن الحوت، الجوامع والمساجد الشريفة في بيروت، مطبعة المقاصد الإسلامية، بيروت، 1966، ص 7.
(3) هنري غيز، مرجع سابق، ص 33.
(4) صالح مصطفى لمعي، مساجد بيروت، جامعة بيروت العربية، 1978، ص 6.

ويعتبر الرحالة النابلسي، من المؤرخين الأوائل الذين أعطونا وصفاً معمارياً لهذا الجامع، حيث يقول في كتابه (التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية): الجوامع فيها أربعة: هي الجامع الكبير، جامع الأمير منذر، جامع الأمير عساف، والرابع جامع البحر ويسمى جامع العمري لأنه مشهور من زمان عمر بن الخطاب، وهو أصغر من الجوامع التي في بيروت، وهو مرتفع مطلّ على البحر، يصعد إلى فنائه بسلم من حجر نحو خمسة عشر درجة، ثم يصعد إليه بدرج آخر ثماني درجات[1].

ومنذ الفتح الإسلامي والأخير لبيروت، الذي تمّ في العصر المملوكي عام 690هـ/ 1291م، أحدث بالجامع العديد من التغييرات والإضافات، غير أن أقدم أعمال معماريّة أجريت في المبنى تعود إلى القرن الرابع عشر ميلادي، حيث أنّ أقدم نص مؤرخ يعود إلى عام 737هـ/ 1337م، ويختص بإنشاء شباك في الحائط الغربي للجامع.

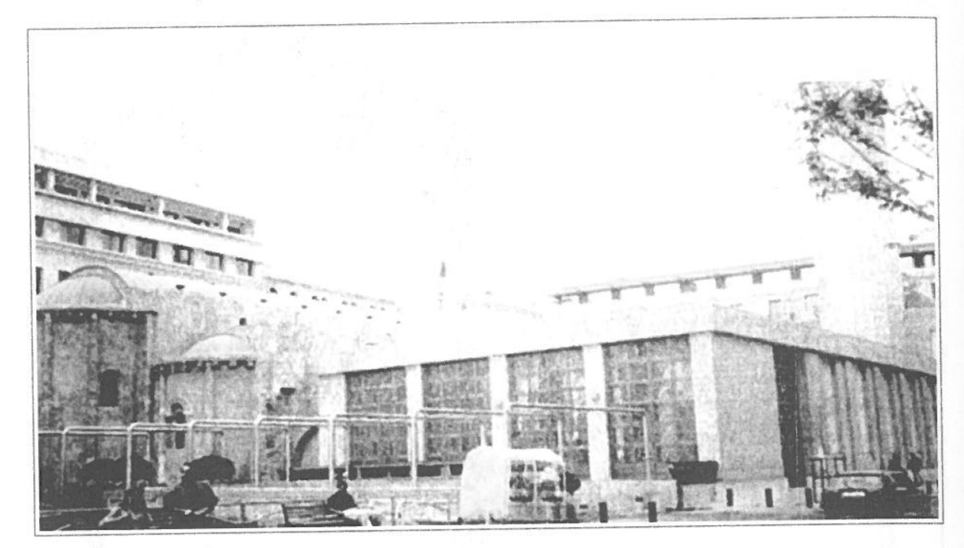
صورة رقم (5)
الجامع العمري الكبير



تصوير خاص بالباحث

(1) عبد الغني النابلسي، مصدر سابق، ص 43

صورة رقم (6)
الجامع العمري الكبير حالياً بعد التعديلات على واجهاته الخارجي



تصوير خاص بالباحث

ويقول النص: «أنشأ هذا الشباك المبارك الفقير إلى الله مغلطاي بن الحصني في شهر رمضان المبارك المعظم سنة سبعة وثلاثين وسبعماية هجرية عفا الله عنه»[1].

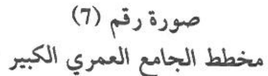
وفي سنة 764هـ/ 1363م، جدّد بناءه حاكم بيروت زين الدين عبد الرحمن الباعوني[2]. وفي سنة 914هـ/ 1508م، أقام شرف الدين موسى بن زين الدين مسلم، والذي شغل وظيفة رئيس ديوان عند ناصر الدين محمد بن الحنش[3] المئذنة بالركن الجنوبي الغربي للمسجد، وتتشابه هذه المئذنة مع المآذن السورية، فنجدها بالجامع الأموي في دمشق في مئذنة نور الدين بجوار الباب الروماني الشرقي.

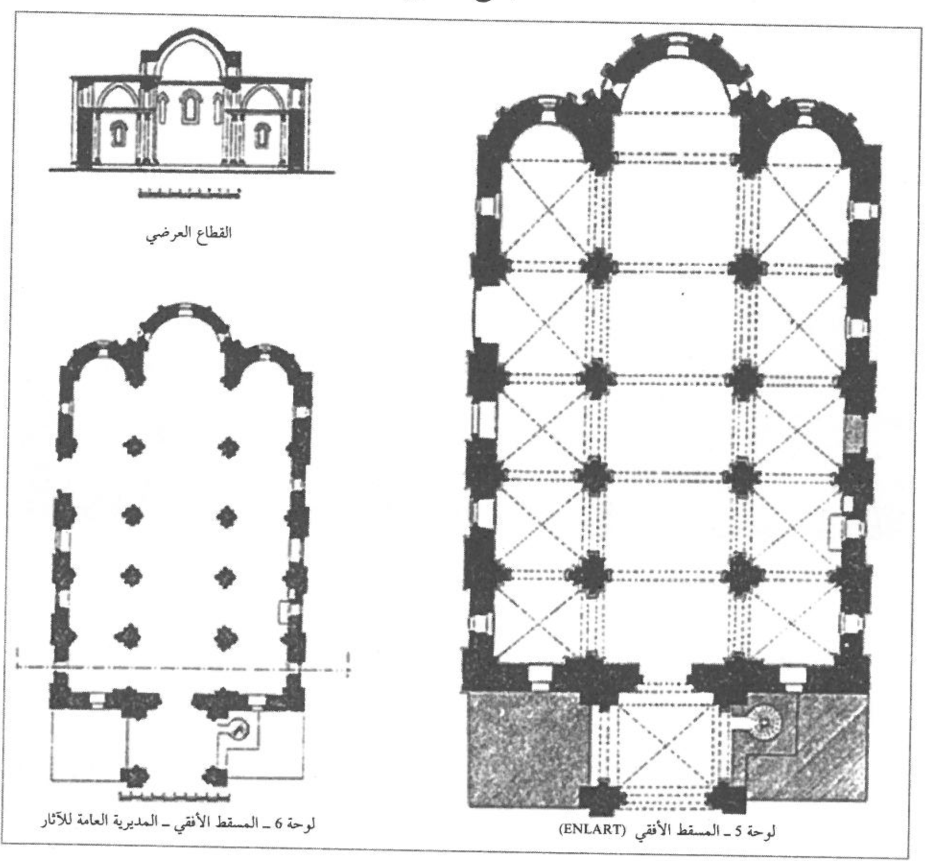
(1) صالح مصطفى لمعي، مرجع سابق، ص 23.

(2) حسان حلاق، أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني، المركز الإسلامي للإعلام والإنماء، بيروت لبنان، 1405هـ/ 1985م، ص 52.

(3) صالح مصطفى لمعي، مرجع نفسه، ص 116.

صورة رقم (7)
مخطط الجامع العمري الكبير





عن صالح مصطفى لمعي، مساجد بيروت، ص16.

أمّا المبنى الذي أقامه أمام الجامع إبراهيم الخطيب، في عام 1067هـ / 1657م، فإنه لم يذكر في النص طبيعته، إلاّ أنّ وجود النص في مدخل الجامع الغربي، قد يشير إلى أن هذه الأعمال قد حصلت في الغرفة الموجودة في الركن الجنوبي الغربي خلف المئذنة. ويقول النص: »بسم الله الرحمن الرحيم، أنشأ هذا المكان المبارك العبد الفقير إلى الله سبحانه وتعالى عبد الله بن الشيخ إبراهيم/ الخطيب الإمام في الجامع فتوح البلدان في شهر رمضان من شهور سنة سبع وستين وألف، بإجماع المحسنين، قد أنفقوا ( ) مالي/ من حلال بفضل

مولانا الكريم أرخت ذو الجلال سنة 1067هـ. والحمد لله وحده وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم»[1].

وصف الجامع

الجامع عبارة عن مستطيل يبلغ طوله ثلاثة وثلاثين متراً، وعرضه نحو إثنين وعشرين متراً، وله بابان، ففي الجهة الغربية يوجد المدخل الرئيس، الذي هو عبارة عن صالة مربعة مغطاة بقبة متقاطعة، محمولة على أربعة عقود مدّببة، محمولة على دعائم من الحجر، محلاة بأنصاف أعمدة، وباب المدخل مغطّى بعتب مستقيم، نجد بقسمه العلوي بقايا زخارف نباتية، ترجع إلى تاريخ بناء الكنيسة.

يتألف مسقط الجامع من ثلاثة أروقة، الأوسط وعرضه سبعة أمتار، وطوله ثمانية وعشرون متراً، وينتهي بحنية كبيرة مغطاة بنصف قبة، أمّا الرواق فقد غطي بقبو دائري محمول على عقود دائريّة، ترتكز على دعائم حجرية محلاة بأنصاف أعمدة، ذات مسقط صليـبي. كذلك قسم القبو في الإتجاه العمودي على المحور الطولي بعقود دائرية، مما قسم الفراغ الداخلي إلى مجموعة من الفراغات المتتالية. وقد زينت تيجان الأعمدة بورق الأكانت، وأوراق نباتية أخرى ذات زوايا حادّة. ويبلغ إرتفاع الرّواق الأوسط في منتصفه، حوالي إثني عشر متراً ونصف. وقد لوحظ وجود نموذجين من الدعائم بالمسقط، حيث أنّ مسقط الدعائم بالمبنى يختلف عن الدّعامتين في أوّل المبنى من الجهة الغربية. وتنفصل الأروقة الجانبية عن الرّواق الأوسط بواسطة أربعة دعائم، وتختلف التغطية بالرّواق الجانبي عن التغطية بالرّواق الأوسط، حيث نجد بالرّواق الجانبي قبوات متقاطعة محمولة على دعائم من ناحية الرّواق الأوسط، ومن الناحية الأخرى من جهة الحائط على الأكتاف، التي زينت

(1) عبد الرحمن الحوت، مرجع سابق، ص 8- 9.

بأنصاف أعمدة. ويصل إرتفاع الرواق الجانبي إلى حوالي ثمانية أمتار ونصف، ويلاحظ عدم وجود الدّعائم والأكتاف على محور واحد، ورّبما يعود ذلك إلى السرعة التي تمّ بها إنشاء المبنى عند الإحتلال الصليبي الأوّل لبيروت في سنة 503هـ/ 1110م.

وتتم عملية الإنارة للأروقة الجانبية عن طريق فتحات معقودة موجودة في الجزء العلوي من الحائط، ويلاحظ أنّ الفتحات في الحائط الشمالي أصغر من الفتحات بالحائط الجنوبي للمبنى، ويعود هذا إلى إضافة رواق جديد خارج المسجد في الجهة الشمالية، وذلك في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي.

أمّا عملية الإنارة للرّواق الأوسط فإنها تتمّ عن طريق نوافذ معقودة بعقد دائري في أعلى الجدار. ويلاحظ عدم إرتباط محاور الفتحات بالرّواق الجانبي، بمحاور الحوائط الخارجيّة، ولكنها ترتبط بمحاور القباب، وقد يعود ذلك إلى الرغبة في إنهاء مبنى الكنيسة بسرعة عند بنائه في أعقاب الغزوة الصليبية.

وقد إستحدث بالحائط الشمالي ثلاثة أبواب: الأوّل معقود على شكل جزء من دائرة، وهو موضوع في مقصورة ويؤدي إلى الصحن بالجهة الشمالية. وقد صنع العقد بقطع من الرخام الأبيض والحجر الرملي، وهي مزيّنة بأشكال هندسية.

والباب الثاني والثالث عن يسار الباب الأوّل، ولهم عتب مستقيم.

أما في الحائط الجنوبي، فقد عمل محراب، وقد وضع عن يمينه منبر، كذلك عملت مقصورة أمام الحائط الجنوبي عن يمين المحراب لإعتقاد أنّ في ذلك المكان قبر النبي يحي[1].

(1) طه الولي، تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت، دار الكتب، بيروت، 1973، ص 47.



صورة رقم (8)
المدخل من جهة الصحن

أما المحراب فعبارة عن تجويف يحيط به عامودان من الرّخام، وقد كُسِي هذا المحراب بالرخام الأبيض والحجر الرملي على التوالي. ويعتقد أن أعمدة المحراب قد أحضرت من مكان آخر، حيث أنّ تيجان أعمدتها مختلفة الزخارف، كما أنّ هذه الزخارف هي مسيحيّة الطراز[1].

وقد صنع المحراب من الرخام الأبيض والأخضر[2]. أمّا المنبر فقد غطي بقبة صغيرة من الرخام محمولة على أربعة عواميد من الرخام، كذلك زين جانبا

(1) صالح لمعي، مرجع سابق، ص 10.
(2) عبد الرحمن الحوت، مرجع سابق، ص 9.

المنبر من الخارج بزخارف نباتية. ويصعد إلى المنبر بواسطة إحدى عشر درجة من الرخام.

وقد عمل في الحائط الغربي باب عن يمين باب المدخل يؤدّي إلى صالة أقيمت حديثاً، كذلك يوجد باب آخر عن يسار المدخل يؤدي إلى غرفة، ألحقت بالمسجد في وقت متأخّر.

ويوجد في أعلى الباب الرئيس، وعلى محوره شباكان، وباب المدخل الغربي له عتب مستقيم به زخارف ترجع إلى عهد بناء الكنيسة.

وقد عملت سدة من الخشب بجوار الحائط الشمالي، يصعد إليها بدرج من الخشب، ولهذه السدة حاجز من الخشب، المزين بزخارف هندسية ونباتية بإستعمال اللون الأحمر والأخضر والتذهيب.

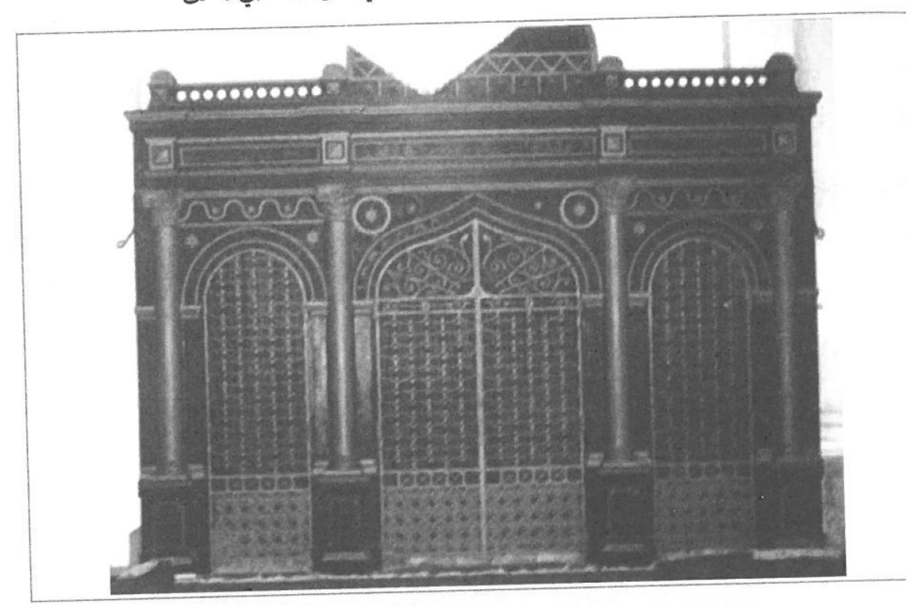
كذلك ألحق بالمسجد رواق ملاصق للحائط الشمالي، وينفتح على الصحن المستجدّ بواسطة عقود مدببة محمولة على دعائم حجرية.

وقد استعملت القبوات المتقاطعة في تغطية الرّواق، وقد غطي الفراغ المستجدّ أمام الباب الرئيس بواسطة قبّة محمولة على طمبور، نظمت به تسع نوافذ معقودة بعقود بشكل جزء من دائرة. وقد ألحقت بالركن الجنوبي الغربي مئذنة ذات مسقط مربع، تحمل في أعلاها شرفة مربعة.

ويتم إنارة السلم الدائري للمئذنة عن طريق فتحات ضيّقة مستطيلة الشكل في الحائط الجنوبي، ويلاحظ وجود فاصل بين حوائط المئذنة وحوائط المسجد، وللمئذنة بابٌ عن يمين باب المسجد الغربي وله عتب مستقيم، ويعلو عتب الباب نقش تاريخي، من أربعة أسطر على لوحة رخامية محاطة بشرفات مزخرفة، واللوحة مثبتة فوق باب المئذنة وهي تنص على ما يلي:

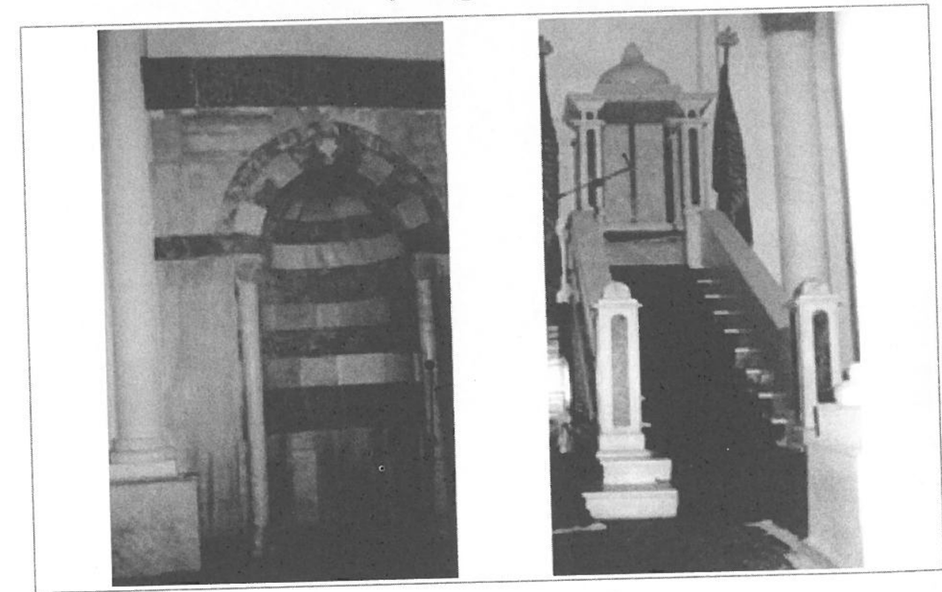
صورة رقم (9)

واجهة المقصورة، حيث يعتقد أنه المكان الذي دفن فيه النبي يحيى.



صورة رقم (10)

منبر ومحراب الجامع العمري الكبير.



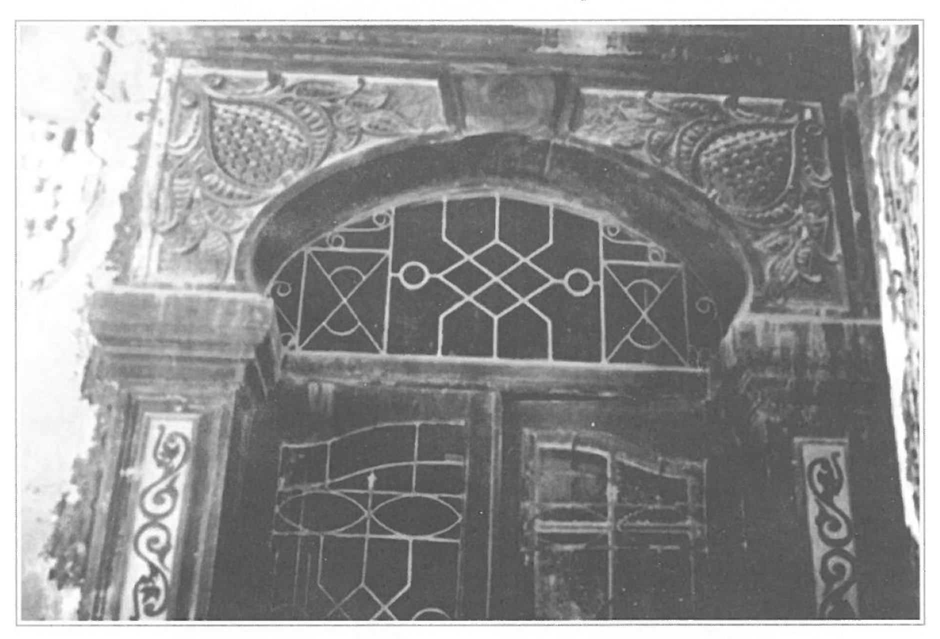
تصوير خاص بالباحث

«بسم الله الرحمن الرحيم، أنشأ هذه المنارة المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى الأشرفي موسى بن المرحوم الزيني/ مسلم دوادار الجناب العالي المولوي الأميري الكبيري الناصري محمد بن الحنش أعزّهما الله تعالى بنية صالحة وعزيمة صادقة/ ورغبة في الثواب تقرّباً إلى ربه الكريم وطلباً لثوابه العميم أثابه الله الجنة بمنّه وكرمه بتاريخ مستهلّ شهر الله المحرم الحرام/ إفتتاح سنة أربعة عشر وتسعماية والحمد لله وحده، وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم».

صورة رقم (11)

باب المدخل الغربي، حيث نشاهد الزخارف النباتية المختلفة

وهي تعود إلى زمن بناء الكنيسة



تصوير خاص بالباحث

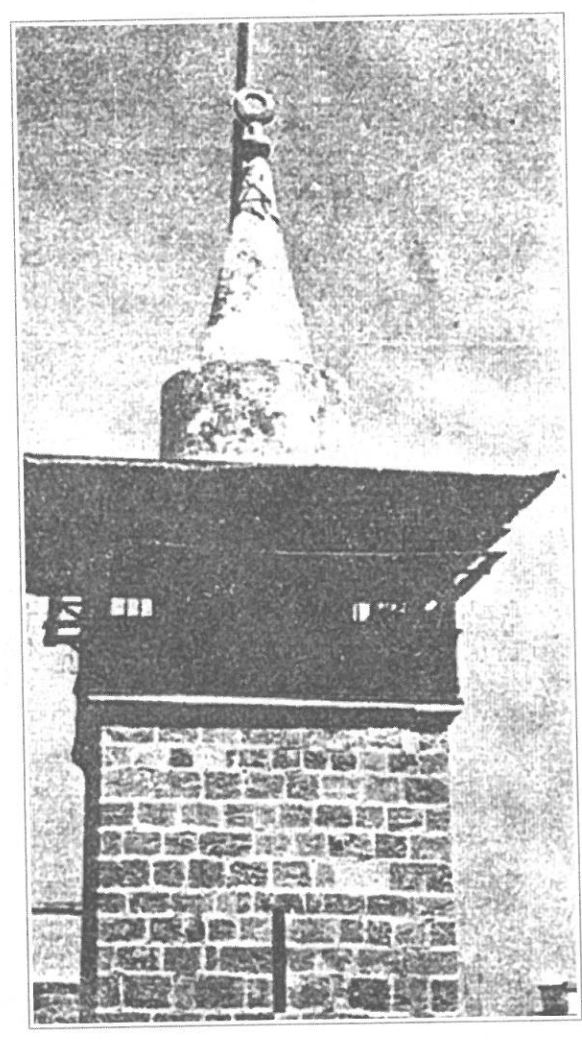
وعن يمين باب المئذنة، يوجد مدخل صغير منخفض بعتب مستقيم، يؤدي إلى غرفة مربعة مسقوفة بقبة. وفي الحائط الشرقي للغرفة باب يؤدّي إلى

الجامع، وعلى عتبة الباب نقش تاريخي من سطر واحد يعلوه زخارف هندسية، وينص على ما يلي:

«أنشأ هذا الشباك المبارك الفقير إلى الله تعالى مغلطاي بن الحصني، في شهر رمضان المبارك المعظم سنة سبع وثلاثين وسبعماية عفا الله عنه».

صورة رقم (12)

مئذنة الجامع العمري الكبير



عن طه الولي، تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت، ص 216

مئذنة الجامع العمري الكبير، وهي مربعة الأضلاع، وهذه المئذنة من بناء ناصر الدين محمد بن الحنش.

كذلك يوجد على الحائط الشمالي للغرفة نص تاريخي من ثلاثة أسطر نحت على لوح من الرخام، وينص على ما يلي:

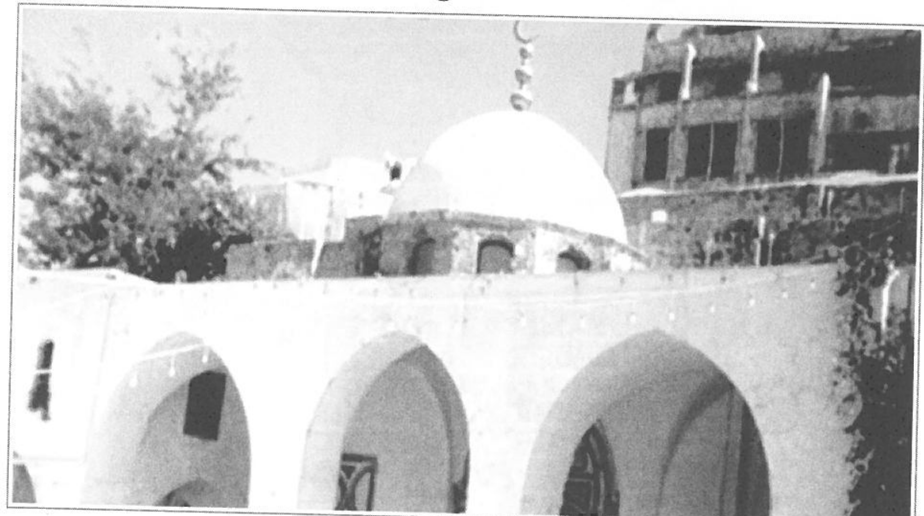
«السيد أحمد بن عز الدين جدد هذا المحل / لله كان فأرخوا ولذكره عز وجل / سنة 1077».

كذلك يوجد نص آخر على الحائط الغربي للغرفة بالركن الجنوبي الغربي، وهو من ثلاثة أسطر، وينص على ما يلي:

«أهدى هذا الأثر الشريف ساكن الجنان السلطان عبد الحميد خان، وعهد بخدمته الشريفة لآل فاخوري، أهدي سنة 1276هـ، حرر في رمضان المبارك سنة 1338هـ».

ويوجد بالحائط الجنوبي شباك مستطيل صغير بالإضافة إلى محراب خالٍ من الزخارف، ويحتفظ بالغرفة بصندوق يقال إنّ فيه شعرة نبويّة، وربما كان النص يتحدّث عن هذه الشعرة.

صورة رقم (13)
القبة وقد نظمت بها تسع نوافذ معقودة.



تصوير خاص بالباحث

الواجهة الشمالية

تشكّلت الواجهة الشمالية بواسطة مقصورات ودعامات، استحدث في الجزء السفلي منها فتحتان على يمين المدخل:

الفتحة الأولى عبارة عن باب معقود بجزء من دائرة، له عتبة سفلى من الرخام، والفتحة الأخرى باب له عتب مستقيم، وعتبة سفلى من الرخام.

أمّا الباب الرئيس في هذه الواجهة فهو معقود بعقد بشكل جزء من دائرة من الرخام الأبيض والأسود والأصفر، وله عتبة سفلى من الرخام، وينخفض منسوب الأرضية خلف الباب بمقدار أربعين سنتمتراً عن منسوب أرضيّة المسجد.

ونجد في الجزء العلوي من المقصورات نوافذ معقودة مختلفة الإرتفاع والعرض، وقد استحدث على يسار الباب المذكور حنية معقودة بعقد زخرفي، يكتنفها عمودان من الرخام الأبيض، وقد غطي المحراب بالرخام الأبيض والحجر الرملي[1].

الواجهة الشرقية

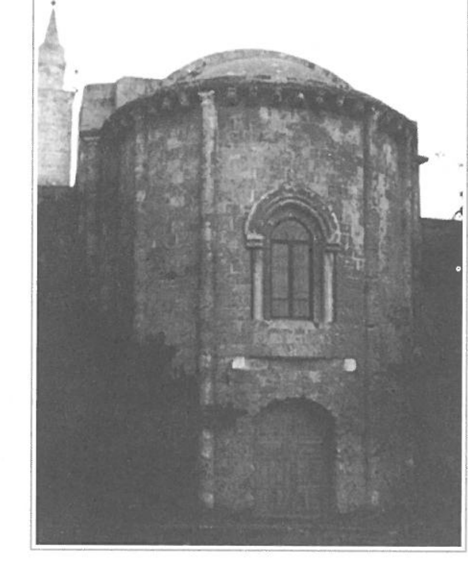
تتألف هذه الواجهة من ثلاثة حنايا، أكبرها الحنية الوسطى التي ترتفع عن الحنيتين الجانبيتين.

وقد استعملت أنصاف الأعمدة والتي لها تيجان في تشكيل الواجهة.

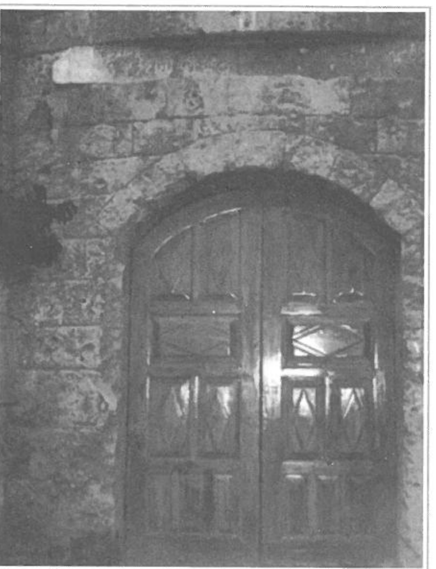
ويتوج الواجهة كورنيش محمول على مجسمات بشكل رؤوس حيوانات. كما نظمت بالواجهة فتحات معقودة بعقد دائري في محور الحنيتين الجانبيتين، وثلاث نوافذ في الحنية الوسطى، وقد وضعت كل نافذة في مقصورة تميل حوائطها الجانبية إلى الداخل، وكان لكل مقصورة عامودان في الأركان الخارجية، وقد زين عقد المقصورة بزخارف هندسية متنوّعة.

(1) صالح مصطفى لمعي، مرجع سابق، ص 11.

صورة رقم (14)
الواجهة الشرقية للجامع العمري الكبير



صورة رقم (15)
باب الواجهة الشرقية نجد في أعلاه نقش كتابي يؤرخ لتاريخ بناء الجامع



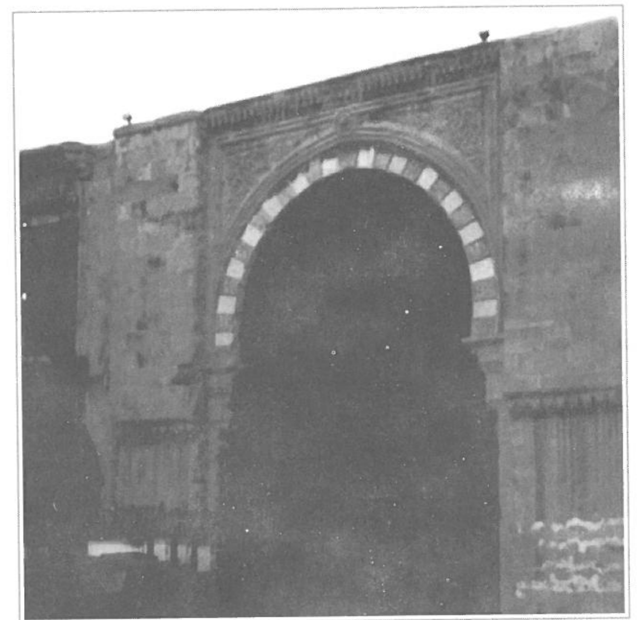
تصوير خاص بالباحث

الواجهة الجنوبية

تتألف هذه الواجهة من مقصورات مستطيلة المسقط، ودعائم وفتحات وضعت في الجزء العلوي من الحائط، وهذه النوافذ مستطيلة الشكل ومعقودة بعقد نصف دائري، ويلاحظ عدم تطابق محور الفتحات مع محور المقصورات، كذلك عدم إنتظام عرض المقصورات بالواجهة، كذلك عدم تطابق محور الدعامة من الخارج مع محور الأكتاف الداخلية، ويلاحظ أيضاً وجود إختلاف بين إرتفاع صفوف الحجارة في كل من المبنيين.

الواجهـة الغربيـة

لا يظهر من هذه الواجهة سوى مدخل حديث، معقود بعقد حدوة الفرس وهو مزخرف.



صورة رقم (16)
الواجهة الغربية

تصوير خاص بالباحث

الزيادات المعمارية والنقوش التاريخية في الجامع[1]

إنّ أقدم نص مؤرخ في الجامع يعود إلى سنة 737هـ/ 1337م، وهو يختص بإنشاء شباك في الحائط الغربي للجامع، والذي تحوّل بعد ذلك إلى باب يؤدي إلى الغرفة بالركن الجنوبي الغربي.

بعد ذلك تمّ إنشاء باب في الحنية الشرقية، ويرجح أن يكون ذلك قبل عام 775هـ/ 1373م، وهو تاريخ المرسوم على الرخامة الموجودة أعلى الباب، وهو الذي يختص بالخبازين، وهو نقش من أربعة أسطر تنص على ما يلي:

«بتاريخ سنة ستة وثمنامئة هجرية، قرّر الجناب العالي الجمالي أمير مؤيد باب السلطنة الشريفة ببيروت المحروسة أعز الله أنصاره، أن يبطل ما كان استحدث على الخبازين ببيروت لنائب الحسبة الشريفة، وهو في كل سنة على

---

(1) قام د. صالح لمعي، بإحصاء هذه النصوص التاريخية للجامع العمري الكبير، حيث نشرها في كتابه، مساجد بيروت، مرجع سابق. ص 23-25.

كل فرن خمسة أمداد، وما كان الخبز بالأجرة أيضاً، أمر بإبطال ذلك، وأنه لا أحد يأخذ رسماً بإسمه ولا يحدث خلافه وملعون إبن ملعون من يعود يجدد ذلك ويأخذ منهم شيئاً ولا يأخذ المحتسب إلاّ جامكيته فلو أخذ يجبي شيئاً غير جامكيته، يكون عليها مسؤولاً فليلعن».

نلاحظ أن هذا المرسوم قد نص على منع الضرائب المستحدثة على الخبازين، وأمرللمحتسب بأن لا يأخذ إلا جامكيته فقط. وهذا المرسوم نجد أمثلة كثيرة له في طرابلس على جدران المدارس والمساجد، ومنها على سبيل المثال: مرسوم للسلطان خشقدم على جدران المدرسة الرفاعية، أنه لا يؤخذ من التجار حماة، وغيرها من السمسرة والترجمة، إلا ما جرت به العادة القديمة، من غير زيادة على ذلك، ولا يؤخذ شيء ممن باع سلعته بغير دلال، وإبطال ما جدد على ذلك، وهي الخمسة الزائدة على كل ألف، وأن تسطر هذه المثوبة رفعاً للظلامة.

وفي سنة 914هـ/ 1509م، أقام شرف الدين موسى بن زين الدين مسلم، والذي شغل وظيفة رئيس ديوان عند ناصر الدين محمد بن الحنش المئذنة بالركن الجنوبي للمسجد، وتشبه هذه المئذنة المآذن السورية، حيث نجد مثيلها في الجامع الأموي بدمشق بمئذنة نور الدين.

إلاّ أنّ وضع النقش في مدخل الجامع الغربي، قد يشير بذلك على الأرجح إلى الغرفة الموجودة بالركن الجنوبي الغربي خلف المئذنة، والتي أقيمت بعد المئذنة، ولعلّها كانت مخصّصة لإمام الجامع.

وفي أوائل القرن الثامن عشر الميلادي، أشار الرّحالة عبد الغني النابلسي عند زيارته لبيروت في عام 1112هـ/ 1701م، إلى وجود بركة مياه للوضوء بجوار المسجد[1]، وربما أقيمت هذه البركة في العهد المملوكي، بعد إستيلاء سنجر الشجاعي على بيروت، حيث نجد نقش من ثلاثة أسطر على لوح من الرخام

(1) عبد الغني النابلسي، مصدر سابق، ص 42.

الأبيض، مثبت على يمين أسفل الحائط خلف المقصورة، وهو ينص على ما يلي:

« بسم الله الرحمن الرحيم ب./ جدد هذا الحوض المبارك ب / ب.».

ولعلّ المدخل بالحائط الشمالي قد استحدث عند إنشاء حوض المياه للوضوء بالجهة الشمالية وذلك لتسهيل حركة المصلّين بين بركة الوضوء والجامع.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الزخارف النباتية في أعلى الباب بالحائط الشمالي، قد شاعت في العصر العثماني، ونجد ما يشابهها في العديد من الأعمال التي تعود للعصر العثماني، مثل: الباب الخارجي لجامع الأزهر في مصر، والمعروف بباب المزينين، ومن المرجح أنّ الباب المذكور، قد أجريت له أعمال ترميم وتزيين في العهد العثماني، وربما كان ذلك في عام 1193هـ/ 1781م، وهو التاريخ العائد للنقشين على يمين ويسار المحراب الخارجي بالحائط الشمالي بالجامع، والذي أنشيء في ذلك التاريخ أيضاً.

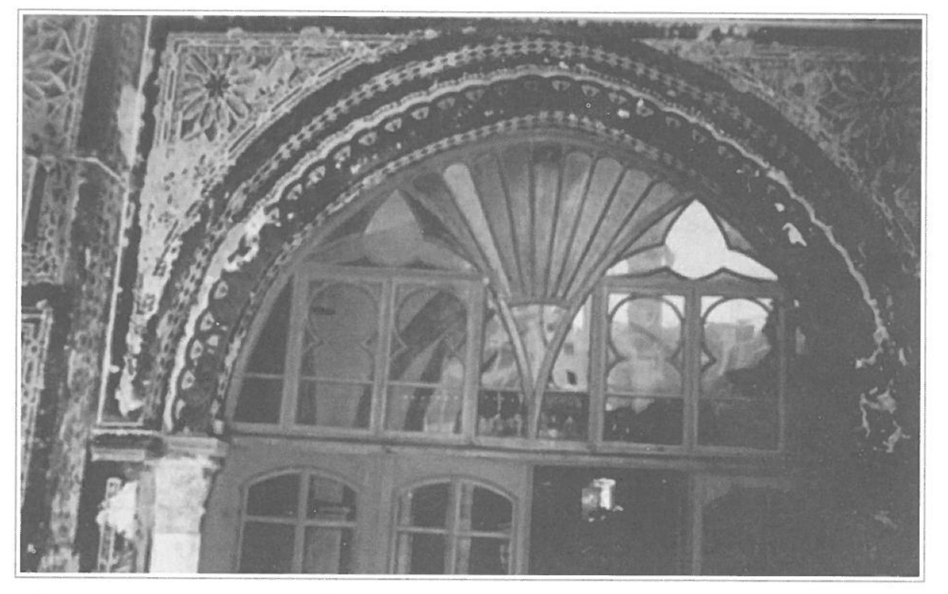
النقش الأوّل من ثلاثة أسطر على الرخام، داخل دائرة، الكتابة مدهونة بالأسود على يمين المحراب المستحدث في الحائط الشمالي، وهي تنص على ما يلي:

«لا إله إلاّ الله محمد رسول الله / أبو بكر وعثمان وعلي وطلحة/ سنة 1193هـ».

النقش الثاني من ثلاثة أسطر أيضاً، على الرخام داخل دائرة مدونة باللون الأسود، موجودة على يسار المحراب، وهي تنص على ما يلي:

«والزبير وسعد وسعيد / وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة عامر بن الجراح / سنة 1193هـ».

صورة رقم (17)
زخارف الواجهة بالحائط الشمالي



تصوير خاص بالباحث

وفي سنة 1229هـ/ 1811م، أقام القاضي عبد اللطيف فتح الله القبة فوق البركة المخصصة للوضوء، وهذا يوضح أنّ الرواق بالجهة الشمالية، كان موجوداً قبل ذلك التاريخ، وربما تم إنشاؤه خلال القرن الثاني عشر الهجري، بعد زيارة الرحالة النابلسي في عام 1112هـ/ 1701م، حيث أنه لم يشر إليه، وإنما ذكر البركة فقط، فلعلّ الرواق قد أقيم مع المحراب الخارجي في عام 1193هـ/ 1776م.

أما اللوحة الرخامية المثبتة على حائط القبلة عن يمين المحراب، والمؤرخة في عام 1261هـ، فلم يذكر فيها أية أعمال معمارية.

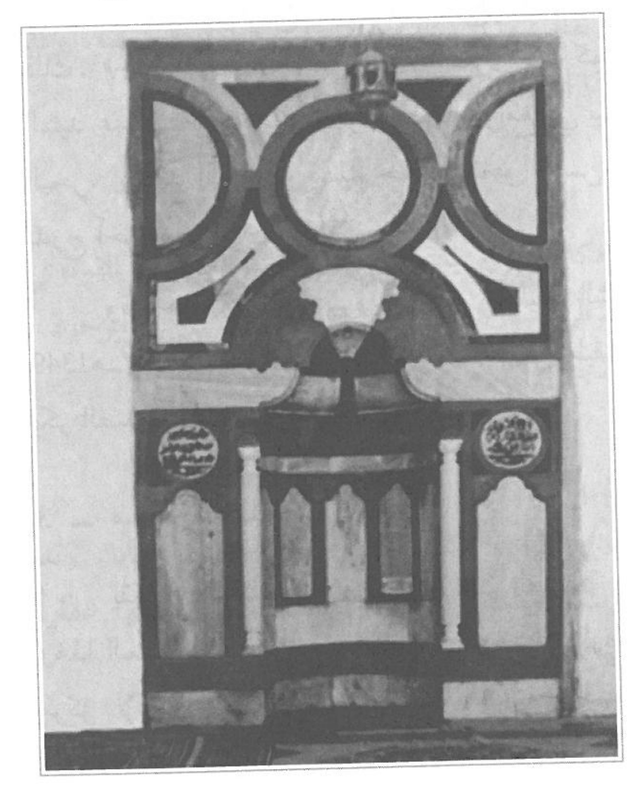
وفي عام 1276هـ/ 1862م، أهدى السلطان عبد المجيد الأوّل، الأثر النبوي إلى الجامع[1]، ثم تبع ذلك إهداء السلطان عبد الحميد الثاني في

(1) صالح لمعي، مرجع سابق، ص 7 – 27.

عام 1305هـ/ 1892م، للحاجز الحديدي الذي أقيم حول قبر النبي يحي.

وفي عام 1956م، أنشئ المنبر الرخامي على نفقة إبراهيم الغندور المصري، ثم تبع ذلك في الأعوام 1952، 1960، إصلاحات اجريت في سقف الجامع، ورمم ترميماً عاماً، وتمّ وضع نقوش بالألوان على الوجه السفلي لأرضية السدة. وقام بهذا العمل مديرية الأوقاف الإسلامية، مع المديرية العامة للآثار، إلا أنّ هذه الأعمال قد غيرت بعض المعالم الأثرية للجامع، ثم أضيف الصالون الملحق بالجامع في عهد الشيخ محمد توفيق خالد[1].

ونجد كذلك بعض النقوش المختلفة، في أماكن متعدّدة من الجامع.



صورة (18)
المحراب الخارجي بالحائط الشمالي، والذي أنشأ سنة 1193هـ، وهو التاريخ المدوّن على النقشين، عن يمين وشمال المحراب

تصوير خاص بالباحث

(1) قام سلاطين آل عثمان بتقديم العديد من الهدايا الى هذا الجامع، وذلك لتحسين صورتهم في أعين أهل بيروت، وللظهور بمظهر حماة الإسلام والمدافعين عن شعائره.

2 ـ جامع الدباغـة

يقع هذا الجامع في طرف السور الشرقي لميناء بيروت قريباً من البحر، ويعود للعهد المملوكي، يُصعد إليه بدرج، ويسمى أيضاً جامع البحر، والجامع العمري الشريف، أما تسميته بجامع الدباغة فبسبب قربه من باب الدباغة.

وقد بني حوالي سنة 743هـ/ 1343م، وهو مرتفع عن الأرض يُصعد إليه بدرج، وتحته عّدة مخازن، وهو مؤلف من طابقين لإداء الصلاة، ومئذنته مسدسة الشكل[1].

أما تسميته بجامع البحر وبالجامع العمري، فيقول الرحالة النابلسي في ذلك: «جامع البحر، وسمّي جامع العمري لأنه كما هو مشهور عندهم من زمان السيد عمر بن الخطاب، وهو أصغر الجوامع في بيروت، وهو مرتفع مطلّ على البحر، يصعد إلى فنائه بسلّم حجري نحو خمس عشرة درجة، ثم يصعد إليه بدرج آخر ثماني درجات»[2].

وقد هدمته بلدية بيروت عند تخطيط الشوارع في محلّة المرفأ سنة 1349هـ/ 1932م، وقد أقيم مكانه مسجد من طبقتين، وصار يدعى جامع أبي بكر الصديق[3].

3 ـ مسـجد البدوي

يقع هذا المسجد في ميناء بيروت القديم، وكان بينه وبين البحر طريق، وهذا المسجد بني من جملة ما بني من مراكز لرباط المسلمين، ثم تحوّل إلى مركز لإقامة الأذكار على الطريقة البدوية، المنسوبة للشيخ الصوفي أحمد البدوي، كما يتبيّن من إسمه، مسجد السيد البدوي.

(1) طه الولي، مرجع سابق، ص 85.
(2) عبد الغني النابلسي، مصدر سابق، ص 42-43.
(3) عبد الرحمن الحوت، مرجع سابق، ص 65.

ويعود بناؤه إلى سنة 743هـ/ 1342م، وقد أزيل أثناء تخطيط محلّة المرفأسنة 1335هـ/ 1915م، وكانت فيه بلاطة كتب عليها: (أنه من بناء الأمير عز الدين بن أزدمير بن عبد الله الخوارزمي الناصري)[1].

4 ـ مسجد التوبة

يقع هذا المسجد في رأس سوق الخضار في محلّة المرفأ، وهو مرتفع عن الأرض، ولعلّ هذا المسجد هو المسجد المعلّق، وقد سمّي بذلك لأنه يصعد إليه بدرج.

وكان هذا الجامع زاوية تقام فيها الأذكار على إحدى الطرق الصوفية، وقد هدم هذا الجامع ما بين عام 1335هـ/ 1915هـ، و 1372هـ/ 1953م.

5 ـ جامع شمس الدين

ومن المرجح أنه أقيم مكان البرج الذي بناه الأمير شمس الدين القونوي في منتصف سوق البزركان حوالي سنة 788هـ/ 1386م، وهو الآن غير موجود، وقد أقيمت في مكانه مؤسسة تجارية[2].

6 ـ زاوية المغاربة

بنيت حوالي سنة 793هـ/ 1390م، وكانت تقع جنوبي جامع السرايا. وقد زالت في تخطيط مدينة بيروت، وبنت الأوقاف الإسلامية في مكانها عقاراً تجارياً[3].

(1) طه الولي، مرجع سابق، ص 85.-
(2) طه الولي، مرجع نفسه، ص 85.
(3) عبد الباسط الإنسي، دليل بيروت ، جريدة الاقبال، 1910م، ص 101.

7 ـ زاوية المجذوب

تقع في منتصف مدينة بيروت، ويرتقي بناؤها إلى منتصف القرن الثامن الهجري 745هـ/ 1344م[1].

ويقول الشيخ محي الدين الخياط، أنّ هذه الزاوية نسبت إلى منشئها الحاج أحمد بن الحاج مختار، الذي كان يلقب بالمجذوب، وأصله من بلاد المغرب[2].

8 ـ زاوية رأس بيروت

وتعرف اليوم بجامع الحمرا، وموقعها في شارع الحمرا، ويرجع بناؤها إلى سنة 810هـ/ 1407م، وقد قام ببنائها آل الحمرا.

9 ـ مسجد وزاوية الحمرا

كان يقع غربي الجامع العمري الكبير، وقد تم بناؤه سنة 793هـ/ 1392م، وكان بجانبه غرفة يوجد فيها ضريح أحد بني الحمرا، ويدعى الشيخ محمد الحمرا، ويرجح الإنسي أنه ضريح باني المسجد[3].

وقد وصف الرحالة النابلسي هذه الزاوية بقوله: «يقام فيها الذكر والأوراد، وبها حفاظاً تقرأ وهي متسعة، وبها إيوان به محراب كبير، وفيها بركة ماء بجانبها بئر يستخرج منه ماء غزير، ويصب في تلك البركة»[4]. وقد أزيلت هذه الزاوية، والحق المكان الذي كانت فيه إلى الجامع العمري الكبير، بعد الحرب العالمية الأولى 1914 ـ 1918م.

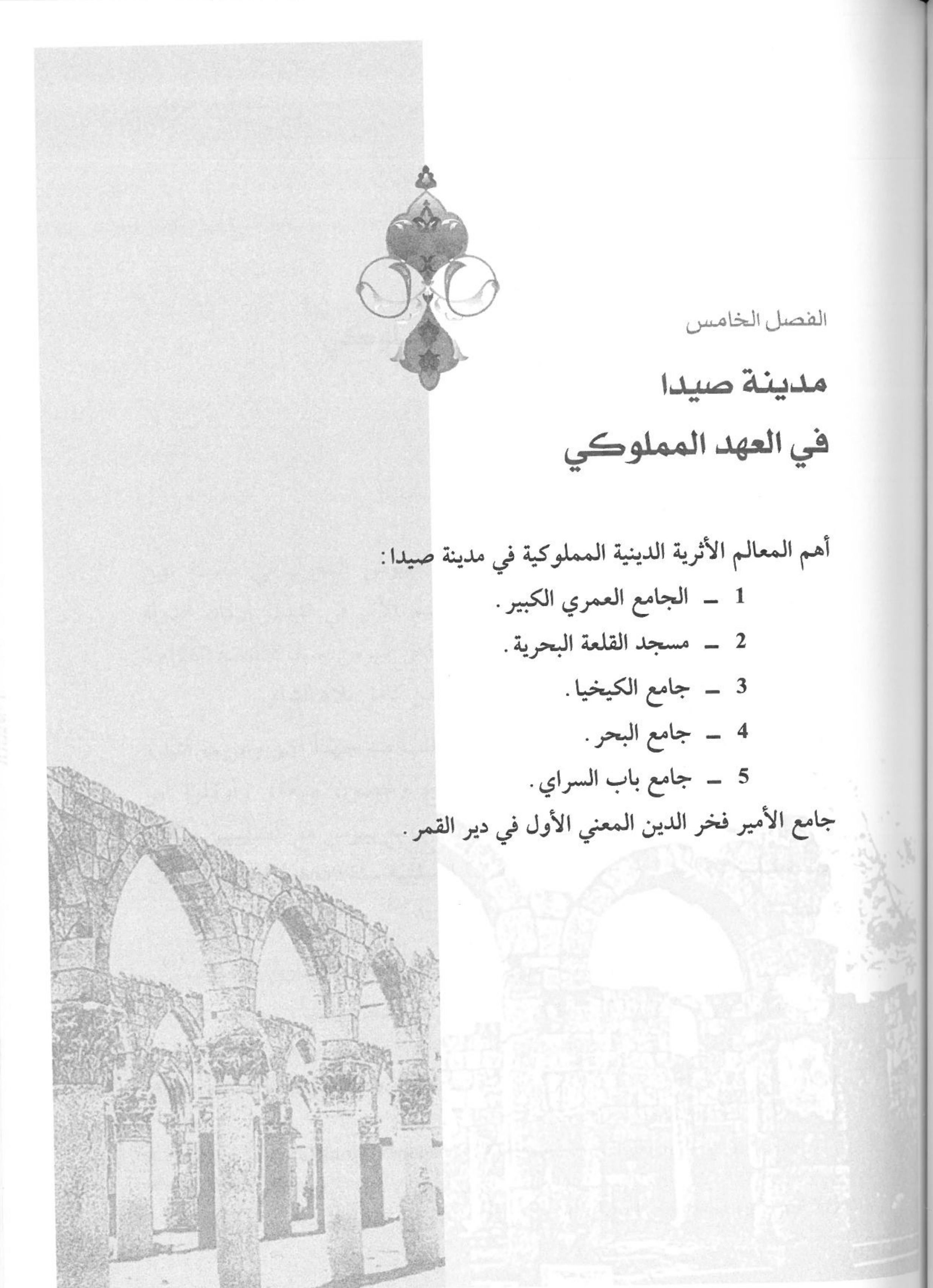
(1) عبد الباسط الأنسي، مرجع سابق، ص 100.
(2) طه الولي، مرجع سابق، ص 86.
(3) عبد الباسط الإنسي، مرجع نفسه، ص 98.
(4) عبد الغني النابلسي، مصدر سابق، ص 41.

10ـ مسجد وزاوية الشهداء

موقعها في سوق العطارين، تجاه الجامع العمري الكبير[1]، وهي قديمة العهد، بنيت مع ما بني من زوايا الرباط والجهاد، كما يدلّ إسمها. ولم نعثر على معلومات موثوقة عن تاريخ هذه الزاوية.

وأخيراً يمكننا القول أن هذه المعالم الأثرية الدّينية في بيروت، لا تعتبر شيئاً مذكوراً بالنسبة لما عهد في سلاطين المماليك وأمرائهم، من غيرة على الإسلام، وهمّة في بناء العمائر الدّينية، لا سيما وأنّ بيروت بقيت تحت الحكم المملوكي حوالي 242 سنة بدون إنقطاع، ربما لأنّ سكّان هذه المدينة كانوا من القلّة، بحيث لا يحتاجون إلى أكثر من هذا العدد من المساجد، هذا بالإضافة إلى أنّ بيروت في ذلك العهد، لم تكن أكثر من مدينة صغيرة تابعة لدمشق، وليس لها قيمة إداريّة وعسكريّة كبيرة تجعلها على قدر المساواة مع النيابات المملوكية.

(1) طه الولي، مرجع سابق، ص 86.



الفصل الخامس

مدينة صيدا
في العهد المملوكي

أهم المعالم الأثرية الدينية المملوكية في مدينة صيدا:

1 ـ الجامع العمري الكبير.

2 ـ مسجد القلعة البحرية.

3 ـ جامع الكيخيا.

4 ـ جامع البحر.

5 ـ جامع باب السراي.

جامع الأمير فخر الدين المعني الأول في دير القمر.

صيدا في العصر المملوكي

أن نجاح المماليك في الإنتصار على جيوش المغول في معركة عين جالوت سنة658هـ/ 1260م، كان أمراً له عظيم الأثر في تثبيت أركان الدولة المملوكية، خاصة خلال حكم السلطان الظاهر بيبرس سنة 658هـ/ 1260م، الذي إهتم بالجهاد ضد الصليبيين بغية طردهم من كامل بلاد الشام.

إلا إن المواجهة مع الصليبيين كانت تتطلب منه جهداً أكبر وعزيمة أشد، ذلك لأن الصليبيين قد أحاطوا مدنهم بقلاع وحصون منيعة، وأوكلوا أمر حمايتهم لفرسان منظمتي الإسبتار والداوية[1]. وإتبع بيبرس مع الصليبيين سياسة الشدة والعنف، وبدأ بمهاجمة إمارة إنطاكية الصليبية سنة 659هـ/ 1261م، وذلك لعقاب أميرها بوهيمند السادس على محالفته للتتار[2].

في سنة 663هـ/ 1265م، إستولى بيبرس على مدينة قيسارية وأرسوف[3]. وفي العام التالي هاجم قلعة صفد، وتمكن من الإستيلاء عليها، وهاجمت قواته

---

(1) Aylon, art, «Hisar», EI², IV, p. 485, 492.

(2) إبن أبي الفضائل، النهج السديد، ص 509.

Cahen, La Syrie du Nord a l'époque des Croisades et la principaute d'Antioche. Paris, 1942, p. 715.

(3) المقريزي، السلوك، ج 1، ق2، ص 526 ـ 527.

مدينة طرابلس، وبلاد السواحل، وحصن الأكراد، وإستولت عليه[1]. كذلك إستولت قواته على قلعة حلبا والقليعات. وفي هذه السنة وجه الأمير إيتامش الى مدينة صيدا[2]، فأغار عليها وكثرت المغانم في يده[3].

ويذكر صالح بن يحي: «أن الأمير التنوخي جمال الدين حجي عهد الى بدر الدين بن رحال بالمرابطة في قبالة فرنج صيدا وبيروت والمشاغرة لهم»[4]. وعندما أيقن الصليبيين بتحول ميزان القوى الى جانب المماليك، طلبوا الصلح، ووصلت رسلهم الى السلطان الظاهر بيبرس سنة 665هـ/ 1267م، يعرضون عليه المناصفة في صيدا، وهدم قلعة الشقيف. فقبل السلطان الظاهر عرضهم، وعقدت معاهدة للصلح متها عشر سنوات، بينه وبين صاحب عكا، أتفق خلالها على أن بلاد صيدا السواحل للفرنج، والجبال للسلطان[5].

مدينة صيدا

إن صيدا هي المدينة التي تفردت منذ العصور السحيقة بجاذبية خاصة مميزة، أكتسبتها من موقعها الإستراتيجي الهام أولاً، ومن دخولها دائرة الصراع الدولي في السيطرة على حوض البحر المتوسط ثانياً.

وإذا كانت صيدا في تاريخها الفينيقي القديم، تعتبر من أشهر وأهم المدن الفينيقية الواقعة على الساحل السوري، وهذا ما نعرفه جميعاً من خلال دراستنا في المراحل الدراسية الأولى. فإنها كذلك في تاريخها الإسلامي، لم تكن مجردة من الأهمية، حيث بقي للمدينة الكثير من ملامحها التقليدية السابقة.

(1) إبن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7، ص 138.
Elisséeff, art. «Hisn al - Akrad», EI^2, III, p.520-523.

(2) عرفت صيدا أيام الصليبين بإسم (Sagitta) وهو ترجمة للإسم العربي صيدا.

(3) المقريزي، مصدر سابق، ج 1، ق 2، ص 545.

(4) صالح بن يحي، تاريخ بيروت، ص 61 ـ 64.

(5) المقريزي، مصدر نفسه، ج1، ص 571.

صورة رقم (19)
قلعة صيدا البحرية



تصوير خاص بالباحث

ولعل الفارق بين المرحلتين هو طبيعة الحكم في كلتيهما، وأنعكاس ذلك على شخصيتها الخاصة، كواحدة من أهم الثغور البحرية على الشاطئ الغربي للبحر المتوسط. ففي المرحلة الأولى ساد نظام دولة المدينة، بينما فقدت هذا الدور في المرحلة الثانية، وذابت في أنظمة الحكم الإسلامي المتعاقب.

وبقيت صيدا بموجب هذه المعاهدة، بمنأى عن الغزوات الإسلامية المدمرة خلال السنين الأخيرة من الصراع بين الصليبيين والمسلمين.

وعندما إستولى السلطان المنصور قلاوون على مقاليد الحكم سنة678هـ/ 1279م، حرص على مهادنة الصليبيين، لكي يتفرغ لرد العدوان المغولي على بلاد الشام. لذلك قام بتجديد الهدنة بينه وبين فرسان الإستبارية في عكا سنة 680هـ/ 1281م، كذلك بينه وبين بوهمند السابع صاحب إنطاكية وطرابلس لمدة عشر سنوات كاملة[1].

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 14، ص 25.

ويذكر رنسيمان : «أن تجديد الهدنة مع عكا أعاد إليها بعض الثقة من قبل التجار المسلمين، الذين عادوا يمارسون تجارتهم في إطمئنان، كما توافد المزارعون المسلمون بمنتجاتهم الى أسواق عكا»[1]. وكان كل شيء يسير على ما يرام، حتى صيف سنة 689هـ/ 1290، عندما وصل الى عكا جماعات من الحجاج الإيطاليين، وهم بدون إي تنظيم، أنطلقوا في شوارع عكا، وقتلوا جماعة من التجار المسلمين، كانوا قد حضروا الى عكا في ظل الهدنة المعقودة[2].

وعندما بلغ السلطان ذلك، غضب، وطالب صليبيي عكا بتسليم الفاعلين ودفع التعويضات. فكان الجواب أنهم ليس لهم سلطان على المذنبين، فرفض إعتذارهم، وبرز الى ظاهر مصر قاصداً عكا، وصمم على القضاء نهائياً على إمارات الفرنج في بلاد الشام. ثم إصدار أمره بتجهيز الجيوش وأدوات الحصار.

وفي هذا يقول المقريزي: «ثار أهل عكا بتجار المسلمين وقتلوهم، فغضب السلطان، وكتب الى البلاد الشامية بعمل مجانيق وتجهيز زردخانة لحصار عكا»[3].

إلا أن السلطان قلاوون توفي في نفس السنة، وخلفه أبنه الأشرف خليل، الذي صمم على قيادة الحملة التي قام بتجهيزها والده. وفي سنة690 هـ/ 1291م، تحرّك على رأس جيوشه إلى بلاد الشام، حيث حطّ رحاله أمام أسوار عكا، ونجح في الإستيلاء عليها في نفس السنة؛ وبسقوط عكا أخذت بقية الإمارات الصليبية تتهاوى أمام ضربات المسلمين[4].

وقد لجأ إلى صيدا عدد من فرسان الدّاوية، الذين نجوا من مذابح عكا مع

(1) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج 3، ص 692.

(2) Hassanien, Rabie, art. «Kalawun», EI^2, IV, p.505-507.

(3) المقريزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 753 ـ 754

(4) المقريزي، المصدر نفسه، ج 1، ق3، ص 764 ـ 765.

قائدهم ثيبوت جودان، وطائفة قليلة من المدنيين. واختير ثيبوت مقدّماً لجماعة الدّاوية في صيدا بدلاً من المقدم جيوم دي بوجيه، الذي سقط صريعاً في عكا. وبينما كان المماليك يهدمون عكا، كانت بعض قوات السلطان الأشرف خليل بقيادة الأمير علم الدين سنجر الشجاعي تسير نحو صيدا، وبوصول طلائع القوات المملوكية إلى صيدا، خرج الأهالي من المدينة وتحصنوا مع فرسان الدّاوية في قلعة البحر، ومن هناك ركب المقدم جودان سفينة حملته إلى قبرص، بعد أن وعد رفاقه والأهالي بأنه ذاهب ليأتي بالإمدادات لتعينهم على الصمود[1].

ثم بدأ المماليك يقيمون جسراً بين البّر والقلعة للوصول إليها، وعندما يئس المدافعون عن القلعة من الداوية والأهالي من وصول الإمدادات بعد طول أنتظار، ركبوا في ليلة حالكة الظلام سفنهم الى قبرص، وعلى أثر ذلك إستولى المماليك على مدينة صيدا، وعلى قلعتها البحرية المهجورة في 15 رجب سنة 690هـ/ 1291م، ودمّروا تحصيناتها[2].

وفي ذلك يقول المقريزي: «وكان الأمير سنجر الشجاعي نائب الشام قد سار في رابع رجب إلى صيدا، وحاصر البرج حتى فتحه في 15، وعاد إلى دمشق يوم رحيل السلطان منها»[3].

وبعد سقوط هذه المدن الساحلية بيد المماليك، أمر السلطان الأشرف خليل بهدمها جميعاً فهدّمت[4]. وذلك خوفاً من عودة الصليبيين الذين فرّوا إلى جزيرتي قبرص ورودوس، إليها من جديد. وقد وكل السلطان الأشرف خليل حراسة الساحل، من زاوية طرابلس حتى صيدا إلى بعض عشائر التركمان

(1) Grousset, R., Histoire des Croisades, T., III, p. 762.

(2) Deschamps, P., Les châteaux des Croisés en Terre Sainte I, Le Crac des Chevaliers, Paris, 1934, p. 227.

(3) المقريزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 765 ـ 766.

(4) أبو الفداء، المختصر، ج 7، ص 32.

والمسلمين، تحوطاً من عودة الإفرنج إلى هذه الجهة. وأصبحت صيدا في العهد المملوكي ولاية جليلة، يتولاّها أمير طبلخانة أحياناً وأمير عشرة أحياناً أخرى، وكان بقلعتها بحرية وخيالة وكشّافة وطوائف من المستخدمين[1].

وكانت ولاية صيدا من أعمال نيابة دمشق، شأنها في ذلك شأن مدينة بيروت، وكانت ولاية صيدا تضم أعمالاً واسعة[2]. وقد أشار أبن شاهين الظاهري إلى أهمية صيدا في عصره، حيث ذكرها بقوله: «إنّ مدينة صيدا ميناء دمشق، وهي مدينة لطيفة على شاطيء البحر المحيط، ترد إليها المراكب، ولها إقليم واسع به ما ينوف على مائتي قرية، وهي أيضاً من معاملة دمشق»[3].

وكان والي صيدا يتولى منصبه بموجب مرسوم موقع من نائب السلطنة في دمشق. ولم يصلنا من أسماء ولاة صيدا في العهد المملوكي إلاّ عدداً ضئيلاً، جاء ذكرهم عرضاً في صفحات المصادر، مع العلم بأنّ معظم ولاة صيدا كانوا من أمراء الغرب من بني بحتر التنوخيين، وكانوا يجمعون عادة بين ولاية بيروت وصيدا.

وقد تأثر الوضع الإقتصادي في صيدا بالنكسات العمرانية، التي كانت تصيبها من جرّاء تناوب قوات المسلمين والصليبيين على حكمها، وفي كل مرة كانت أسوار المدينة ومنشآتها تتعرض للتخريب والتدمير، الأمر الذي أثّر على الوضع الإقتصادي في المدينة، ولم يكن هذا الإنحطاط الإقتصادي والتدمير العمراني من نصيب مدينة صيدا فقط. فقد أقدم المماليك على تدمير كلّ المدن الساحلية ذات المرافئ الهامّة في هذا العهد[4]. حيث كانوا يعمدون إلى ردم الموانئ وتخريبها، وذلك لمنع سفن الأعداء من دخولها، إذ كانوا يخشون من عودة الإفرنج، الذين جلوا إلى قبرص ورسوا فيها، من جديد.

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 202

(2) Demombynes, La Syrie a l'époque des Mamelouks, Paris, 1932, p. 183.

(3) أبن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص 48.

(4) إبن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 320 ـ 321.

إنّ نجاح السلطان الأشرف خليل في طرد الفرنجة من أراضي الشام، لم يؤدِ إلى وقف الصراع الحربي بين المسلمين والصليبيين، بل كان ذلك من العوامل التي أدّت إلى إزدياد ذلك الصراع، وزادت من حدّته. حيث حاول الصليبيون بشتى الوسائل إسترداد ما فقدوه، وكانت جزيرة قبرص وجزيرة رودس وجزيرة إرواد منطلقاً رئيساً لغزواتهم، كما كانت السفن الإيطالية والجنوية وغيرها، تغير من وقت إلى آخر على الموانئ اللبنانية[1].

وعلى الرغم من نجاح الأمير سيف الدين كهرداش الزراق المنصوري، في احتلال جزيرة إرواد في سنة 702هـ/ 1302م[2]. فإنّ ذلك لم يمنع استمرار الغزوات على السواحل الشامية، فقد ظلّ فرسان الإسبتارية الذين انتقلوا إلى جزيرة قبرص المقابلة لهذه السواحل، يهدّدون هذه السواحل بغاراتهم المتواصلة. وكانت هذه الغارات أشبه بغارات القراصنة، القصد منها السلب والنهب وإختطاف الأهالي بغية المطالبة بفدياتهم[3].

ففي نفس السنة التي فتح فيها المماليك جزيرة إرواد، نزل جماعة من صليبيي قبرص على نهر الدامور، فإشتبك معها الأمير فخر الدين عبد الحميد بن جمال الدين التنوخي، وأخوه الأمير شمس الدين عبد الله مع عسكر المسلمين، في معركة إنتهت بتغلّب الفرنج، وسقط الأمير فخر الدين صريعاً، في حين وقع أخوه شمس الدين أسيراً في أيدي القبارصة، فإستبقوه خمسة أيام، ثم إفتداه الأمير ناصر الدين الحسين أبن خضر متولّي الغرب، بمبلغ من المال قدره ثلاثة آلاف دينار صورية[4].

(1) أبن تغري بردي، مصدر سابق، ج 8، ص 156.

(2) أبن ايبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، المعهد الالماني للآثار، القاهرة، 1960م، ج 9، ص 40.

(3) عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، جامعة بيروت العربية، بيروت، 1970، ص 169.

(4) الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص 160.

ويذكر صالح بن يحي: «أنه في العشر الأخير من جمادي الأول جاز على بيروت تعميرة للفرنج، ولم يتعرّضوا لها، وتوجهوا إلى صيدا فأخذوها وقتلوا منها جماعة وأسروا جماعة، ونهبوا منها شيئاً كثيراً، وكذلك المسلمين قتلوا من الفرنج جماعة وبعثوا برؤوسهم إلى دمشق وعلقوا على القلعة، فكانت بضع وثلاثين رأساً، وحضر إلى صيدا الأمير شهاب الدين إبن صبح نائب صفد وسبق العسكر الشامي، ولحق التعميرة على جزيرة صيدا بعد فوات الآمر فأشترى الأسرى جميعهم كل نفر بخمسمائة درهم وأخذ من ديوان الأسرى ثلاثين ألف درهم»[1].

وفي سنة 785هـ/ 1383م، دخل الفرنج صيدا فنهبوها، وأخذوا ما وجدوا من زيت وصابون وأحرقوا السوق[2].

كذلك يقول صالح بن يحي: «وفي سنة ست وثمانمائة في العشرين من محرم حضرت تعميرة لبيروت، وفي تلك الليلة توجهوا إلى صيدا وتوجهنا قبالتهم في البّر، فلما قربوا من صيدا على مسافة دون ميل من البلد نزلوا إلى البّر، وكان قد إجتمع على صيدا العشران وغيرهم ولم تجسر الفرنج على الدخول إلى البلد، وكان ملك الأمراء شيخ الخاصكي الملقّب في سلطته بالملك المؤيد، قد خرج من دمشق يدور في البقاع وبعلبك، فبلغه نزول الفرنج على طرابلس فتوجه إليهم فلم يلحق الفرنج، فحضر إلى بيروت بعد فوات الأمر فلم يلبث ببيروت، ووصل إلى صيدا بجماعة قلائل، والناس يلحقونه تباعاً، فأدرك الفرنج في البّر بظاهر صيدا وهجم عليهم ونحن معه حتى كاد يختلط بهم، ورموا علينا بالجروخ، وأنجرح فرس الخاصكي في موضعين، وجرح بعض جماعة من المسلمين، فرجعوا عنهم، ثم طلع الفرنج إلى مراكبهم، وتأخـرت عن الشط إلى الجزيرة بميناء صيدا، وبات ملك الأمراء والمسلمون قبالتهم.

ورسم ملك الأمراء على أمراء الغرب، أن يكونوا حرّاساً على شاطئ

(1) صالح بن يحي، مصدر سابق، ص 51.

(2) المقريزي، الخطط، ج 2، ص 158.

البحر بالقرب منه، فأصبح المسلمون والفرنج على الجزيرة، وملك الأمراء يظنّ أنهم ينزلون ثانياً، وتهيّأ لحربهم، وأحضر أبواباً كثيرة تكون عوضاً عن الزحافات والستائر للزحف عليهم، عند نزولهم فلم ينـزلوا. ثم بعد ذلك اليوم توجهوا راجعين إلى جهة بيروت، قاصدين نهر الكلب»[1].

ولم تسترح السواحل اللبنانية من هذه الهجمات، إلاّ بعد أن أحتلّ المماليك جزيرة قبرص سنة 828هـ/ 1425م[2].

لقد ساهمت هذه الحروب المتواصلة، في اضمحلال صيدا عمرانياً واقتصادياً، وكان وصف الإدريسي[3] لها سنة 548هـ/ 1154م، آخر وصف لها يعبّر عن عظمتها، إذ أنّ ما وصفها به الرحالة في الفترات اللاحقة، كان يعبر عن طبيعة هذا الإضمحلال الذي شملها، كما شمل غيرها من مدن الساحل، في الوقت الذي برزت فيه بيروت كميناء رئيس لبلاد الشام[4].

وقد وصفها أبو الفداء في سنة 721هـ/ 1321م، بقوله: «تقع على شاطئ البحر وهي مدينة صغيرة حصينة»[5].

أمّا أبن بطوطة فوصفها بقوله: «وهي على ساحل البحر حسنة كثيرة الفواكه، يحمل منها التين والزبيب والزيت إلى مصر»[6].

وذكرها القلقشندي بقوله: «إنها مدينة تقع على ساحل بحر الرّوم ومزوّدة بقلعة منيعة لا ترام»[7].

(1) صالح بن يحي، مصدر سابق، ص 56 ـ 57.

(2) محمد علي مكي، مرجع سابق، ص 233.

(3) يصف الادريسي صيدا بقوله: «وأما مدينة صيدا فهي على ساحل البحر الملح، وعليها سور حجارة ينسب إلى إمرأة في الجاهلية. وهي مدينة كبيرة عامرة الأسواق رخيصة الاسعار، محدقة بالبساتين والأشجار، غزيرة المياه، واسعة الكور، لها أربعة اقاليم، وهي متصلة بجبل لبنان». ـ الادريسي، نزهة المشتاق في إختراق الافاق، ص 15 .

(4) منير خوري، صيدا عبر حقب التاريخ، المكتب التجاري للطباعة، بيروت، 1966، ص185.

(5) أبو الفداء، المختصر، ج 4، ص 25.

(6) أبن بطوطه، تحفة النظار، ص 62.

(7) القلقشندي، مصدر سابق، ج 4، ص 111.

أما جون بولونر الذي زار الأراضي المقدسة سنة 1421م فيقول : «إنّ صيدا هي مدينة فينيقية تشهد خرائبها في الوقت الحاضر بعظمتها، وخارج أطلالها بنيت مدينة أخرى صغيرة ولكنها حصينة»[1]. وبالرّغم من كلّ هذه الأحوال، فقد لعبت صيدا دور الوسيط التجاري بين الشام ومصر، فكانت تقوم بتصدير منتجات المدن السورية الداخلية، التي كانت ترد إليها من مختلف المناطق. فمن مدينة دمشق نفسها، كانت ترد إليها الأواني الخزفية والتحف الزجاجية والمعادن والحلى والماشية والشموع[2].

كذلك كانت مدينة صيدا من أهمّ مراكز نقل الثلج من دمشق إلى دمياط بحراً. وبقيت صيدا مركزاً رئيساً لنقل الثلوج إلى مصر إلى أيام السلطان الظاهر برقوق. وفي عهده أستخدم الطريق البّري بدلاً من الطريق البحري، وأصبح الثلج يحمل من دمشق برّاً على الهجن، في الفترة ما بين حزيران وأواخر تشرين الثاني. ما يقرب من إحدى وسبعين نقلة، وكان يجّهز مع كلّ نقلة، بريدي بيده تذكرة وبرفقته ثلاّج خبير بحمل الثلج ومدارته[3].

وكان عدد السفن التي كانت تنقل الثلج في عهد السلطان الظاهر بيبرس ثلاثة سفن بالسنة، ثم إزداد عددها حتى بلغت إحدى عشر سفينة[4].

كذلك كانت صيدا مركزاً هاماً من مراكز بطائق الأبراج الخاصّة بالحمام في العصر المملوكي. وكانت أيضاً مركزاً بريدياً هاماً. فكانت تمتدّ من دمشق عدة طرق بريدية تصل إلى صفد وجزين وصيدا وبعلبك. أمّا طريق صيدا فكان ينتهي إلى بيروت، في حين كان طريق بعلبك يمرّ بالزبداني وبورا وينتهي ببعلبك[5].

---

(1) Frederick, Carl Eislen, Sidon, a study in Oriental history, New York, 1907, p.103.

(2) عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص 167.

(3) أبن شاهين الظاهري، مصدر سابق، ص 118.

(4) أبن فضل الله العمري، التعريف، ص 198.

(5) Demombynes, op. cit., p. 246.

أمّا الحياة الصناعية فقد تدهورت نتيجة لتدهور الحياة التجارية، وإقتصرت على صناعة الزجاج والخزف، وهما صناعتان تقليديتان أشتهرت بهما صيدا عبر العصور، إلاّ أنّ أهم صناعة أشتهرت بها صيدا في العصر الوسيط، هي صناعة المنسوجات الحريرية، مع أنّ جارتها صور قد فاقتها في ذلك. وكان الغرب يشتدّ في طلب هذه المنسوجات من صيدا وصور، حيث طغى أستعمالها في أبنية البرجوازية والمصليات الكنسية، وكانت الملونات الحريرية تغطي جدران المصليات، وإتخذت أعلاماً وأغطية للأسرة، أو شطفات تتدلّى على النوافذ في أيّام الإحتفالات والأعياد. ومع ذلك فقد كسدت هذه الصناعة لمدة قرن من الزمن نتيجة لهجوم المغول على صيدا، وتخريب قلاوون لمدينة طرابلس، وتدمير الأشرف خليل لكلّ من صيدا وصور[1].

وقد بقيت مدينة صيدا وبالرغم من القيام بتجديد وبناء حصونها وأسوارها، مدينة قليلة الأهمية، ولم تنتعش وتتألّف مجدّداً، إلاّ عندما أتخذها الأمير فخر الدين المعني الثاني قاعدة لإمارته[2].

ـ المعالم الأثرية الدينية المملوكية في مدينة صيدا :

إنّ مدينة صيدا غنية بجوامعها. ويؤخذ من المؤلفّات القديمة أنه فيها تسعة جوامع، ولكن لا يعرف فيها في الوقت الحاضر سوى: الجامع الكبير وجامع البحر وجامع البطاح وجامع كتخدا وجامع المصلية وجامع المجذوب[3].

إلاّ أنّ ألطفها بنياناً وأعظمها إتقاناً وأحسنها موضعاً وأتمها موقعاً، الجامع الكبير العتيق[4].

---

(1) Maurice Chehab, Rôle du Liban dans l'histoire de la soie, Beyrouth, 1969, p.p., 22-26.

(2) بطرس البستاني، دائرة المعارف، ج 11، ص76.

(3) محمد بهجت بك، ولاية بيروت، مطبعة الولاية، 1933، ج 1، ص 301.

(4) محمد القاياتي، نفحة الشام في رحلة الشام، بيروت، 1981م، ص 64.

صورة رقم (20)
الجامع الكبير، الواجهة الغربية.



تصوير خاص بالباحث

1 ـ الجامع العمري الكبير:

وهو أعظم مسجد في صيدا، بديع الطّراز جميل الزخرفة متسع الباحات. يقال بأنه كان كنيسة فحوّل زمن الفتوحات الإسلامية إلى مسجد. وقد وصفه السائح كيران[1] عند زيارته إلى صيدا سنة 1852م. بقوله: «والجامع الكبير كان كنيسة بإسم مار يوحنا المعمدان، وقد أصلح منذ سنوات وهو مستند على ركائز قوية طولها ثلاثين متراً وعرضها عشرة أمتار، ويدخل إليه من جهة الشمال برواق تزينة قبة وتعلوه منارة ويوجد داخل هذا الرواق بركة للوضوء تزينها أعمدة قديمة مغطاة رؤوسها بقطع من الكلس»[2].

(1) كيران (Kyran): هو سائح فرنسي مر في لبنان أثناء ذهابه إلى بيت المقدس، ودون ما شاهده في طريقه.

(2) أحمد عارف الزين، تاريخ صيدا، مطبعة العرفان، صيدا، 1913، ص 108.

يقع هذا الجامع على ربوة مرتفعة بعض الشيء، تطلّ على البحر من جهة الغرب. ويحدّه شمالاً مدرسة المقاصد الخيرية الإسلامية بالقرب من الحمام المعروف بإسم حمّام الورد. وهو أوسع مساجد المدينة على الإطلاق، جميل الهندسة، متين الدعائم، بناه فرسان القديس يوحنا في أواسط القرن الثالث عشر للميلاد ليكون كنيسة تحمل إسم شفيعهم. ثم حوّله المماليك مسجداً بعد استعادتهم صيدا في مطلع القرن الرابع عشر للميلاد. ولا يزال شكله الحالي يدلّ على جمال بنائه، وتظهر من ركائزه القوية المتعدّدة على جوانبه متانة البناء، كما تكشف طريقة هندسة نوافذه وأبوابه وجدرانه طرازه الصليبي[1].

وقد أذن بارونات صيدا في سنة 1260م، لمنظمة فرسان القديس يوحنا الإسبتارية في بيت المقدس، أن يقيموا بيتاً للإسبتارية على الصخور المطلّة على الجانب الغربي لمدينة صيدا. وكان هذا البيت بعد بنائه أشبه بقلعة حربية لها كنيستها الخاصة[2].

والجامع العمري في صيدا يشغل قسماً من الكنيسة المستطيلة التي بناها الإسبتارية في القرن الثالث عشر للميلاد[3]. وبينما تجمع المصادر الغربية والمراجع المحلّية على أنّ بناء الجامع العمري يعود إلى العهد الصليبي والى سنة 1260م تحديداً، وأنه كان كنيسة لفرسان الإسبتارية.

إلاّ أنّ عبد الرحمن حجازي، قد عارض ذلك الرأي في الكتيب الذي وضعه بعنوان (معالم صيدا الإسلامية)، وقد علّل معارضته بما يلي:

أ ـ إنه من غير الممكن أن يقوم فرسان الإسبتارية ببناء كنيستهم في سنة 1260م، وذلك لأنّ المقريزي قد ذكر: «بأنّ المسلمين إنتزعوا صيدا من الفرنج سنة 647هـ/ 1250م، بعد حصار وقتال، وتولاها صاحب حلب ودمشق سعد الدين بن نزار من قبل الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي».

(1) منير خوري، مرجع سابق، ص 406 ـ 407.

(2) Bruce condé, see Lebanon, Beyrouth, 1962, p. 239.

(3) فيليب حتي، لبنان في التاريخ، ص 382.

ب ـ العودة إلى الدراسة التي وضعها صالح مصطفى لمعي، أستاذ التراث والحضارة الإسلامية، في كلية الهندسة ـ جامعة بيروت العربية ـ وتوصّل إلى النتيجة التالية: «أمّا القول بأن حرم الجامع هو مبنى الكنيسة السابق، فلا يمكن تأييده وذلك لأختلاف مسقط الصالة الرئيسة عن كنائس فترة العمارة القوطية المبكرة، وكذلك عن عمارة عصر الرومانسك المتأخر، سواء في المسقط الإشعاعي أو المتدرّج، إضافة إلى عدم وجود حنية المذبح أو تحديد مكان الخورس».

ج ـ بسؤال الأب هاني فرنسيس، راعي كنيسة المية ومية للروم الكاثوليك ـ بالنسبة إلى مخطط بناء الكنائس، فأكد بأن حائط الكنائس الشرقي يكون مغلقاً دون نوافذ، وإذا وجدت فتكون داخلية وبشكل مستطيل، وذلك لتوضع عليها التماثيل وصور القدّيسين. بينما نجد في أعلى الحائط الشرقي من حرم المسجد نافذة دائرية الشكل.

ويضيف عبد الرحمن حجازي بقوله[1]:

«إنّ الجامع العمري كان قائماً قبل دخول الصليبيين إلى صيدا، وقد ذكره الرّحالة ناصر خسرو عند زيارته للمدينة سنة 437هـ/1047م، أي قبل بدء الحروب الصليبية بحوالي نصف قرن. بقوله: «وبها مسجد رائع تقام فيه صلاة الجمعة بخشوع تامّ وروح عالية، وقد فرش الجامع كلّه بالحصير المنقوش»[2].

ويتوصل في نهاية تعليله، بأنّ المسجد العمري الكبير، كان في الأصل معبداً كنعانياً بني لعبادة إله الشمس، الذي كانت عبادته رائجة في ذلك العهد، خاصة في عهد النبي سليمان، حيث جاء في سورة النمل من القرآن الكريم: ﴿بأنّ الهدهد أخبر سليمان أنّ بلقيس وقومها يعبدون الشمس﴾[3].

---

(1) عبد الرحمن حجازي، دليل معالم صيدا الإسلامية، المركز الثقافي الإسلامي، صيدا ـ لبنان، 1983، ص 17.

(2) ناصر خسرو، سفر نامه، ص 20.

(3) عبد الرحمن حجازي، مرجع نفسه، ص 18.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1].

وكان كلّ فاتح لمدينة صيدا يحول ذلك المعبد الكنعاني إلى مكان للعبادة يوافق معتقده، بعد أن يجري عليه الإضافات اللازمة لذلك.

ـ وصف المسجد:

للمسجد العمري مدخلان، الأول في الجهة الشرقية ينفذ إليه من خلال ممر متصل بشارع ضهر المير، أمّا المدخل الثاني فيقع في الواجهة الشمالية، ويؤدي إلى ساحة يطلق عليها إسم حارة الجامع.

وقد أقيم المبنى بطريقة الحوائط الحاملة، وهي من الحجر الرّملي، ومونة مكونة من الكلس والرمل، ويوجد في بعض الأماكن مظاهر لإستعمال الكلس والطّين ورماد الأفران، وذلك في بعض أجزاء المبنى التي أقيمت في العصر العثماني[2].

وتستعمل هذه المونة في الأماكن الرطبة لعزل المياه. ويعتمد النظام الإنشائي على التغطية بالقبوات المتقاطعة والمحمولة في حرم الجامع عن طريق دعائم بارزة في الواجهات، ثم تقويتها بالجزء العلوي بشطب مائل معقود من أسفل في محاولة لإستقبال الدفع الأفقي الناتج من القبو وزيادة القوى الرأسية لمعادلة القوى الأفقية.

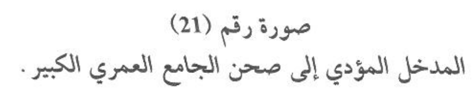
ويلاحظ المحاولة المعمارية الناجحة في تشكيل الإنتقال بين السطح الرأسي للحائط، والأفقي للجزء البارز من الدعامة في الجانبين عن طريق القوصرة ذات الشكل المخروطي، بهدف إنتقال ناعم يلطف من عنف الخطوط الحادّة بالحجارة. أمّا التسقيف في الصحن، فقد أعتمد على القبوات المتقاطعة بشكل عام.

---

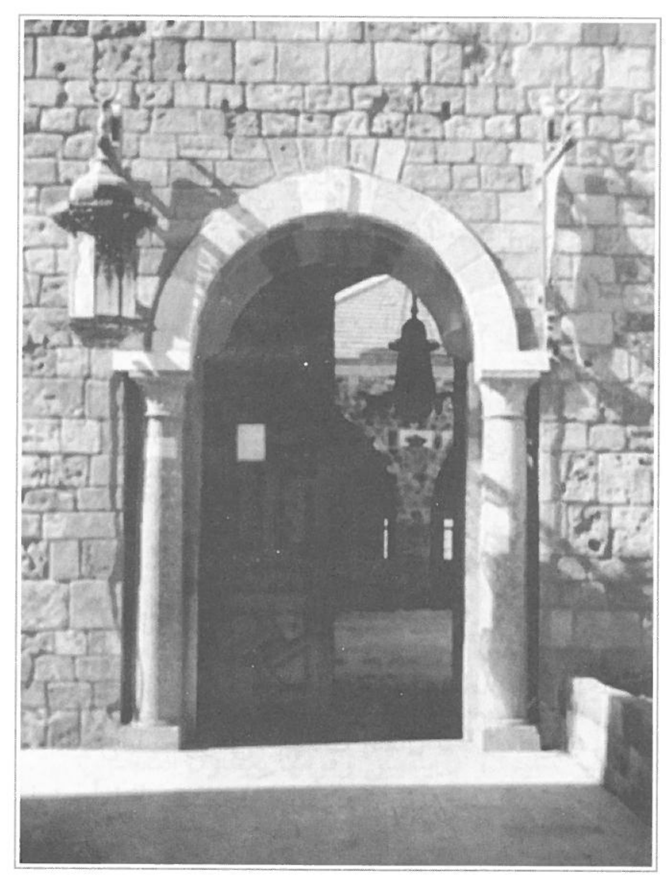
(1) القرآن الكريم، سورة النمل، آية، 24.

(2) محمد القاياتي، مرجع سابق، ص 64.

أمّا في الرواق الجنوبي المطلّ على الصحن، فقد أعتمد على القباب المحمولة على عقود مدببة بمركزين، والتي تستند على دعامات مستطيلة أو مربعة. وتعود الإختلافات في شكل العقود والدّعامات إلى الإصلاحات المتكرّرة التي أجريت في الجامع خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين بشكل خاص[1].



صورة رقم (21)
المدخل المؤدي إلى صحن الجامع العمري الكبير.



تصوير خاص بالباحث

(1) غسان الزعتري، عودة المسجد العمري الكبير في صيدا، صيدا، 1986، ص 52.

وقد أضيف للمبنى سطح من الخرسانة المسلّحة أعلى السطح العلوي، بهدف حماية المبنى من الرطوبة الناتجة عن مياه الأمطار، إلاّ أنّ هذا العمل أضرّ بالمبنى أكثر مما أفاده، حيث أضيف إلى المبنى تكوين صلب وثقيل، لا يتوافق مع الإنشاء المرن الذي شاع في العمارة الأصليّة، ليتلاءم مع طبيعة الأساسات في تلك الحقبة الزمنية، وكذلك مع نوع الحجارة والمونة المستعملة في هيكل المبنى.

صورة رقم (22)
النقش الذي يؤرخ لإنتهاء الحكم الصليبي

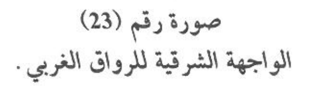


تصوير خاص بالباحث

وقد إستخدمت أحزمة من الحديد، في الجسم المستدير للمئذنة، حيث تعرّضت للصدأ، مما نتج عنه شروخ وإنفصال في الحجارة[1]. ندخل إلى المسجد عبر رواق طويل مكشوف، يبلغ طوله حوالي 50 متراً تقريباً، أرضه رخامية مزخرفة بنقوش جميلة، وعلى جانبيه وضعت مصابيح صغيرة لإنارة مدخل المسجد، وفي نهاية هذا الرواق يوجد الباب المؤدي إلى القسم الداخلي للمسجد.

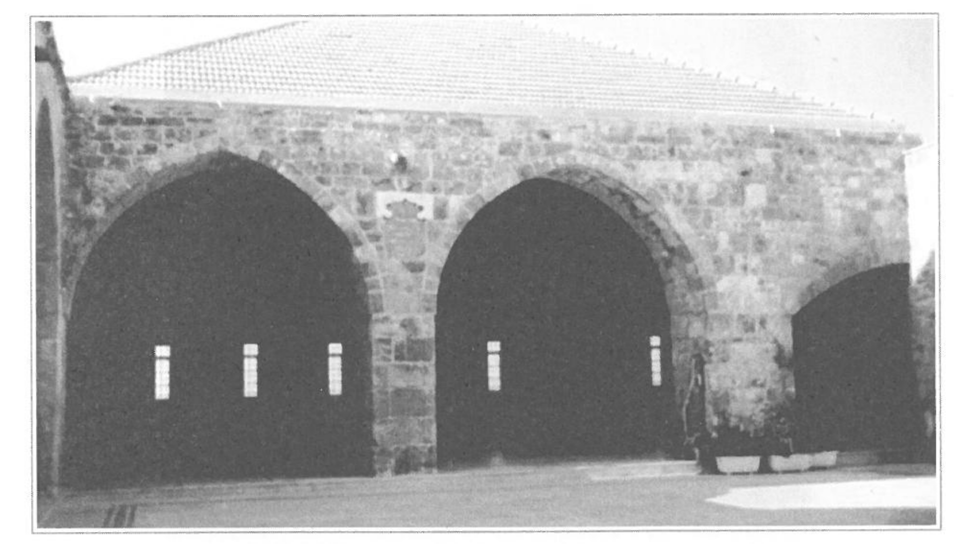
يحيط بصحن المسجد أربعة أروقة، غربي وشرقي وشمالي وجنوبي. وفي الواجهة الشرقية للرّواق الغربي، وضعت لوحة تؤرّخ لإنتهاء الحكم الصليـبي للمدينة.

يعلو هذا الرواق قرميد أحمر اللون، وفي نهايته سلم يؤدي إلى الميضأة.



صورة رقم (23)

الواجهة الشرقية للرواق الغربي.



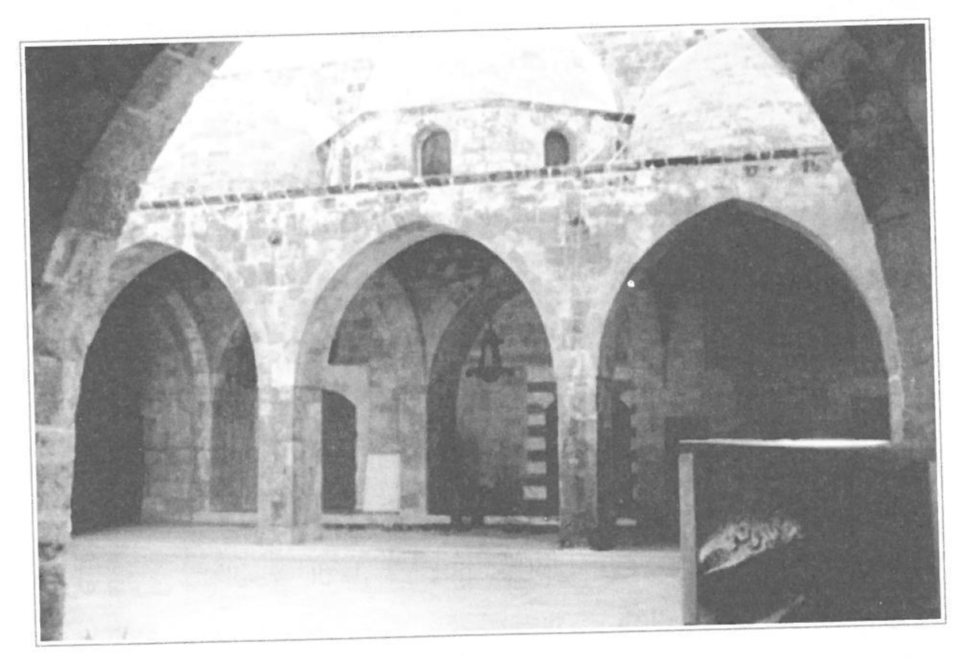
تصوير خاص بالباحث

(1) غسان الزعتري، مرجع سابق، ص 53.

أمّا الرّواق الجنوبي فتعلوه ثلاث قباب حجرية، محمولة على أقواس تستند على أعمدة حجرية. وترتفع القبة الوسطى بمثمّن ذي فتحات، وتعلو هذه القباب تيجان بيضاء اللون. وفي هذا الرّواق ثلاثة مداخل تفضي إلى حرم المسجد، وكذلك مدخلان يؤدي أحدهما عبر سلّم حجري إلى السدّة الخشبيّة داخل الحرم، والثاني عبر سلّم حجري دائري إلى أعلى المئذنة. يبلغ طول حرم المسجد حوالي ثلاثون متراً، وعلوه حوالي عشرة أمتار، وعرضه حوالي الثمانية أمتار، ينتصب في وسطه منبر رخامي ذو زخرفة جميلة، كما أنّ سماكة جدرانه التي تزيد على المتر تقريباً. والمؤلّفة من الحجارة الرملية الضخمة.

صورة رقم (24)

الرواق الجنوبي وتعلوه القباب الثلاثة.



تصوير خاص بالباحث

صورة رقم (25)

قبة الرواق الجنوبي الوسطى من الداخل، حيث نجد فيها الفتحات المعقودة.



تصوير خاص بالباحث

تتألف أرضية الحرم من الرخام المزين بالزخارف الجميلة، وقد صنع المنبر من الرخام، ووضع في وسط الحرم والى جانبيه محرابان. وتتضمّن جدران الحرم نوافذ خشبية عثمانية الشكل، وفي أعلى الجدران نوافذ وضعت فيها قمريات من الزجاج الملوّن ذات أشكال وزخارف تعكس بألوان بديعة الضوء إلى داخل المسجد. ويتوسط الحرم سدّة خشبية مثبتة في وسط الجدار الشمالي للحرم.

أما مئذنة المسجد فهي تتألف من أربعة أقسام فوق سطح الحرم. القسم الأول دائري من الحجر الرملي، أمّا القسم الثاني فهو على شكل تاج من الحجر الأبيض تتشكل في أعلاه شرفة المئذنة، أمّا القسم الثالث فدائري الشكل أيضاً، وإنما أقل عرضاً من القسم السفلي، ويعلوه قسم مخروطي من الحجر الرملي ينتهي في أعلاه بتاج رخاميّ أبيض اللون.

صورة رقم (26)

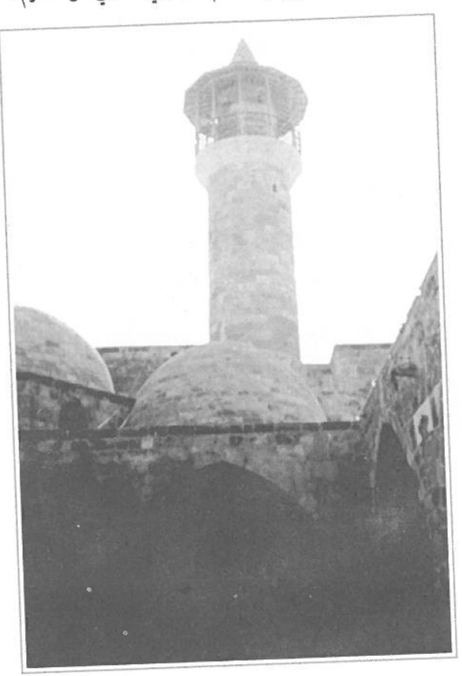
محراب الجامع العمري.



تصوير خاص بالباحث

صورة رقم (27)

مئذنة المسجد وتقع في القسم الجنوبي الغربي من الحرم.

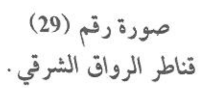


تصوير خاص بالباحث

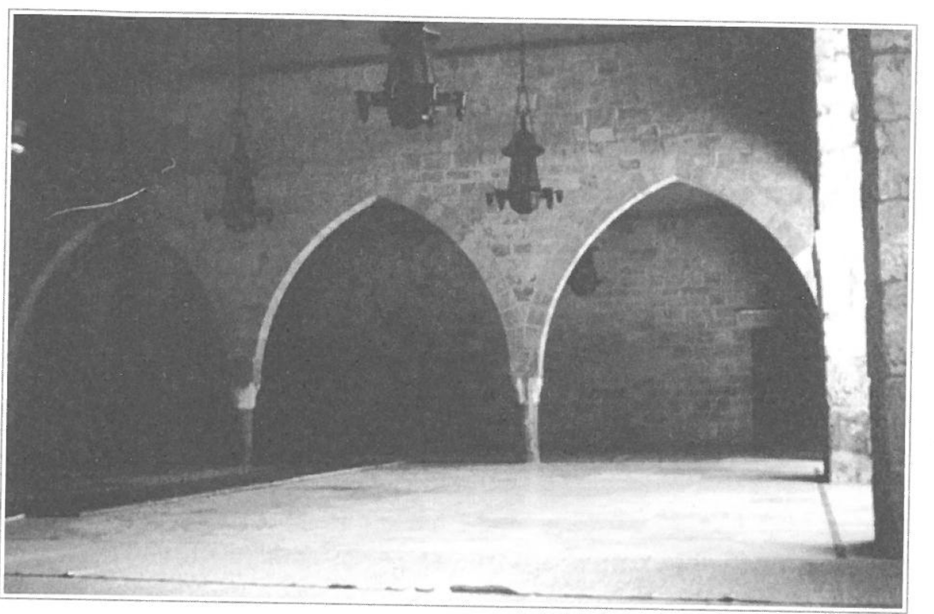
صورة رقم (28)



تصوير خاص بالباحث



صورة رقم (29)
قناطر الرواق الشرقي.



تصوير خاص بالباحث

أن سماكة جدرانه التي تزيد عن المتر تقريباً، تجعله بارداً في الصيف ودافئاً في الشتاء، كما أنّ إختلاف أحجام الحجارة في البناء تدلّ على أنّ التغييرات والزيادات التي طرأت على المسجد، متعدّدة، وترجع إلى عصور مختلفة. وقد أضيفت على المسجد توسيعات جعلته من أكبر مساجد لبنان، كما أنه من أجملها وأبدعها.

ويضمّ المسجد في أروقته وداخل حرمه وعلى أبواب مداخله، لوحات تؤرخ للمراحل المختلفة التي أعيد فيها ترميم الجامع عبر حقب التاريخ المختلفة.

أمّا أقدم لوحة، فهي التي تؤرّخ لتحرير صيدا من الصليبيين، زمن صلاح الدين الأيوبي، حيث تم إعادة هذا المبنى مسجداً. وقد تضمنت تلك اللوحة الرخامية نقش نص على ما يلي:

«لا إله الأحد القهار»، وتحت هذا السطر الآية التالية: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

وهذا النقش تم وضعه فوق عقد حجري، في وسط الرواق الغربي. وفي داخل الحرم توجد لوحتان رخاميتان، نقش على الأولى أسم الجلالة (الله) وهي فوق المحراب على يمين المنبر، ونقش على الثانية، الآية القرآنية التالية: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾. وهي موجودة فوق المحراب على يسار المنبر.

أمّا اللوحات الباقية فهي تؤرّخ لمختلف المراحل التي تم فيها ترميم المسجد، بالإضافة إلى الإصلاحات والتوسعات عبر حقب التاريخ المختلفة.

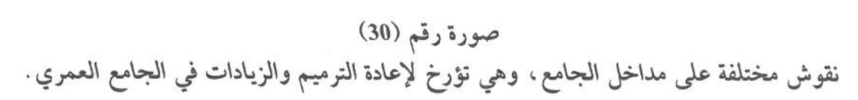
وقد تعرّض المسجد في العصور الحديثة إلى عدة عمليات ترميم وتوسيعات، منها:

1 ـ في عهد السلطان عبد المجيد خان الذي أجرى عام 1251هـ/ 1835م، بعض الترميمات والتوسعات على بهو الجامع، بعد أن تعرّض الجامع لبعض الأضرار من جراء الأنواء البحرية الشديدة.

2 ـ وفي عهد السلطان عبد العزيز، جرت إصلاحات أقامتها خوشيار هانم والدة خديوي مصر إسماعيل باشا، وذلك في عام 1255هـ/ 1839م.

3 ـ وفي عهد السلطان عبد الحميد خان عام 1278هـ/ 1861م، وبعد أن طغى البحر على القسم الغربي من الجامع، مما تسبّب في تصدع ذلك القسم، ولا تزال آثار ذلك التصدع ظاهرة في جدار الحرم، من خلال الفروقات في حجارة هذه الجدران.

4 ـ في حزيران من عام 1982م، تهدمت أجزاء كثيرة من المسجد من جراء القصف الإسرائيلي، وقد تولّت المؤسسة الإسلامية للتعليم العالي في صيدا، إعادة ترميم الجامع بالتعاون مع شركة أوجيه لبنان.



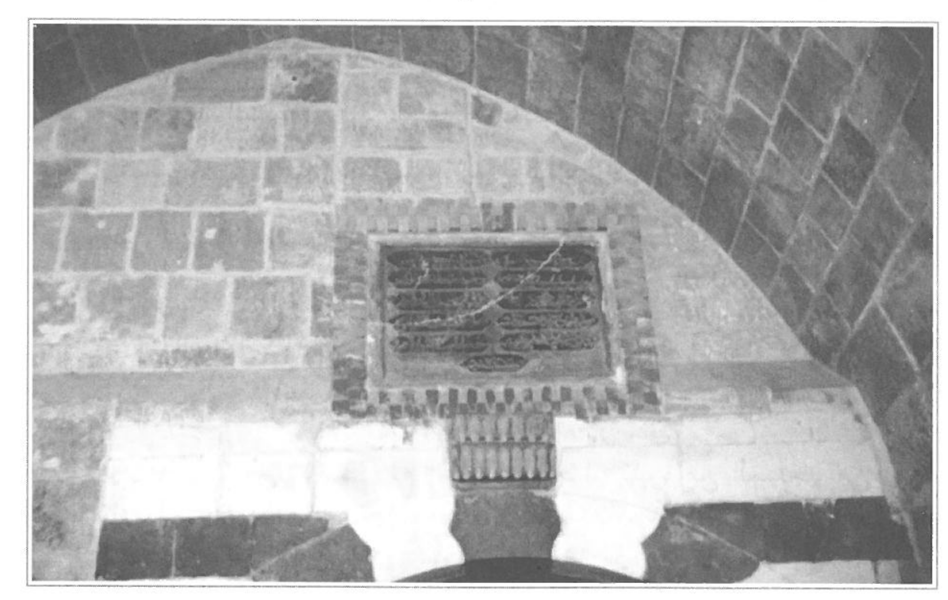
صورة رقم (30)

نقوش مختلفة على مداخل الجامع، وهي تؤرخ لإعادة الترميم والزيادات في الجامع العمري.



تصوير خاص بالباحث

صورة رقم (31)



تصوير خاص بالباحث

صورة رقم (32)

نقش قديم وآخر حديث.





تصوير خاص بالباحث

أمّا النقش الحديث، فهو يؤرخ لعملية الترميم الأخيرة في سنة 1986م، وذلك بعد التدمير الذي حلّ بالجامع العمري من جرّاء قصف الطائرات الإسرائيلية للجامع سنة1982م، مما تسبّب في تدمير معظم أجزاء المسجد.

2 ـ مسجد القلعة البحرية:

يقع هذا المسجد في القلعة البحرية لمدينة صيدا، في الناحية الجنوبية الشرقية من القلعة. وقد تم إنشاؤه بعد إعادة ترميم القلعة وتحصينها في العهد المملوكي، على يد الأمير جلبان الظاهري سنة 725هـ/ 1324م.

وقد أقيم هذا المسجد، لكي تتمكن حامية القلعة من تأدية شعائر الصلاة. وقد أجريت عليه ترميمات كثيرة، كان آخرها في العهد الأمير فخر الدين المعني، الذي أعاد ترميم القلعة وتحصينها[1].

صورة رقم (33)
مسجد القلعة البحرية

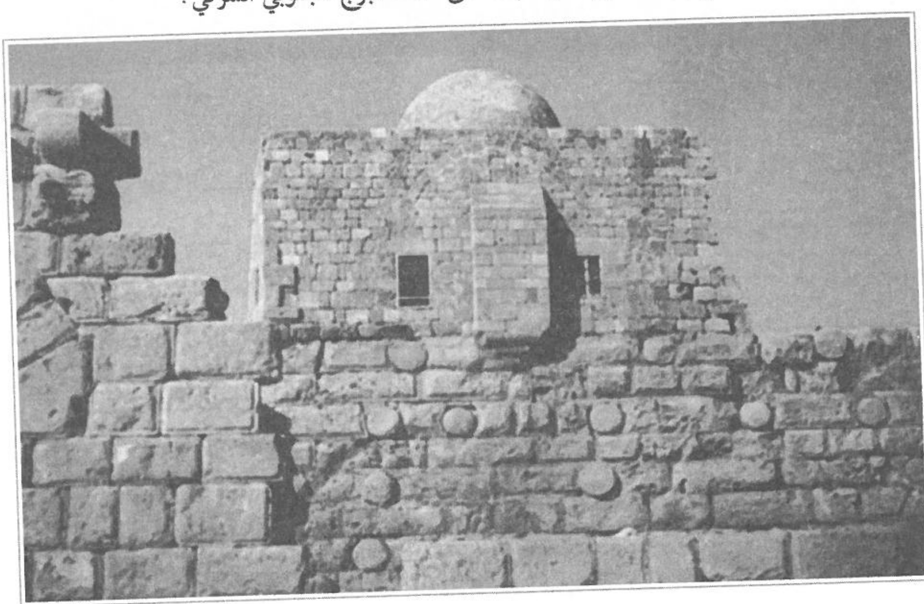


تصوير خاص بالباحث

(1) بطرس البستاني، «صيداء»، دائرة المعارف، ج 11، ص 76.

المسجد عبارة عن غرفة صغيرة مكعبة الشكل، تعلوها قبة صغيرة، يتصدر هذه الغرفة في وسط الواجهة الجنوبية، محراب ناتئ إلى الخارج. يعلو هذا المحراب عقد بيضاوي الشكل، يقابله عقد مماثل في الواجهة الشمالية، وهذان العقدان يشكلان الدّعامة التي ترتكز عليهما القبة. يحيط بالمنبر شباكان مستطيلان، يقابلهما شباكان مماثلان في الواجهة الشمالية. أمّا الباب الرئيس للمسجد فيقع في الواجهة الشمالية للمسجد، يعلوه عتب صخري، ويحيط به شباكان مستطيلان، يصعد إلى مدخل المسجد بدرج صخري مؤلف من ثلاث درجات، يعلو باب المدخل عقد بيضاوي الشكل.

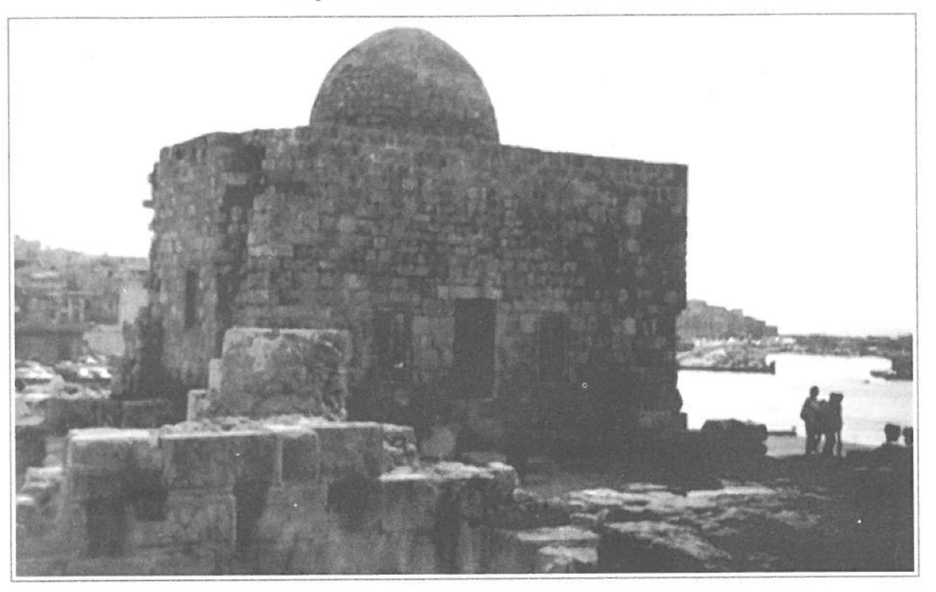
صورة رقم (34)
مسجد القلعة البحرية، ونشاهد القبة والمحراب الناتئ،
الذي يستند على لسان مثبت على حائط البرج الجنوبي الشرقي.



تصوير خاص بالباحث

يتوسط جدار الواجهة الغربية، شباك مستطيل الشكل، أصغر حجماً من الشباكين في كل من الواجهتين الجنوبية والشمالية، وعلى مستوى أكثر ارتفاعاً منهما.

صورة رقم (35)
الواجهة الشمالية لمسجد القلعة البحرية.



تصوير خاص بالباحث

يعلو هذا الشباك نصف عقد بيضاوي الشكل، وعلى زاوية هذا الجدار مع إلتقاء الجدار الشمالي، حيث المدخل الرئيس للمسجد، نجد إنخسافاً بشكل زاوية، تعلوه حافة، تم إكمال البناء عليها حتى سقف المسجد. أمّا في الواجهة الشرقية، فنجد كذلك شباكاً مستطيل الشكل، يقابل شباك الواجهة الغربية، وعلى نفس المستوى، يعلوه عقد نصفي بيضاوي الشكل.

3 ـ جامع الكيخيا:

عرف هذا المسجد بإسم جامع الكِتخدا بكسر الكاف، لكن صعوبة لفظ كلمة الكتخدا[1]، وكثرة تداول الإسم، حرفت الكلمة إلى الكيخيا، وأصبح المسجد يعرف بإسم جامع الكيخيا.

(1) الكِتخدا: وهو عبد الرحمن الكتخدا، أحد الامراء المماليك الذين كانوا برفقة الامير سنجر الشجاعي عند استيلائه على مدينة صيدا في 15 رجب سنة 690 هـ/ 1291م، وبقي فيها بعد عودة الامير سنجر إلى دمشق ـ المقريزي، السلوك، ج1، ص 765.



صورة رقم (36)
جامع الكتخدا

تصوير خاص بالباحث

لا يوجد داخل المسجد أي لوحة أو نقش يدلّ على زمن بنائه أو زمن الإنتهاء منه. ويقول الرحالة عبد الغني النابلسي: «وهو أصغر من الجامع العمري بيسير، ومنبره من رخام، وفيه بركة ماء معينة»[1].

أمّا أحمد عارف الزين فيقول في كتابه تاريخ صيدا: «سمّي هذا الجامع بإسم الذي بناه، وكان يقال له الكتخدا وبه عدّة غرف، يظهر أنها كانت مدارس لطلاب العلوم الدّينية»[2].

ـ أقسام المسجد:

يتألف هذا المسجد من ثلاث أقسام:

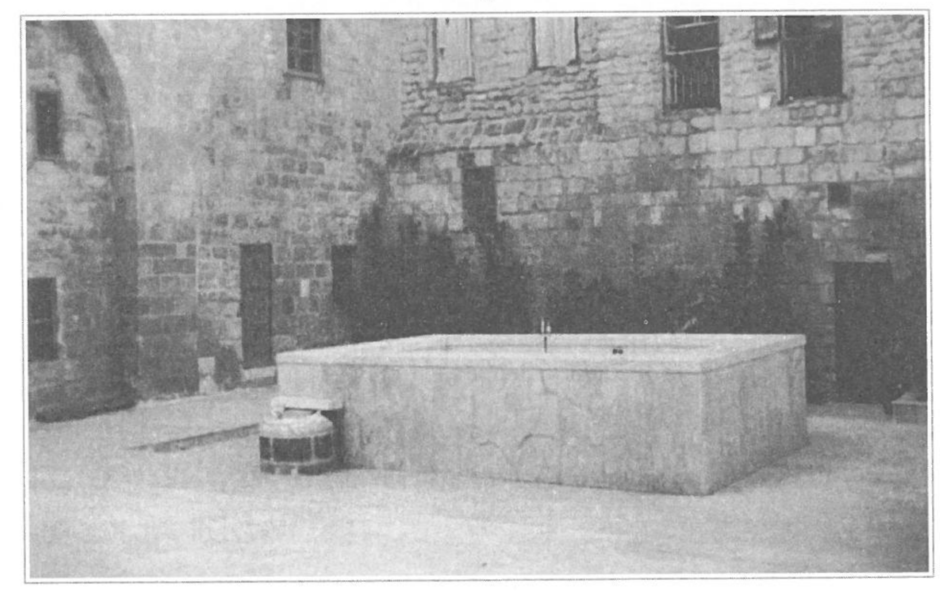
1 ـ الحرم ويمتاز بجماله الخلاّب، ويضفي عليه المنبر المصنوع من الرخام الأبيض النقي بريقاً وهّاجاً.

(1) عبد الغني النابلسي، مصدر سابق، ص 33.
(2) أحمد عارف الزين، مرجع سابق، ص 108.

2 ـ صحن المسجد، وهو ساحة كبيرة وواسعة مكشوفة انتصبت في وسطها بركة ماء كبيرة للوضوء.

3 ـ خمس غرف إلى الجهة الغربيّة من المسجد، وكانت هذه الغرف مخصصة لإستقبال الدراويش وعابري السبيل وطلاب العلم. ومن بين هذه الغرف، غرفة ذات قبة، عرفت بإسم الزاوية الشاذلية، وكانت تقام فيها حلقات الذّكْر[1].

صورة رقم (37)
بركة الوضوء في صحن المسجد.



تصوير خاص بالباحث

يقع المسجد إلى الشمال من مسجد قطيش، قرب مقهى القزاز، داخل صيدا القديمة. وقد قامت مديرية الآثار في سنة 1974م بإجراء ترميمات في هذا المسجد.

---

(1) عبد الرحمن حجازي، مرجع سابق، ص 27.

صورة رقم (38)
صحن المسجد ونشاهد فيه مدخل الحرم الرئيس، ومحراب صيفي في الجهة الجنوبية للصحن.

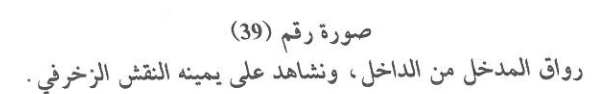


تصوير خاص بالباحث

ندخل إلى صحن المسجد من خلال درج حجري، مؤلف من ستة درجات، ينتهي بمصطبة صغيرة، أمام الباب الرئيس للصحن ثم نعبر من خلال رواق حجري معقود، يبلغ طوله ست أمتار تتخلّله بضع درجات وهو جميل الشكل، وعن يمين الداخل في وسط الرّواق، توجد أماكن الوضوء.

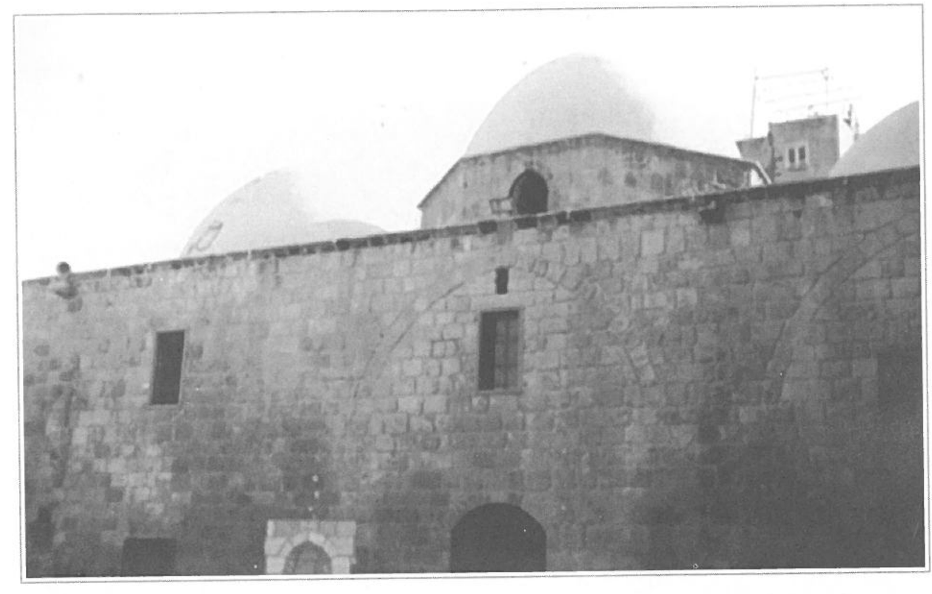
يزين هذا الرّواق من الداخل، وعن يمين العقد الأخير، برواز حجري مربع، نجد في داخله نقش لوردة جميلة الشكل، شاع استعملها في زخرفة الأبنية الدينية في العهد المملوكي.

أمّا الحرم فتعلوه ثلاث قباب حجريّة محمولة على أقواس تستند على أعمدة حجرية، وترتفع القبة الوسطى بمثمّن ذي فتحات، وتعلو هذه القباب تيجان بيضاء اللون.

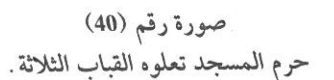


صورة رقم (39)

رواق المدخل من الداخل، ونشاهد على يمينه النقش الزخرفي.

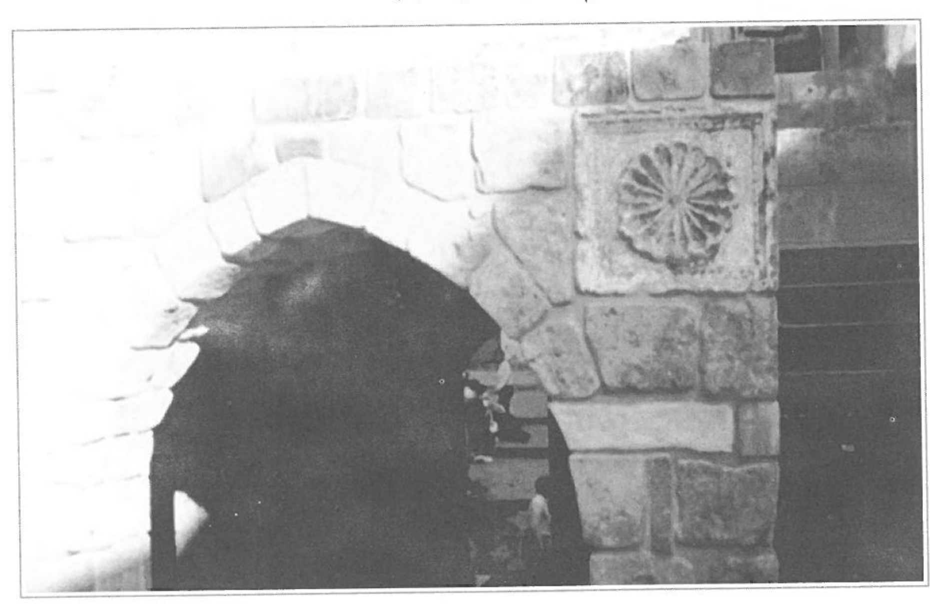


تصوير خاص بالباحث



صورة رقم (40)

حرم المسجد تعلوه القباب الثلاثة.





تصوير خاص بالباحث

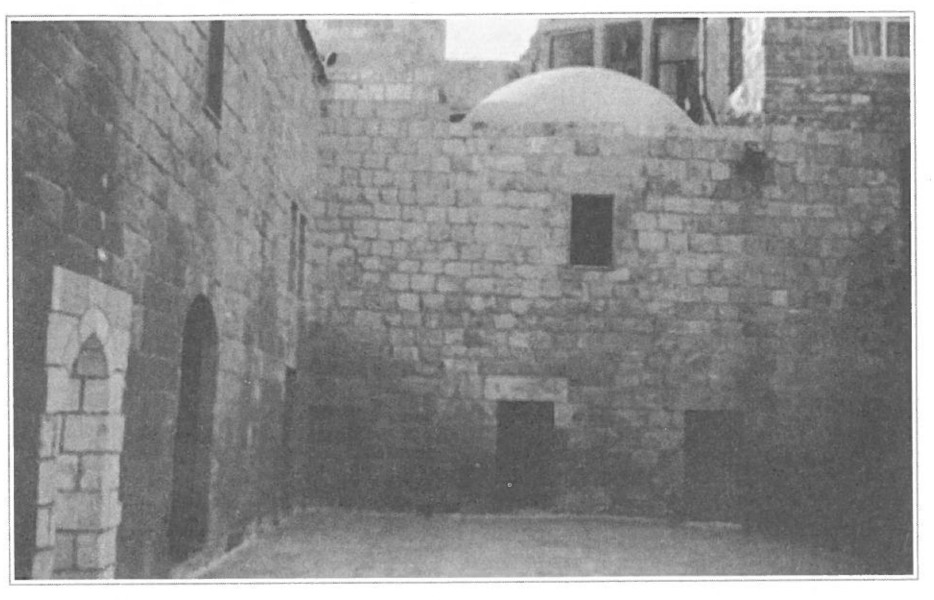
وللحرم ثلاث مداخل تفضي إلى داخله: المدخل الرئيس في وسط الحرم وهو معقود، يحيط به من الجانبين بابان جانبيان ذوا عتب مستقيم، ونجد بين الباب الرئيس والباب الجانبي إلى ناحية اليمين، محراب الصحن الصيفي.

ويوجد في هذا الحائط، وفوق كلّ من الأبواب الثلاثة، ثلاث شبابيك مستطيلة، يتساوى فيها شباك المدخل الرئيس، وشباك المدخل الجانبي من ناحية اليمين، في العلو، بينما ينخفض شباك المدخل الجانبي الشمالي عنهما قليلاً. ويعلو شباك المدخل الرئيس فتحة مستطيلة الشكل، يعلوها عقد بيضاوي، كذلك يعلو عقد آخر شباك المدخل الشمالي.

وفي الناحية الغربية للصحن نجد الغرف الخمسة، التي كانت مخصصة للضيوف، من الدراويش وعابري السبيل وطلاب العلم، كذلك نجد الغرفة ذات القبة، التي كانت تعرف بالزاوية الشاذلية، والتي كانت تقوم فيها حلقات الذِّكْر.

صورة رقم (41)

الغرفة المقببة غربي الصحن، والتي كانت تدعى بالزاوية الشاذلية.



تصوير خاص بالباحث

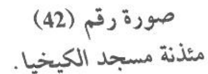
تتألف أرضية الصحن والحرم من الرخام النقي، وفي وسط الحرم وضع المنبر الذي صنع من الرّخام، والى جانبه نجد المحراب. وتتضمّن جدران الحرم نوافذ مستطيلة الشكل، ذات عتب مستقيم تعلوه عقود بسيطة.

أمّا مئذنة المسجد فهي تتألّف من أربعة أقسام فوق سطح الحرم. القسم الأول دائري من الحجر الرملي، أمّا القسم الثاني فهو على شكل تاج من الحجر الأبيض في أسفله بعض التجاويف، وفي أعلاه تتشكل شرفة المئذنة، أمّا القسم الثالث فهو دائري الشكل أيضاً، وإنما أقلّ عرضاً من القسم السفلي، ويعلوه قسم مخروطي من الحجر الرملي، ينتهي في أعلاه بتاج رخامي أبيض اللون.

ونشاهد في وسط الصورة، أحد أبواب الغرف الخمسة في الواجهة الغربية للمسجد، والتي كانت معدّة لإستقبال الضيوف، من الدراويش وطلبة العلم وعابري السبيل.

صورة رقم (42)

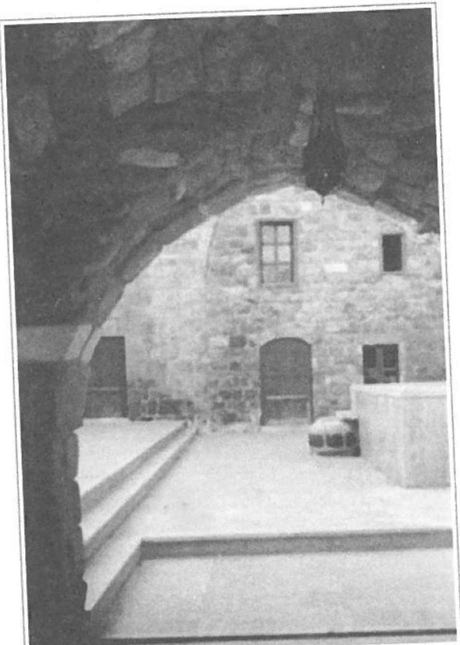
مئذنة مسجد الكيخيا.



تصوير خاص بالباحث

صورة رقم (43)

رواق المدخل الرئيس لمسجد الكيخيا.



تصوير خاص بالباحث

4 ـ جامع البحر:

يقع هذا المسجد على مقربة من ميناء صيدا، وهو جامع فسيح متسع، ويكثر فيه الازدحام عند صلاة الجمعة لقربه من السوق، وقد جعل له مدخل جميل[1].

تم بناء هذا المسجد عام 775هـ/ 1373م، وشيّده حسن بن سواح، كما يظهر على اللوحة المنقوشة، فوق المدخل الرئيس للمسجد وينص النقش على ما يلي:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم

(1) أحمد عارف الزين، مرجع سابق، ص 109.

الآخر. أنشأ هذا المسجد حسن بن سواح، في شهر رمضان المبارك سنة سبعماية وخمس وسبعين هجرية﴾.

غلب أسم جامع البحر، على هذا المسجد، ربما لوقوعه قرب ميناء صيدا، حيث كان المسافرون يؤدّون شعائرهم الدّينية في هذا المسجد، وكان للمسجد باب رئيس واحد، وهو الباب الشرقي الذي يفضي إلى الميناء.

أمّا القسم الغربي من المسجد والمطلّ على ساحة السمك، فقد كان مدرسة لتعليم القرآن الكريم وتحفيظه، ينفق عليها من أوقاف آل حمود، وكان آخر المشرفين على هذه المدرسة الشيخ عبد المطلب حمود، وبعد وفاته، عمد أولاده على إلحاق هذه المدرسة القرآنية بالمسجد[1].

ويوجد داخل المسجد إلى جهة الغرب، لوحة نقش عليها ثلاث أبيات من الشعر، تؤرخ لتاريخ إلحاق المدرسة بالمسجد عام 1392هـ/ 1972م.

ـ أقسام المسجد:

1 ـ الحرم، وهو متوسط المساحة تتخلله الأعمدة والدعامات الكبيرة غير المتناسقة، والتي تدل على حدود البناء الذي ألحق بالمسجد، وكان هذا البناء المدرسي يتألف من عدة غرف. أما منبره فهو بسيط الشكل من الرخام، يتدلى منه علم الصوفية. وهو الجامع الثاني بعد الجامع العمري الكبير الذي توجد فيه أعلام الصوفيّة.

2 ـ للمسجد مدخلان:

ـ مدخل شرقي وهو المدخل الأساسي للمسجد، وهوعبارة عن رواق صغير ضيّق يفضي مباشرة إلى الحرم.

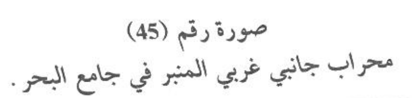
ـ مدخل غربي واسع كبير، يصعد إليه بواسطة درج صغير يؤدي إلى

(1) عبد الرحمن حجازي، مرجع سابق، ص 32.

صورة رقم (44)
جامع البحر.



تصوير خاص بالباحث



صورة رقم (45)
محراب جانبي غربي المنبر في جامع البحر.



تصوير خاص بالباحث

ساحة متوسطة لها بابان، باب كبير يفضي إلى الحرم مباشرة، وباب يؤدي إلى مئذنة الجامع، التي تشتهر بأنها أعلى مئذنة في مدينة صيدا.

3 ـ حديقة المسجد: وتقع إلى الجنوب من المسجد، وهي حديقة مهملة.

5 ـ جامع باب السراي:

سمّي بهذا الأسم لكونه بني على مقربة من السرايا القديمة، أو كان مخصوصاً بالسرايا، وهناك بركة متسعة تسمى أيضاً بركة السرايا[1].

(1) أحمد عارف الزين، مرجع سابق، ص 109.

وهو يقع شرقي باب السراي، داخل مدينة صيدا القديمة، حيث كانت تقوم منازل آل معن[1]. وكان هذا الجامع يعرف بإسم جامع المحتسب[2].

أنشأ هذا المسجد الشيخ أبو اليمن إبن أبي الحقّ عمدة الطالبيين سنة 698هـ/ 1298م.

وفي أعلى مدخل المسجد الشمالي توجد لوحة تؤرخ لبناء المسجد، وقد نقش عليها النص التالي: (بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذا الجامع المبارك العلامة الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام عمدة الطالبيين، مولانا شيخ الإسلام أبي إسحق إبراهيم بن... الدين، أواخر شهر رمضان 698هـ).

أماّ عبارة عمدة الطالبيين، فكانت تعني ما يلي: «إنّ العائلات الصيداويّة التي تنتسب إلى البيت النبوي، وتعود في نسبها إلى الإمام الحسين عليه السلام، كانت تنتخب من بين أفرادها عمدة لها. ولا تزال معظم هذه العائلات تحتفظ بشجرة نسبها، التي تعود إلى الإمام الحسين إبن بنت الرسول محمد (ص). ولا تفتح شجرة النسب هذه إلاّ بعد ذبح أضحية، لإعتقاد هذه العائلات أنه لا يجوز فتح شجرة النسب، إلاّ بعد تقديم الأضحية تقرّباً لله تعالى. وقد عرف عمدة الطالبيين بإسم نقيب الأشراف فيما بعد، وكانت مهامّه هي التالية:

أ - رعاية الأوقاف الإسلامية في منطقة صيدا.

ب - تمثيل مسلمي صيدا والتحدّث بإسمهم.

ج - القيام بمهام المحتسب، من حيث مراقبة الأسواق، وإصدار الأحكام الشرعيّة.

- أقسام المسجد:

1 - حرم المسجد متسع المساحة، يتصدره منبر معظم أقسامه من الخشب،

---

(1) عبد الرحمن حجازي، مرجع سابق، ص 36.

(2) عبد الغني النابلسي، مصدر سابق، ص 34.

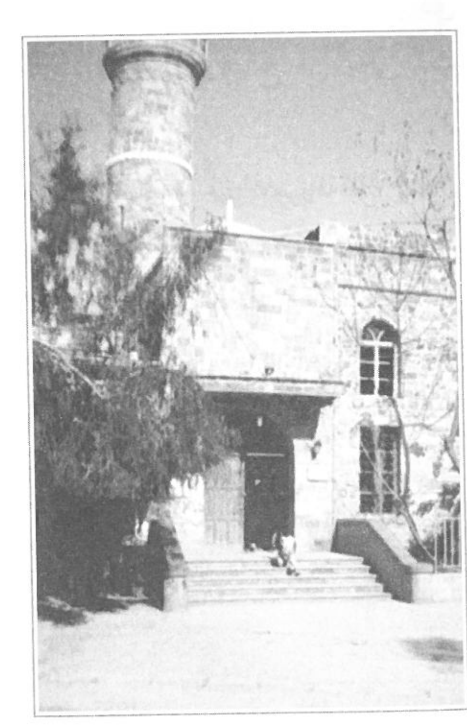
وتعلو القسم الشرقي من الحرم قبة جميلة الشكل. أمّا القسم الجنوبي من الحرم فقد كان خارج منطقة الحرم، لكنه أتبع بالحرم بعد الإصلاحات التي حدثت في المسجد عام 1964م.

2 - صحن المسجد وتعادل مساحته ربع مساحة الحرم، ويمتاز الصحن بعامودين أثريين من الرخام، ينتصبان في وسط الصحن.

3 - مداخل المسجد:

للمسجد مدخلان: مدخل غربي من جهة ساحة باب السراي، يفضي مباشرة إلى الحرم. ومدخل شمالي يؤدّي إلى صحن المسجد.

صورة رقم (46)
المدخل الغربي لجامع باب السراي.



تصوير خاص بالباحث

صورة رقم (47)
حرم جامع باب السراي، ونرى الأعمدة الغرانيتية الرومانية التي أعيد استعمالها عند بناء الجامع.



تصوير خاص بالباحث

5 ـ جامع الأمير فخر الدين الأول :

يقع هذا الجامع في مدينة دير القمر، في قضاء الشوف، وهي تبعد عن مدينة بيروت بحوالي 40 كلم[1].

وتفيد المصادر بأنّ منطقة جبل الشوف، كانت قفراً خالياً من السكان قبل نزوح الأمير معن مع عشيرته إليها، حيث نسب الجبل إليهم فيقال له: «جبل بيت معن»، وقد أتخذوا من بعقلين مقراً لهم، وكان النزوح عام 514 هـ/ 1120م[2].

وتجدر الإشارة إلى أنّ مدينة دير القمر لم يأت على ذكرها الجغرافيون العرب مثل: الإصطخري (ت 346 هـ/ 957م)، وياقوت الحموي (ت 626هـ/ 1229م)[3].

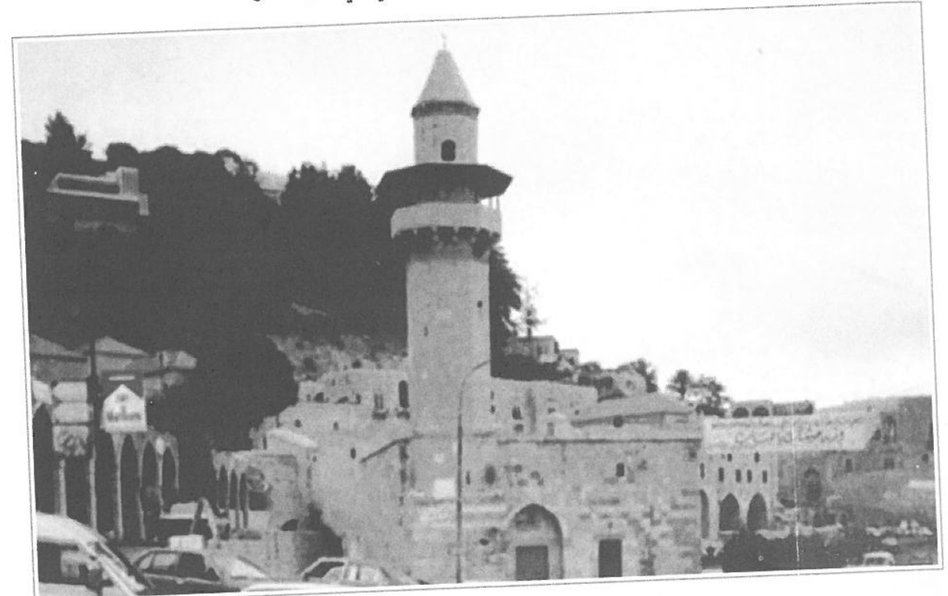
كذلك لم يرد ذكرها عند مؤرخي العصور الوسطى، مثل: إبن تغري بردي (ت874هـ/ 1470م)، وإبن أياس (ت 930هـ/ 1523م) وصالح بن يحي (ت 850هـ/ 1446م)، وإبن أسباط (ت926هـ/ 1523م)[4].

وهذا يؤكد أنّ هذه المدينة كانت قرية صغيرة غير معروفةقبل أنتقال المعنيين إليها، وجعلها مقراً للولاية في عهد الأمير فخر الدين الأوّل، وليس في عهد الأمير يونس شقيق الأمير فخر الدين الثاني، وذلك بعد سفره إلى إيطاليا في سنة 1022هـ/ 1613م، وتفويضه بالولاية لشقيقه، كما يشير بعض المؤرخين اللبنانيين إلى ذلك مثل: الشدياق، والمعلوف، وفيليب حتي.

وليس أدلّ على ذلك من إقامة الأمير فخر الدين الأول لجامعه في دير

(1) عفيف مرهج، أعرف لبنان، بيروت، 1972م، ج 5، ص134 ـ 150.
(2) محمد كرد علي، خطط الشام، ج 1، ص 273.
(3) الإصطخري، المسالك والممالك، طهران، 1927م.
ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1955م.
(4) أبن تغري بردي، النجوم الزاهرة، أبن أياس، بدائع الزهور، صالح بن يحي، تاريخ بيروت، إبن أسباط، تاريخ إبن أسباط، تحقيق نائلة تقي الدين، دار العودة، بيروت 1989م.

صورة رقم (48)
جامع الأمير فخر الدين الأول المعني في دير القمر.



تصوير خاص بالباحث

القمر بدلاً من بعقلين[1]. ينسب الأمير فخر الدين الأوّل منشيء هذا الجامع إلى الأسرة المعنية، ويلاحظ أنّ المصادر الحديثة تبدأ سيرة المعنيين منذ بداية حكم الأمير فخر الدين الأوّل.

ولعلّ ذلك بسبب بداية ظهور هذه الأسرة، وقيامها بدور بارز في تاريخ المنطقة في هذه الحقبة الزمنية.

والمنشيء للجامع بحسب النص الموجود على الجامع، هو الأمير فخر الدين عثمان بن يونس بن معن، الذي تولّى الإمارة في فترة حكم السلطان المملوكي الجركسي قايتباي[2].

(1) أنظر، صالح مصطفى لمعي، العمارة الإسلامية في العصر المعني في لبنان، دار النهضة العربية، بيروت، 1405هـ ـ 1985م، ص 8 ـ9.
(2) صالح مصطفى لمعي، مرجع نفسه، ص 23.

وقد أنضمّ فخر الدين مع قواته متضامناً مع نائب السلطنة في دمشق جان بردي الغزالي، إلى جانب العثمانيين في موقعة مرج دابق، بين السلطان المملوكي قانصوه الغوري، والسلطان سليم العثماني، وذلك في سنة 922هـ/ 1516م.

وقد أنتصر في هذه الموقعة السلطان سليم، الذي كافأه على ذلك حيث عيّنه والياً على الشوف. وأستمر فخر الدين الأوّل في ولايته، إلى أن قتل بإيعاز من بيري باشا والي دمشق بعد أستدعائه إليها في عام 951هـ/ 1544م، وذلك في عهد السلطان سليمان القانوني[1].

ـ وصف الجامع :

يعتبر هذا المسجد من أقدم المساجد التي أقيمت في جبل لبنان، حيث يعود تاريخ إنشائه إلى سنة 899هـ/ 1492م[2]، وهو حالياً غير مستعمل للصلاة وذلك بسبب تحوّل المدينة إلى مركز مسيحي، منذ حوالي منتصف القرن التاسع عشر للميلاد. والمبنى عبارة عن مستطيل 14,35 × 12,39م، ويختلف أرتفاع كل واجهة نظراً لتغيّر مناسيب سطح الأرض حول المبنى.

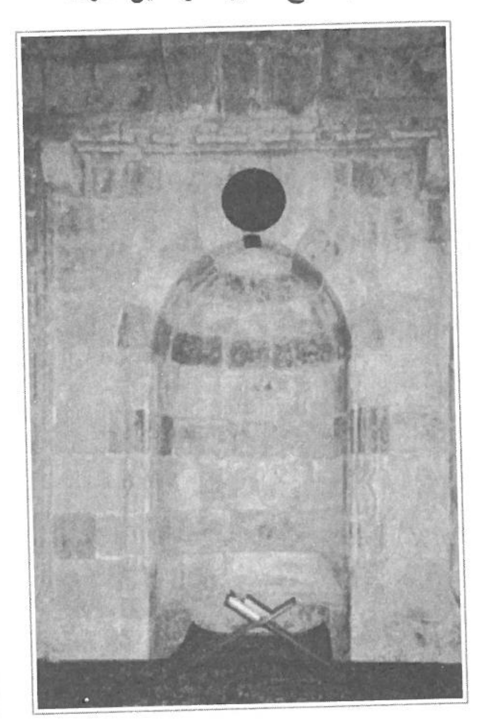
وفي منتصف الحائط الجنوبي يوجد المحراب، الذي غطي بعقد مدبب من تسع صنج، يعلوه عقد أخر من عشر صنج، ويحيط بالمحراب جفت من إطارين يحصران بينهما على مسافات متساوية زهرة سداسيّة الأوراق، وينتهي الجفت بشكل دائرة، وقد صنع الجفت من حجارة منفصلة عن حجارة الحائط. ويتكون الجفت من إطارين يحصران بينهما تجويفاً مقعراً ذا مسقط مستطيل يبرز قليلاً عن سمت حائط القبلة، بينما عمل الإطار الخارجي بشكل نصف دائرة. ويكتنف المحراب عامودان يعلوهما تاجان على هيئة مقرنصات من حطتين، أمّا قاعدتهما فقد عملت على هيئة مثلثات، وزين بدن العامود بحليات دائريةبارزة تتقاطع في المنتصف مكونّة مربعاً.

---

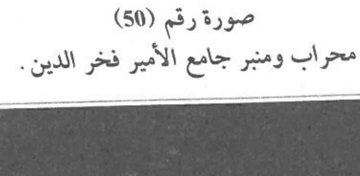
(1) محمد كرد علي، مرجع سابق، ج 2، ص 227 ـ 229.

(2) عفيف مرهج، مرجع سابق، ج 5، ص 143.

صورة رقم (49)
محراب جامع الأمير فخر الدين الأول.



تصوير خاص بالباحث



صورة رقم (50)
محراب ومنبر جامع الأمير فخر الدين.



تصوير خاص بالباحث

وعلى يمين المحراب نجد شباكين يفصل بينهما حائط، ولكل من الشباكين عتبتان، سفليّة تتكوّن من قطعة واحدة من الحجر، وعلوية منفصلة عنها قليلاً تتكوّن من ثلاث صنج، كذلك نجد على يسار المحراب شباكين آخرين مماثلين للشباكين على ناحية اليمين.

وينتهي حائط القبلة من الأعلى بصف واحد من المقرنصات المنحوتة نحتاً خفيفاً في الحجر، وقد عملت نافذة صغيرة بكلّ فراغ. وعلى يمين المحراب يوجد منبر خشبي بسيط وحديث، كذلك يوجد كرسي لقارئ القرآن، وكرسي خاص بالمصحف.

يبلغ طول الواجهة الشمالية 16,94م، وينقسم حائط هذه الواجهة بواسطة كتف عرضه 0,83م إلى جزئين، وتوجد خزانة للكتب بالحائط عن يمين الكتف،

ترتفع عن مستوى أرض الجامع بحوالي المتر، كذلك توجد خزانة ثانية مماثلة للأولى عن يسار الكتف. وقد عُملت نافذتان بالجزء العلوي من الحائط على محاور الفراغات الداخلية، الأولى عن يمين الكتف والثانية عن يساره.

أمّا الواجهة الشرقية فيبلغ طولها 12,39م، وتنتهي من الأعلى بكورنيش بسيط. وقد عُمل في هذه الواجهة باب للدخول يبلغ عرضه 1,36م، وأرتفاعه 2,20م، وله عتب علوي وعتبةسفلية من الحجر، ويتكوّن العتب من قطعتين من الحجر الجيري، ويعلو هذا العتب لوح من الرخام نقش عليه نص تاريخي من سبعة أسطر باللغة العثمانية، وهويؤرخ لإعادة ترميم الجامع عام 1278هـ/ 1861م.

وباب المدخل موضوع في قوصرة معقودة بعقد حدوة الفرس، وقد زين مفتاح العقد بنجمة سداسيّة في وسطها زهرة سداسية الأوراق، كذلك نقش على المدماك العلوي في ظهر القوصرة نجمة ثانية في وسطها زهرة. وفي الجزء العلوي من الواجهة عُمل شباكان صغيران ولكل منهما عتب مستقيم.

صورة رقم (51)

الواجهة الشرقية، ويعلو المدخل نقش كتابي باللغة العثمانية.



تصوير خاص بالباحث

أمّا الواجهة الجنوبية فيبلغ طولها 14,35م، وتنتهي من الأعلى بكورنيش بسيط، وقد عملت في هذه الواجهة أربعة نوافذ أثنتان في الأعلى، وأثنتان في الأسفل، ولكل من هذه النوافذ عتب مستقيم يعلوه عقد تخفيفي يتكوّن من سبعة صنج، وقد أستعمل في البناء حجارة جيرية بيضاء وحمراء، ولكن بدون إيقاع منتظم.

وفي هذه الواجهة ميزاب من الحجر، وهو حالياً في منسوب منخفض عن منسوب أرضية السطح، كما هو الحال في الميزابين بالواجهة الشرقية[1].

يبلغ طول الواجهة الغربية 12,34م، وتنتهي هذه الواجهة من الأعلى بكورنيش ذي زخرفة بسيطة. وفي هذه الواجهة يوجد مدخل للجامع، وقد وضع باب المدخل في قوصرة وهي معقودة بعقد حذوة الفرس، ويتكوّن العقد من تسع عشرة صنجة غير مرتبطة باللحامات في الحائط. وللباب عتب مستقيم من الحجر، ويكتنف قوصرة المدخل مصطبتان بإرتفاع0,70م. وفي أعلى العتب نجد لوحة من الرخام، نقش عليها نص قرآني من أربعة أسطر وهو ما يلي:

1 – ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ

2 – يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن

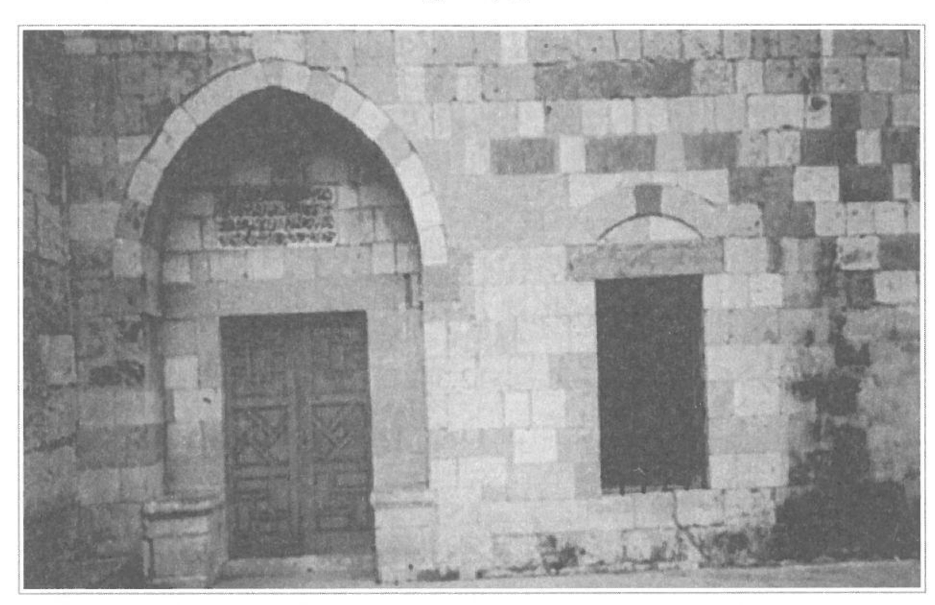
3 – ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ

4 – وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

كذلك نجد على محور المدخل أسفل الكورنيش، قطعة حجرية عليها نحت بشكل هندسي شاع في العمارة الإسلاميّة. وعلى مسافة 1,50م، عن يمين قوصرة المدخل، عُمل شباك له عتب مستقيم، ويعلوه عقد تخفيفي تعلوه زخرفة

(1) صالح مصطفى لمعي، مرجع سابق، ص 42 ـ 43.

صورة رقم (52)
الواجهة الغربية.



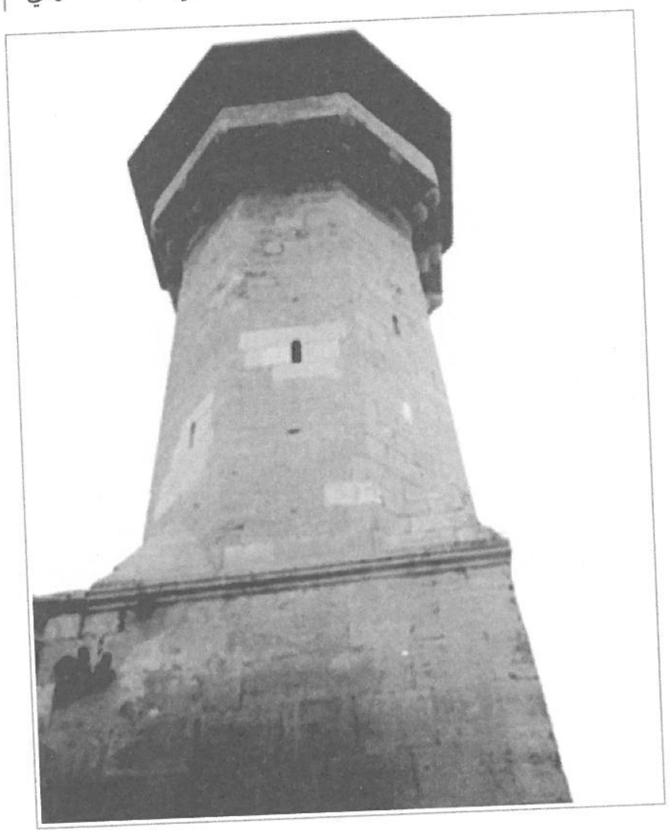
تصوير خاص بالباحث

بسيطة. وفي الجزء العلوي من الواجهة أسفل الكورنيش، عُمل شباك صغير له عتب مستقيم، وعن يمين الشباك يوجد ميزاب حجري.

تكوّنت المئذنة من ثلاث طبقات، وقد بلغ إرتفاعها الكلّي 20,65م، ويبلغ طول ضلعها الجنوبي2,70م، وطول الضلع الغربي3,52م، ونشاهد بوضوح الفاصل بين جسم المئذنة والحائط الشمالي للمسجد، وذلك لإختلاف أرتفاع صفوف الحجارة في كلٍّ من قاعدة المئذنة والحائط الشمالي للمسجد، كذلك لإختلاف نوعيّة الحجارة في كلٍّ منهما. وهذه المئذنة مثمّنة الشكل.

وتنقسم القاعدة إلى جزئين، السفلي إرتفاعه 3,85م، والعلوي إرتفاعه 2,45م، وينتهي بكورنيش بسيط.

ونجد في الجزء السفلي من قاعدة المئذنة، نصّاً قرآنياً، يتبعه نص تاريخي من سطرين، وهو يؤرّخ لتاريخ بنائه، وهومحاط بإطار مائل، وقد كتب بخط



صورة رقم (53)
مئذنة المسجد، ونشاهد بوضوح حُدود الطبقات الثلاثة التي تتألف منها.

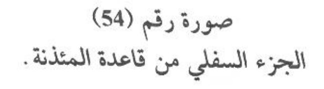
تصوير خاص بالباحث

الثلث، وهو يتشابه في كثير من كلماته مع النصوص التاريخيّة المملوكية في كلٍّ من مصر وسوريا وطرابلس، وهما ينصان على ما يلي:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾.

عمر هذا المكان المبارك ابتغاء لوجه الله العظيم، ورجاء لثوابه العميم العبد الفقير إلى عفو القدير المقر الفخري الأمير فخر الدين عثمان بن الحاج يونس بن معن غفر الله له.

وكتب في خمسة من شهر الله المحرم الحرام من شهور سنة تسع وتسعين وثمان مائة للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.



صورة رقم (54)

الجزء السفلي من قاعدة المئذنة.



تصوير خاص بالباحث

وفي الجزء العلوي من القاعدة توجد فتحة تنتهي من أعلى بمثلث، عرضها 0,21م، وإرتفاعها 0,54م. كذلك نجد في الجزء السفلي من القاعدة بالجهة الشمالية فتحة عرضها 0,10م، وإرتفاعها 0,95م، وتنتهي من الأعلى بمثلث.

أماّ الجزء الأوسط فهو مثمّن طول ضلعه 1,25م، وإرتفاعه 6,75م، وينتهي بكورنيش يعلوه شرفة لها دائرة حجريّة محمولة على مساند حجرية. ولهذه الشرفة باب معقود بعقد بشكل جزء من دائرة يتكوّن من ثلاث صنج.

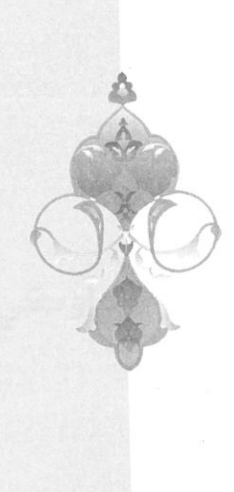
بعد الشرفة يبدأ الطابق الثالث، وهو مثمّن أيضاً بإرتفاع 4,25م، ينتهي بكورنيش إرتفاعه 0,25م، ويتوّج الطابق الثالث مخروط، وقد عملت في هذا الطابق فتحة عرضها 0,45م، وإرتفاعها 0,82م، وهي معقودة بعقد بشكل جزء

من دائرة يتكون من خمسة فصوص وقد عمل أسفل كلّ كورنيش، في كلّ من الطابق الثاني والثالث للمئذنة صف من الحجارة الحمراء[1].

ويرجع مرهج الميل في المئذنة إلى زلزال أصاب المنطقة، وكذلك آثار الرّصاص بها إلى الصّدام بين الأهالي والجيش العثماني[2].

(1) صالح مصطفى لمعي، مرجع سابق، ص 46 ـ 47.

(2) عفيف مرهج، مرجع سابق، ج 5، ص 114.



الفصل السادس

مدينة بعلبك
في العهد المملوكي

أهم المعالم الأثرية الدينية المملوكية في مدينة بعلبك :

1 ـ الجامع الكبير .

2 ـ جامع رأس العين .

3 ـ المسجد المعلق .

4 ـ جامع إبراهيم الخليل .

5 ـ الجامع الحنبلي .

6 ـ الجامع الصغير .

7 ـ مسجد الجو كنداري .

8 ـ قبة السعادين .

9 ـ زاوية ومسجد الزغبرية .

10 ـ زاوية البدوي .

11 ـ زاوية الخضر .

12 ـ الخانقاه الكبير .

بعلبك في العهد المملوكي

بعد قيام هذه الدولة في مصر والشام، قتل السلطان المظفر قطز في سنة 658هـ/ 1260م، في طريق عودته إلى مصر، بعد هزيمته للتتار في معركة عين جالوت. واستقل بأمور السلطنة بعده، الظاهر بيبرس البندقداري، مما أزعج نائب السلطان المظفر قطز في الشام، الأمير علم الدين سنجر الحلبي، الذي خرج عن طاعة السلطان بيبرس، واستقلّ بأمور السلطنة في دمشق، فخطب لنفسه على منابرها، وضرب السكة بإسمه، واحتل مدينة بعلبك وضمها إليه، وتلقّب بالملك المجاهد(1).

فوجه إليه السلطان بيبرس عساكره لتأديبه. غير أن علم الدين سنجر الحلبي، ما لبث أن إنهزم إلى جهة بعلبك، وتحصن في قلعتها. فتبعه جيش الملك الظاهر، وحاصره فيها، وقبض عليه ثم حملّه إلى الديار المصرية. فعادت بعلبك ودمشق بذلك، إلى الملك الظاهر بيبرس، الذي يعتبر بحقّ المؤسس الحقيقي لهذه الدولة(2).

وبعد إستيلاء الملك الظاهر بيبرس، على مدينة بعلبك، أمر بعمارة

---

(1) إبن طولون، أعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق عبد العظيم حامد، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، 1973م، ص 5.

(2) إبن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص 107-108.

قلعتها، وتشييد سورها، وبناء دورها، «وشحنها بما لم تسمح به نفس أحد»، وولّى عليها عز الدين أيبك الإسكندري الصالحي. ثم عاد وولّى عليها كمال الدين إبراهيم بن شيت، بعد وفاة واليها عز الدين أيبك. ثم عاد وأقطعها لنجم الدين حسن، في سنة 674هـ/ 1275م، وقد بقي نجم الدين حسن، والياً على بعلبك، طيلة عهد السلطان بيبرس، وعهد أولاده من بعده. ولم يعزل عنها إلاّ في سنة 677هـ/ 1278م، حين تولّى مقاليد السلطنة، السلطان قلاوون، الذي عزل نجم الدين حسن عن مدينة بعلبك، وولاها لنجم الدين بن حجي[1]. وسبب هذا العزل، هو إنحياز نجم الدين حسن، إلى سنقر الأشقر نائب دمشق، أثناء خروجه على الملك المنصور قلاوون سلطان مصر.

وكان نائب الشام المذكور، قد عارض عملية خلع السلطان العادل بدر الدين سلامش، إبن السلطان الظاهر بيبرس، وتولّي قلاوون للسلطنة، لذلك ثار عليه وأعلن عصيانه، ولقّب نفسه بالملك الكامل وحشد الجيوش الشامية لمقاومته في سنة 677هـ/ 1278م، واستعان بنجم الدين حسن، والي بعلبك، الذي أنجده «برجالة كثيرة من جبال بعلبك»[2]، وعساكر وأطلاب لا تحصى.

وعندما هُزم الجيش الشامي، وانتصر قائد السلطان قلاوون الأمير علم الدين سنجر الحلبي، على شمس الدين سنقر الأشقر، أصبحت دمشق وبعلبك من الولايات التابعة للسلطان قلاوون. فولّى على الأولى، الأمير حسام الدين لاجين المنصوري، وعلى الثانية الأمير نجم الدين بن حجي[3].

وفي هذا الوقت هاجم التتار المدن الشاميّة من جديد، ودمرّوا حمص وبعلبك، ورابطوا في شمالي البقاع على العاصي، فهاجمهم المسلمون بقيادة السلطان قلاوون وأمرائه، وإنتصروا عليهم إنتصاراً كبيراً، عند سدّ الرستن على العاصي في سنة 678هـ/ 1279م، فأصبحت بذلك معظم الديار الشامية داخلة في

(1) ميخائيل الوف، تاريخ بعلبك، المطبعة الأدبية، بيروت، 1926، ص 83.

(2) إبن تغري بردي، مصدر سابق، ج7، ص 292-296.

(3) ميخائيل الوف، مرجع نفسه، ص 83.

سلطنة المماليك البحريين، الذين طهّروا البلاد من فلول الصليبيين والمغول على السواء، واستولوا على آخر المعاقل الصليبية في الشرق سنة 690هـ/ 1291م، وذلك في عهد السلطان الأشرف خليل، الذي احتلّ حيفا وهدّمها[1]، وقضى على آخر معقلين للإفرنج وهما:

أنطرطوس وعتليت، فنعمت البلاد بعد ذلك بشيء من الطمأنينة والراحة. وقام الأشرف خليل بتقوية تحصينات قلعة بعلبك وترميمها، ومدّ سوراً عالياً من الزاوية الجنوبية الغربية إلى الزاوية الجنوبية الشرقية من معبد جوبيتر.

وبعد وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، في سنة 741هـ/ 1341م، تولّى العرش إثنا عشر سلطاناً من أبنائه وأحفاده، كان آخرهم السلطان علي بن شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون، الذي أصبح سلطاناً سنة 778هـ/ 1377م، وهو طفل لم يتجاوز السابعة من عمره، فساءت الأحوال في عهده، وعمّت الفوضى جميع أنحاء البلاد، وذلك لكثرة الطامعين بالخروج عن السلطنة والإستقلال[2]. إلى أن تسلّم عرش السلطنة الظاهر برقوق بن أنص العثماني، الذي يعتبر أول حاكم من المماليك الجراكسة أو البرجيين.

اهتم السلطان برقوق بقلعة بعلبك، وأكثر من مرامي السهام وحفر خندقاً حول تحصيناتها يملأ بالماء، وذلك لرّد هجوم الأعداء.

لم يتطرّق المؤرخون الذين اعتنوا بتدوين تاريخ المماليك الجراكسة، إلى ذكر جميع الذين تولوا نيابة بعلبك. وإنما ذكروا بعضهم عن طريق العرض.

أما الحكام الذين ذكرهم المؤرّخون هم: الأمير تنكز بغا الحططي، الذي ولاه السلطان الناصر فرج، نيابة بعلبك في سنة 803هـ/ 1401م، وقد كانت هذه النيابة شاغرة منذ مغادرة تيمورلنك لمدينة بعلبك[3]. والأمير حسن قدمز

(1) إبن تغري بردي، مصدر سابق، ج8، ص 8-10.

(2) إبن تغري بردي، مصدر نفسه، ج11، ص 148-150.

(3) المقريزي، السلوك، ج3، ص 1057.

المظفري، الذي كان متولياً عليها حوالي سنة 824هـ/ 1421م، من قبل الملك المؤيد أبي النصر شيخ المحمودي.

وفي عهد الأمير حسن قدمز حضر إلى بعلبك الشيخ الصالح شمس الدين محمد الهادي المصري، وكان الملك المؤيد قد أرسله إلى بعلبك، للأشراف على نظارة الحسبة في المدينة، ولإبطال المظالم التي لحقت بالمزارعين والطحانين في بعلبك وقراها[1].

ثم الأمراء أولاد الحمرة، الذين حكموا مدينة بعلبك من آخر سنة 824هـ/ 1421م، حتى سنة 857هـ/ 1453م، وكان قد ولاّهم عليها السلطان الأشرف برسباي الدقماقي الظاهري، منذ تسلّمه لمقاليد الحكم. وقد دام حكمهم فيها، حتى قضى السلطان جقمق العلائي الظاهري على حكمهم في البقاع، ورحلهم إلى بيروت، فإستقروا بها.

وفي سنة 882هـ/ 1478م، قام الملك الأشرف قايتباي، برحلة رسمية إلى بلاد الشام، زار خلالها مدينة بعلبك، واطّلع على أحوالها، وأمر بتحصينها، وإلغاء المظالم اللاحقة بسكانها[2]. وكان متولّياً على بعلبك في ذلك الوقت، الكريم الجمالي يوسف قجماس السيفي، كافل المملكة الشامية، الذي بادر إلى تنفيذ أوامر الملك[3].

وفي سنة 898هـ/ 1493م، ولّى السلطان الأشرف قايتباي، الأمير ناصر الدين بن الحنش، كبير أمراء عربان حماه، على نيابة بعلبك، فصانها واستمرّ حكمه بها حوالي ثمانية عشر عاماً، ولم ينته حكمه فيها، إلاّ بإنتهاء عهد دولة المماليك الجراكسة في هذه البلاد، ودخول الأقطار الشامية، تحت النفوذ العثماني في سنة 922هـ/ 1516م[4].

---

(1) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة، بيروت، لا تاريخ، ج3، ص 9.

(2) إبن أياس، بدائع الزهور، ج3، ص 3-4.

(3) إبن تغري بردي، مصدر سابق، ج12، ص 169.

(4) إبن أياس، مصدر نفسه، ج5، ص 106-107.

وقد أصبح إبن الحنش في فترة حكمه من أقوى الأمراء في بلاد الشام، فقد حارب العثمانيين في الشمال وإنتصر عليهم في عدّة معارك، كما حارب عرب حوران المفارجه، وصدّ زحفهم عن البقاع، كذلك هاجم أولاد عبد الساتر بشارة حكام جبل عامل وإنتصر عليهم، وقاوم نواب دمشق وحلب الطامعين بخيرات بعلبك والبقاع، وبقي طيلة فترة حكمه وفياً للمماليك الجراكسة، الذين جعلوه أيضاً على نيابتي دمشق وحلب، وذلك بعد إنحياز نائبيها إلى السلطان سليم الأوّل العثماني في معركة مرج دابق[1].

وبعد معركة مرج دابق، والسيطرة العثمانية على بلاد الشام، لم تهدأ الأحوال للعثمانيين، لأنه بقي هناك من يقاومهم، ويحاربهم بعناد، ومن هؤلاء الأمراء نذكر ناصر الدين بن الحنش والأمراء التنوخيين.

وقد امتنع ناصر الدين بن الحنش، عن مقابلة السلطان سليم في دمشق، وأعلن عليه الثورة في سنة 924هـ/ 1518م، عندها حاصره السلطان سليم في بعلبك، وقبض عليه مع الأمير قرقماز المعني والأمير علم الدين سليمان، واحتزّ رؤوسهم، مما أدّى إلى إضطراب حالة الأمن، في بعلبك والبقاع، وجبل نابلس، وأخذ العربان يغيرون على الضياع وينهبون غلالها[2].

فإنتهى بذلك عهد السلاطين المماليك في بلاد الشام، وإنتهى معه عهد النيابة في بعلبك، وأصبح أسمها إيالة. وأعطيت إيالة بعلبك والبقاع الشمالي، للأمراء الحرافشة، وأعطي البقاع الجنوبي، أو البقاع العزيزي، لآل فريج[3].

وأستثنى الأتراك جميع الأراضي والمساحات الشاسعة من البقاع الشمالي ووادي العاصي، وإعتبروها أرضاً أميرية، من أملاك الدولة العثمانية العلية، وألحقوها بالتاج العثماني مباشرة[4].

---

(1) إبن أياس، مصدر سابق، ج5، ص 69 ـ 71.

(2) محمد كرد علي، خطط الشام، ج2، ص 227.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 110.

(4) ميخائيل الوف، تاريخ بعلبك، ص 86.

المعالم الأثرية الدينية المملوكية في مدينة بعلبك:

1 ـ الجامع الكبير

كان هذا الجامع قبل الفتح العربي للمدينة، كنيسة ليوحنا المعمدان، وعندما فتح العرب المدينة حوّلوا كنيستها إلى مسجد ضخم، وعمروه ببقايا الأعمدة والأحجار المنحوته، الموجودة بجانب القلعة[1]. وهو يقع على مسافة حوالي مئة وعشرين متراً إلى الشرق من مدخل القلعة. وقد تعرضّ هذا الجامع للكثير من الأضرار على أثر السيول التي اجتاحت مدينة بعلبك في سنة 717هـ/ 1318م[2].

وقد أعتبر فان برشم (Van Berhem)، أنّ هذا الجامع هو من أقدم الأبنية الإسلامية في سوريا[3]. وقد تمّ ترميم الجامع الكبير في العهد المملوكي، زمن السلطان المنصور قلاوون في سنة 682هـ/ 1283م، الذي أمر بتجديد أحد جدرانه وشبابيكه، ونستطيع أن نتبيّن ذلك من خلال لوحة حجرية موجودة في أرض الجامع، قياسها (94ط60) سنتم، وتنص على ما يلي:

1 ـ جدّد هذا الحائط المبارك والشبابيك في أيام مولانا السلطان الأعظم شاهنشاه.

2 ـ مالك رقاب الأمم وسيد ملوك العرب والعجم والترك والديلم الملك المعظم المنصور.

3 ـ سلطان الإسلام والمسلمين وقامع الكفرة والمشركين محي العدل في العالمين ملك البحرين خادم.

(1) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، طبعة الأب أنطوان صالحاني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1890، ص 135.

(2) المقريزي، السلوك، ج 1، ص 171.

(3) Van. Berchem, Voyage en Syrie, dans mémoires de l'institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, T.37, Le Caire, 1914, p.336.

4 ـ الحرمين الشريفين أبي المعالي قلاوون قسيم أمير المؤمنين خلّد الله سلطانه وشدّد أزره ببقاء ولده.

5 ـ وولّى عهده مولانا السلطان بن السلطان علاء الدين وأدام ملكهما بتولّي الأمير نجم الدين حسن نائب قلعة بعلبك ومدينتها في سنة أثني وثمانين وستمائة[1].

كذلك تمّ تجديد أروقة الجامع في العهد المملوكي أيضاً، ونستدلّ على ذلك من خلال نص كتابي من أربعة أسطر، جاء فيه:

1 ـ جدّد هذا الرواق المبارك في أيام مولانا.

2 ـ السلطان الناصر حسن بن مولانا السلطان.

3 ـ الملك الناصر محمد بن مولانا السلطان الملك ال (   ).

4 ـ المنصور الصالحي عزّ نصره في شهر رجب سنة ستين وسبعماية[2].

يحيط الجامع سور مستطيل الشكل تخترقه عدّة أبواب. وفي الزاوية الشمالية الغربية، ترتفع مئذنة بنيت في زمن السلطان الأيوبي الصالح إسماعيل في سنة 638هـ/ 1240م، ويوجد هناك نص كتابي على عتبة أحد الشبابيك، يتألف من أربعة أسطر من النسخ الأيوبي، وينص على ما يلي[3]:

1 ـ أمر بعمارة هذه المئذنة المباركة في أيام مولانا السلطان.

2 ـ الملك الصالح عماد الدنيا والدين أبي الفداء إسماعيل.

3 ـ العبد الفقير إلى متسع (الله) أبو الحسن غفر الله عنه.

4 ـ بتولي الفقير إلى الله عبد الرحمن بن حسان غفر الله له في سنة ثمان وثلثين وستماية.

(1) Wiegand, Baalbek, Berlin, 1925, p. 25.

(2) Wiegand, op. cit. p.25.

(3) ميخائيل الوف، مرجع سابق، ص 171.

أثناء زيارة الرحالة عبد الغني النابلسي إلى بعلبك في سنة 1700م. قام بوصف الجامع قائلاً:

«إن للجامع مقصورة صغيرة لها بابان، وبها محراب كبير، وبجانبه المنبر، وأمامها سدّة يصعد إليها من خارج المقصورة بسلّم حجري فيه عشر درجات، وفي هذا الجامع أيضاً قبة لطيفة بالحائط الشمالي وفيها ماء، لها ثلاثة أنابيب وأمامها سدّة كبيرة، ويحيط بهذا الجامع رواقان، وهو مبني على أعمدة كثيرة، وفناء هذا الجامع متسع جداً وبه أعمدة كثيرة، وفيه بركة ماء كبيرة مربعة»[1].

وقد تمّ ترميم المئذنة في العهد المملوكي، في منتصف القرن الرابع عشر، على يد السلطان الناصر حسن، ويبلغ إرتفاع المئذنة حوالي ثلاثة وعشرون متراً، ويصعد إليها بدرج حلزوني، يبلغ عدد درجاته سبعة وثلاثين درجة، كذلك فإنّ الجزء السفلي من المئذنة مربع الشكل ويبلغ إرتفاع هذا الجزء المربع ثلاثة عشر متراً، ونجد تحت هذا الجزء السفلي المربع طابق ثان مثمّن الأضلاع، يبلغ طول الضلع حوالي 115 سنتم، وإرتفاع هذا الطابق الآن حوالي سبعة أمتار، وقد أضيف إلى هذا الطابق الثاني طابق ثالث دائري الشكل، وهو مهدّم حالياً، ولم يبق منه الآن سوى ثلاثة أمتار تقريباً منتصبة في الجهة الغربية من الجامع.

أمّا شرفات المئذنة فهي متهدمة، ولم يبق لها أثر. ترتبط عمارة هذه المئذنة، بالطراز المملوكي، الذي كانت تتألف المئذنة فيه من ثلاثة طوابق، الأوّل مربع الشكل، والثاني مثمّن، والثالث دائري.

ـ وصف الجامع

يبلغ طول الجامع من الشمال إلى الجنوب واحد وستون متراً، وعرضه من الغرب إلى الشرق سبعة وأربعون متراً، وهو مستطيل الشكل، ويخترقه بابان،

(1) عبد الغني النابلسي، التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، ص 104.

الأول في الجدار الشمالي، والثاني في الجدار الغربي، وهو أصغر حجماً من الباب الأوّل.

يتألف الجامع من فناء داخلي غير مسقوف تبلغ مساحته حوالي خمسة وثلاثين متراً طولاً، وسبعة وعشرين متراً عرضاً، ويحيط بهذا الفناء من جميع جهاته، أروقة، نجد في الرّواق الشمالي بقايا لأثني عشرة قاعدة تعود لعواميد، وزاوية ما تزال قائمة في الجهة الشمالية الغربية بالقرب من المئذنة، أمّا الرّواق الغربي فلا تزال توجد فيه بقايا لثمانية قواعد عائدة لأعمدة، كذلك نجد ثمانية قواعد لأعمدة في الجهة الشرقية المقابلة.

ويؤلف الرواق الجنوبي الحرم الداخلي، أو باحة الصلاة للجامع، ويخترق هذا الرواق محراب صغير، كان يستعمل لتحديد الجهة الجنوبية (القبلة)[1] للمصلين، الذين كانوا يصطفون في الفناء للصلاة.

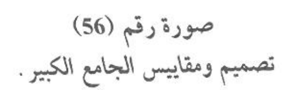
أمّا الحرم ، فهو يتألف من ثلاثة صفوف من القناطر البيضوية الشكل، ويوجد في الصفّ الأوّل تسعة أعمدة، أمّا العامودان اللذان على طرفي هذا الصفّ فهما من الغرانيت، كذلك نجد في الصف الثاني، عشرة أعمدة، وفي الصف الثالث، نجد عشرة أعمدة أيضاً، يوجد بينها ثمانية أعمدة من الغرانيت. وجميع هذه الأعمدة تحمل تيجاناً كورنثية، لا تتناسب مع حجمها ونجد أنّ أكثرها نصب على الأرض بدون قواعد[2].

وفي منتصف الجدار الجنوبي نجد محراباً كبيراً، يتوجه ناحية مكة المكرمة. لا سقف للجامع حالياً، وقد تهدّمت ثلاثة من القناطر التي تؤلّف حرم الجامع، مما يجعلها تهدّد بسقوط القناطر الأخرى. وقد قامت بعثة من المديرية العامة للآثار، بإعادة ترميم هذه القناطر المتهدّمة، وقامت بتدعيم القناطر

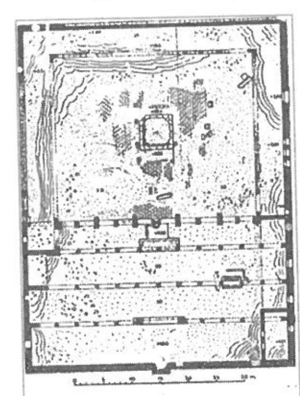
(1) القبلة: وهي الجهة التي يصلّي نحوها المسلمون، وهي اتجاه بيت الله الحرام في مكة، أو (الكعبة).

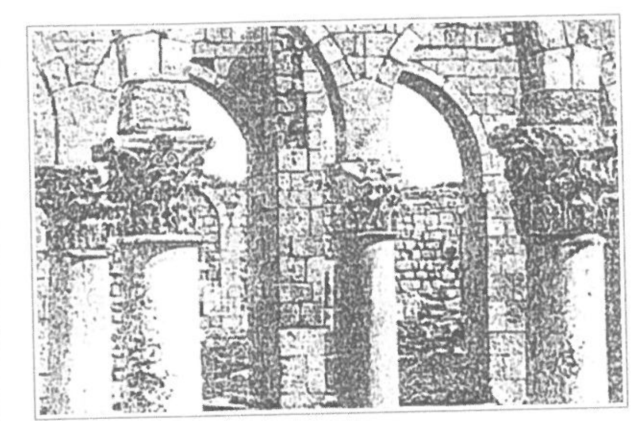
(2) G. Pillement, Liban, Syrie, et chypre, Picard, Paris 1971, p.57.

صورة رقم (55)
أعمدة تحمل تيجاناً كورونثية.



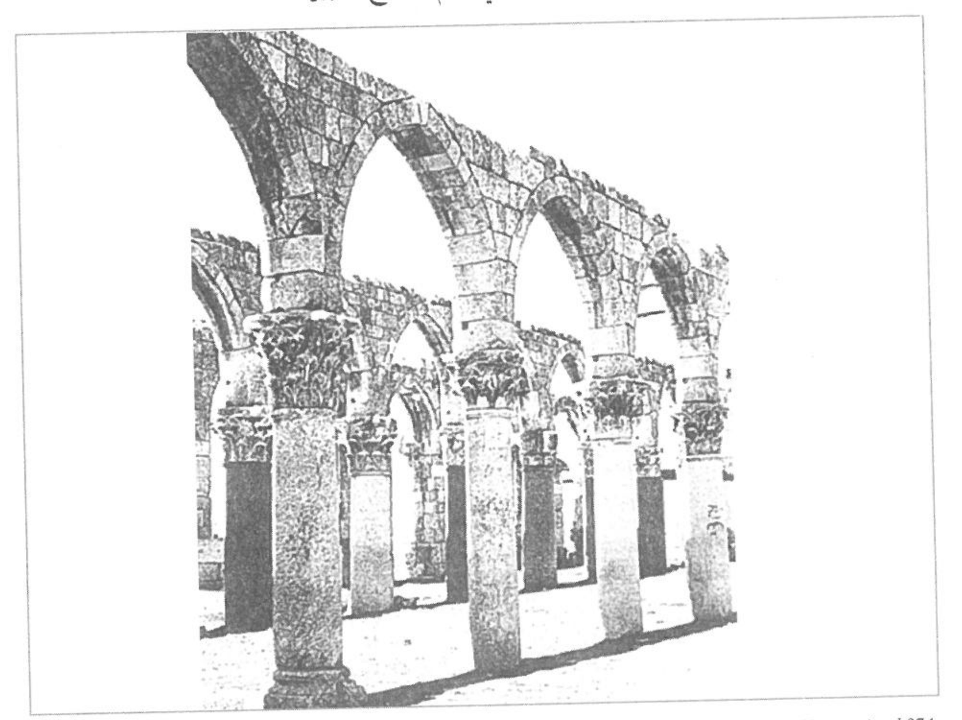
صورة رقم (56)
تصميم ومقاييس الجامع الكبير.





In jidejian N., Baalbek Heliopolis City of the Sun pl. 375.

صورة رقم (57)
صفوف القناطر في حرم الجامع الكبير.



In jidejian N., op. cit. pl 374.

الأخرى. يخترق الحائط الجنوبي سبعة شبابيك، أربعة شبابيك منهم على شكل دائرة، وثلاثة ذات شكل مستطيل، ويبلغ إرتفاع هذا الحائط الجنوبي، حوالي التسعة أمتار. كذلك نجد في الجدار الغربي للجامع أربعة شبابيك، إثنان على شكل دائري، وإثنان مستطيلا الشكل[1].

ويوجد في فناء الجامع بركة للوضوء، وعلى جوانبها أربعة أعمدة، جعلت لتحمل قبة تغطي هذه البركة، ولقد تهدّمت القبة الآن ولم يبق لها أثر. وقد كسيت أرضيّة الجامع ببلاط حجري، أستخرج من المقالع الحجرية حول المدينة، وهذه البلاطات هي بقياس المتر طولاً، والنصف متر عرضاً[2].

2 - جامع رأس العين

يقع هذا الجامع شرقي قلعة بعلبك، ويبعد عنها حوالي كيلو مترين. ويعود هذا الجامع إلى العهد المملوكي، وقد بني في أواخر حكم السلطان بيبرس سنة 676هـ/ 1277م، وقد بناه بلبان الرومي[3] ويوجد إلى الآن نقش بالنسخ المملوكي من أربعة أسطر، نصه كما يلي:

1 - بسم الله الرحمن الرحيم عمر هذا المسجد المبارك العبد الفقير إلى الله سبحانه.

2 - وتعالى بلبان الرومي الدوادار الظاهري العبدي السعيدي أبتغاء رضوان الله تعالى والقربة.

3 - إليه ليكتسب الأجر والثواب وهو دخر له عند الله سبحانه وتعالى وكمل ذلك في شهور سنة ست وسبعين وستماية.

(1) Bulletin du musee de Beyrouth, Paris, liberairie D'amérique et D'orient, Adrien maisonneuve, 11, rue saint sulipice (VI), - T.IX, P. , T. XII, p. 53-54.

(2) قاسم الشماعي الرفاعي، بعلبك في التاريخ، المكتب الإسلامي، بيروت، 1984، ص 44.

(3) G. Wiet, Notes d'Epigraphie syro «Musulmane, librairie Paul Geuthneur, Paris 1924, p. 154.

4 ـ بمباشرة العبد الفقير إلى الله حسن بن محمد الملكي الظاهري السعيدي ونظر العبد الفقير عباس[1].

وفي عام 677هـ/ 1278م، أظهر الملك بركات خان خليفة بيبرس، إهتمامه وعنايته الخاصة بالجامع، ويشير إلى ذلك نص منقوش على الجهات الأربعة لدعامة من دعائم الجامع، وهو مؤلّف من ثلاثة أسطر من النسخ المملوكي، وتنص على ما يلي:

1 ـ بسم الله... جدد هذا العـ...

2 ـ ... (مولا)نا السلطان الملك السعيد الناصر.

3 ـ الدنيا والدين بركات خان قسيم أمير المؤمنين خلد

4 ـ (الله) سلطانه و(أ) عز الله تعالى أنصاره عام سبع وسبعين وستمائة[2].

إنّ الجامع حالياً بدون سقف ومتهدّم، وقد وصفه الرحالة النابلسي أثناء زيارته لبعلبك عام 1112هـ/ 1700م، قائلاً:

«أنه جامع كبير عظيم لكنه خراب، وجدرانه مشيدة بالأحجار الكبيرة، ونجد أعمدة ملقاة على أرضه، وفيه آثار المنبر، وبه محراب عظيم، وله شبابيك كثيرة، وبه جدول لطيف جار من رأس العين»[3].

إنّ الآثار الباقية من هذا المسجد، تدلّ على هندسة فريدة خاصة به، يبلغ طوله خمسون متراً، وعرضه ثمانية وثلاثون متراً، وفي داخله إثنان وعشرون عاموداً، لم توزع في صفوف، إنما أقيمت بموازاة الجدران الأربعة، وعلى بعد خمسة أمتار. وبذلك أصبح المسجد عبارة عن ثلاثة مساجد في مسجد واحد، تتوسطها فسحة دار مربعة طول ضلعها أربعة وعشرون متراً، تخترقها ساقية من نبع رأس العين المجاور للمسجد. فالمسجد الرئيس هو الأمامي فصل بجدار فيه

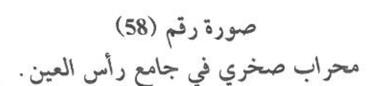
(1) T. Wiegand, op. cit., p.18.

(2) T. Wiegand, Ibid., p.19.

(3) عبد الغني النابلسي، مصدر سابق، ص 101.

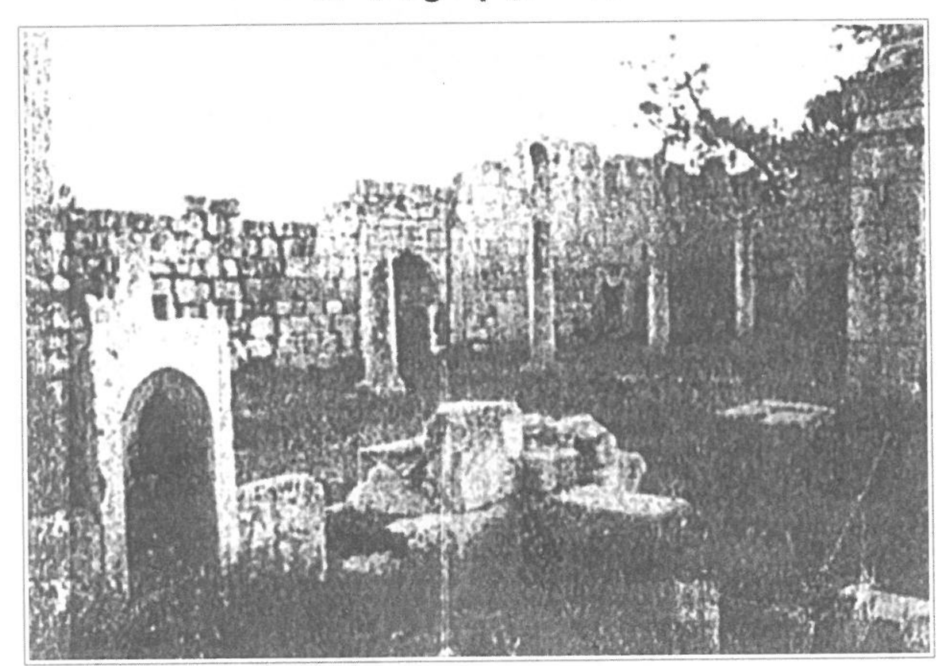
ست قناطر، وعرضه ثلاثة عشر متراً، وإرتفاعه ثمانية أمتار، وفيه محراب ضخم، وبجانبه منبر من الصخر، وله ستة أبواب من الصخر المنحوت، وهي مزخرفة بخطوط هندسية، نقش عليها (على).

أمّا المسجدان الباقيان فهما عبارة عن صفتين، عن يمين الدار وشمالها، بعرض خمسة أمتار، وبطول أربعة وعشرون متراً، ولكلّ صفّة محراب ضخم من الصخر، وعلى جانب المحراب كتابة دراسة غير مقرؤة[1].



صورة رقم (58)

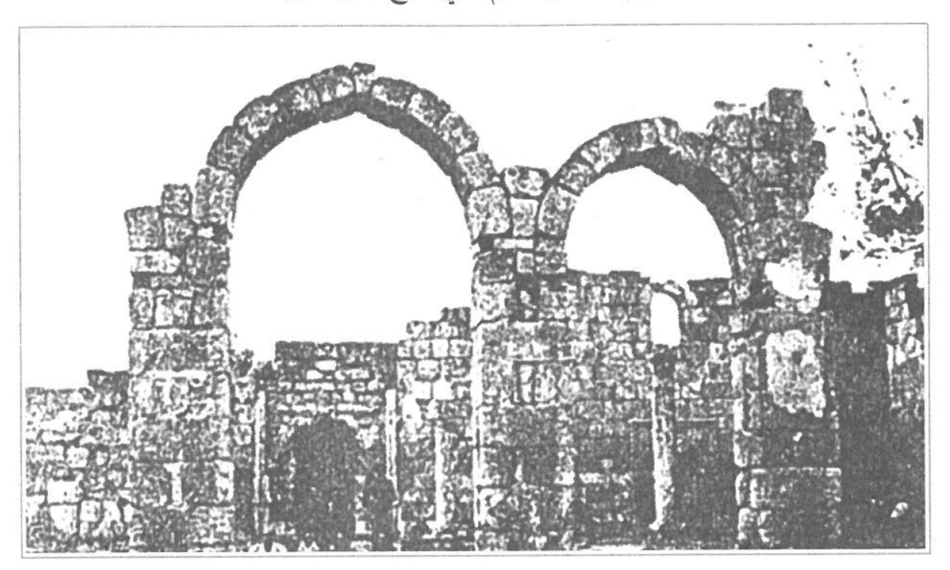
محراب صخري في جامع رأس العين.



عن قاسم الشماعي الرفاعي، بعلبك في التاريخ، ص 615.

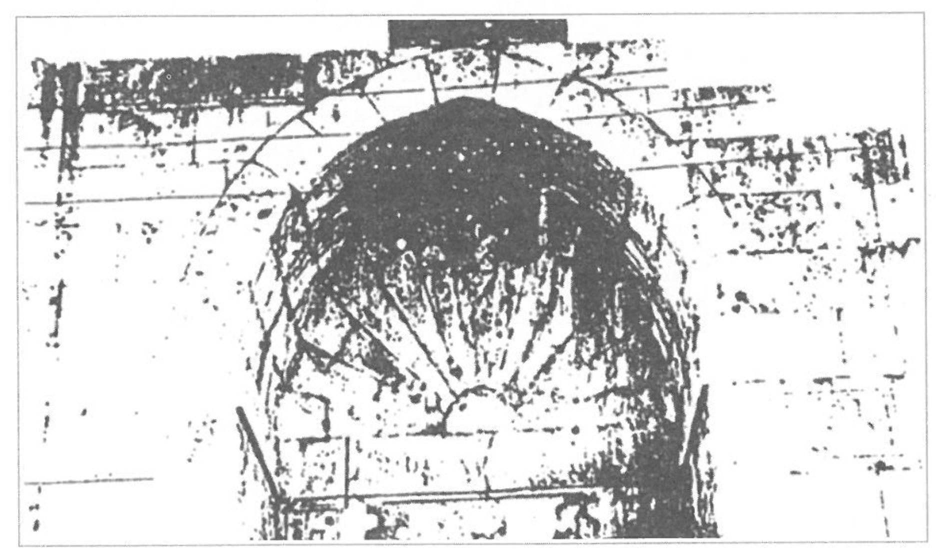
(1) حسن عباس نصر الله، مرجع سابق، ج 2، ص 634.

صورة رقم (59)
محراب وقناطر الحرم، في جامع رأس العين.

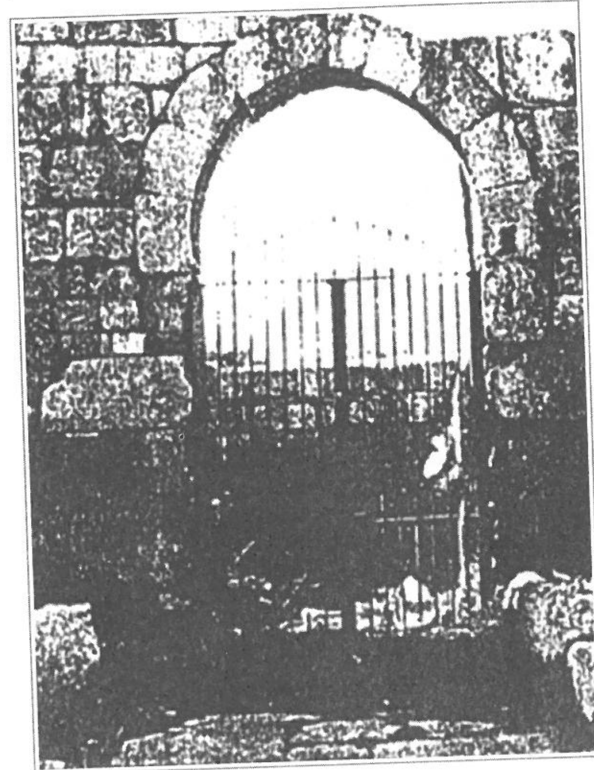


عن قاسم الشماعي الرفاعي، بعلبك في التاريخ، ص615.

صورة رقم (60)
زخرفة مدخل جامع رأس العين.



عن قاسم الشماعي الرفاعي، بعلبك في التاريخ، ص615.



صورة رقم (61)
المدخل الرئيسي لجامع رأس العين.

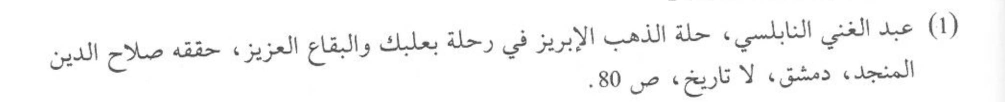
عن قاسم الشماعي الرفاعي، ص615.

3 ـ المسجد المعلق:

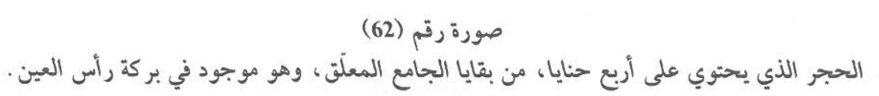
يقع هذا المسجد في نبع الزينة، المسمّى برأس العين، بالقرب من الجامع المملوكي، وقد ذكره الرحالة النابلسي[1]، خلال زيارته الثانية إلى لبنان سنة 1100هـ/ 1688م، بقوله:

«عند تلك العين في ذلك المسجد المعلّق، وهو مكان خراب يدور به الماء من جميع جوانبه».

لم يبق من هذا الجامع سوى حجر فيه أربع حنايا، وهو مرتكز على حجر أسود في نصف البركة، ويوجد كتابة عربية مقلوبة، وهي على الجهات الأربعة للحجر.

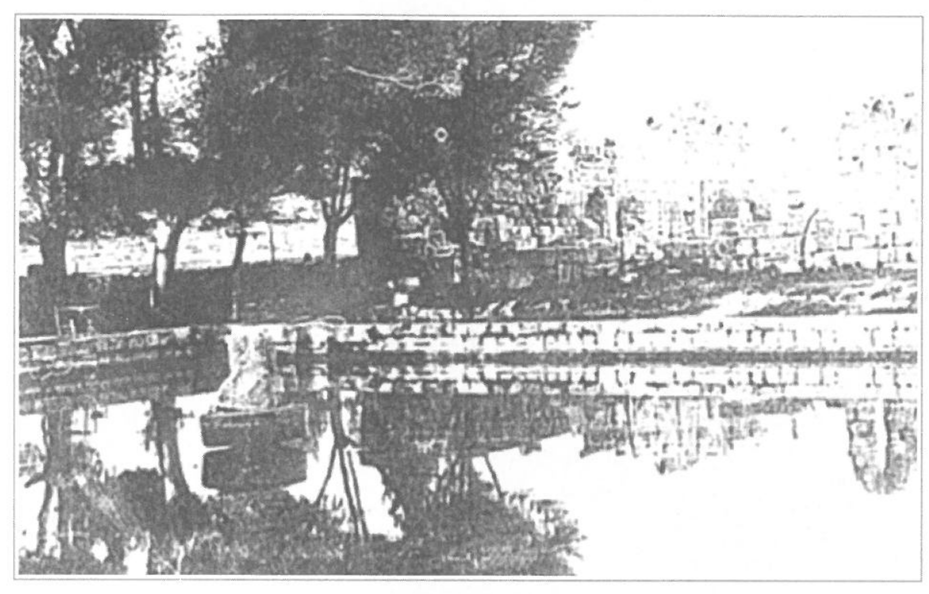


(1) عبد الغني النابلسي، حلة الذهب الإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز، حققه صلاح الدين المنجد، دمشق، لا تاريخ، ص 80.



صورة رقم (62)

الحجر الذي يحتوي على أربع حنايا، من بقايا الجامع المعلّق، وهو موجود في بركة رأس العين.



In jidejian N., op. cit. pl. 383.

وقد وصف النابلسي[1] أيضاً الجامع المعلّق أثناء زيارته الخامسةالى بعلبك سنة 1112هـ/ 1700م، بقوله: «إنه مسجد صغير في وسط الماء يتوصل إليه بجسر، فيه محرابان لطيفان، لكن أحدهما منهدم، وهذا الجامع قد أندثر ولم يبق منه غير القبس والمحراب».

4 ـ جامع إبراهيم الخليل

يقع هذا الجامع قرب برج الأمجد، غرب معبد باخوس. ويذكر إبن العبري: «بأنّ العرب حوّلوا الكنيسة التي بناها الأمبراطور قسطنطين، داخل القلعة إلى مسجد، وسمُّوه بجامع إبراهيم الخليل، ولا تزال آثار هذا الجامع في القلعة ظاهرة حتى الآن»[2].

(1) عبد الغني النابلسي، التحفة النابلسية، ص 101

(2) أبن العبري، مصدر سابق، ص 135.

يبلغ طول الجامع 37متراً، وعرضه 17,50 متراً، ويبلغ عرض الحرم خمسة أمتار، ويدخل إليه من ثلاثة قناطر مهدّمة، لم يبق منها غير الركائز المربعة، فالجامع يتألف من ستة صفوف من الركائز المربعة 125 × 125سنتم، وبإرتفاع خمسة أمتار[1]، ويوجد بالقرب من الحرم بركة صغيرة للوضوء مربعة الشكل قطرها متران. أرض الجامع مرصوفة بحجارة مستطيلة الشكل، ويخترق الجدار الجنوبي محراب صغير، يوجد إلى الجنوب منه باب صغير يؤدّي إلى الطابق الثاني من برج الأمجد، المؤلف من ثلاثة طوابق[2].

الجدار الشمالي مهدّم كلياً، بينما الجدار الجنوبي الغربي يبلغ إرتفاعه الآن حوالي أربعة أمتار، وبالقرب منه للجهة نفسها، أقيمت التحصينات العربية.

نجد كتابة عربية على سبيل، في مدخل الجامع، وهي مؤلفة من أربعة أسطر، تنص على ما يلي:[3].

1 ـ أمر بعمارة هذه ( ) السبيل المبارك.

2 ـ العبد الفقير إلى الله تعالى الأميري.

3 ـ الكبيري المخذومي الجمالي المظفري.

4 ـ نائب السلطنة (الشريفة) ببعلبك المحروسة.

5 ـ الجامع الحنبلي

يقع هذا الجامع في حي غفرة بالقرب من سوق المدينة، وقد سمّي بالجامع الحنبلي نسبة إلى المذهب الحنبلي، أحد المذاهب الأربعة التي أنتشرت في القرن الثامن والتاسع الميلاديين. لم تتوافر المراجع التي تذكر تاريخ بناء الجامع، غير أنّ ويغاند[4]، تحدّث عن تجديده أيام السلطان قلاوون في سنة

(1) ميخائيل الوف، مرجع سابق، ص 144.

(2) مرجع نفسه، ص 144.

(3) T. Wiegand, op. cit., p.21.

(4) محمد كرد علي، مرجع سابق، ج 6، ص 58.

682هـ/ 1283م، ويستدل على ذلك من خلال كتابة عربية، وجدت في الجامع، وتتألف من ستة سطور، تنص على ما يلي:

1 ـ بسم الله الرحمن الرحيم، جدّد هذا الجامع المبارك في أيام مولانا السلطان الأعظم شاهنشاه المعظم.

2 ـ مالك رقاب الأمم سيد ملوك العرب والعجم والترك والديلم الملك المنصور سلطان الإسلام والمسلمين قامع الكفرة.

3 ـ والمشركين محي العدل في العالمين ملك البحرين خادم الحرمين الشريفين أبي المعالي قلاوون قسيم أمير المؤمنين خلدّ.

4 ـ الله سلطانه وشدّ أزره ببقاء ولده ووليّ عهده مولانا السلطان الملك الصالح علاء الدين وأدام (نصر) هما.

5 ـ وجعل البسيطة ملكهما بتولّي الأمير نجم الدين حسن نائب قلعة بعلبك المحروسة ومدينتها ونظر القاضي بهاء.

6 ـ الدين بن خلكان وذلك في العشر الآخر من جمدي الأول سنة أثني وثمانين وستمية والحمد الله وحده.

يتألف حرم الجامع الآن من ستة أعمدة، أربعة منها تيجانها كورنثية، وعامودان من حجر الغرانيت، أمّا مئذنة الجامع فهي مثمنة الأضلاع يبلغ إرتفاعها حوالي سبعة أمتار، وقد أضيف طابق ثاني فوق الحرم[1]. ومنذ تمّ تشييده أتخذ مقراً للتدريس على مذهب الحنابلة. تولّى مشيخته جماعة من علماء يونين أمثال فقيه الإسلام محمد اليونيني المتوفي سنة 658هـ/ 1260م، ثم أخوه موسى المؤرخ توفي سنة 726هـ/ 1325م، ثم إبن شقيقه عبد القادر بن علي اليونيني توفي سنة 747هـ/ 1345م، وغيرهم[2].

---

(1) محمد كرد علي، مرجع سابق، ج 6، ص 58.

(2) أبن قاضي شهبة، الأعلام بتاريخ اهل الإسلام ، المعهد العلمي الفرنسي، دمشق، 1977م، ج 3، ص 457.

بفضل هذا المسجد وعلمائه، غدت بعلبك عاصمة للحنابلة يقصدها طلاب العلم من مختلف الأقطار الإسلامية يقرأون على مشايخها. وروى كلّ من الذهبي، والبرزالي أحد الأعلام الثلاثة في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، أنهما سمعا كثيراً من شيخ مسجد الحنابلة علي بن محمد اليونيني، ومن أخيه موسى[1].

ويتبيّن لنا من الأخبار الواردة، أنه كان مسجداً للصلاة، وداراً للقرآن، ومدرسة للفقه والحديث، وزاوية للتصوّف. وقد زاره الرحالة النابلسي وصلّى فيه سنة 1100هـ/ 1688م، وأجتمع برجل من المغاربة يبشر بالطريقة الشاذلية، وكان يقيم في حجرة شمالية داخل هذا المسجد[2].

وقد رممّ هذا المسجد مراراً في العصور الحديثة، أحدها سنة 1852م، على يد قائمقام بعلبك فرحات باشا.

6 ـ الجامع الصغير

وهو يوجد بالقرب من هيكل الزهرة، ولم تتوافر المراجع التي تذكر تاريخ بنائه، وقد ذكر الوف، وفان برخم، وسوبرنهايم[3]، بأنه توجد كتابة عربية من أربعة أسطر على مئذنة الجامع، وتحمل تاريخ بناء المئذنة، بأمر من الملك الصالح إسماعيل في سنة 638هـ/ 1240م، وهي تنص على ما يلي:

1 ـ أمر بعمارة هذه المئذنة المباركة في أيام مولانا السلطان

2 ـ الملك الصالح عماد الدنيا والدين أبي الفضل إسماعيل

3 ـ العبد الفقير إلى الله عبد الرحمن بن حسان غفر الله له في سنة ثمان وثلثين وستماية.

---

(1) حسن عباس نصر الله، مرجع سابق، ج 2، ص661.

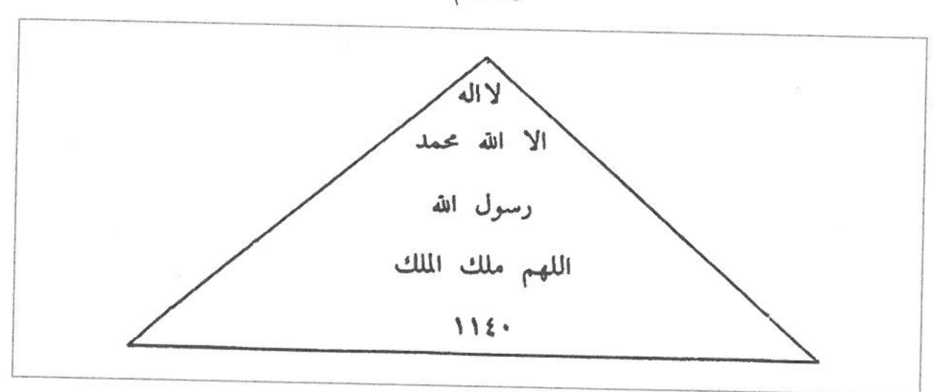
(2) عبد الغني النابلسي، حلة الذهب الأبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز،

(3) ميخائيل الوف، مرجع سابق، (نسخة الوف، وفان برخم، وسوبرنهايم)، عدد 12، المطبعة الأدبية، بيروت، 1929، ص 162.

وقد تمّ إصلاح المئذنة في سنة 1140هـ/ 1728م، ويوجد على باب المئذنة نص من ثلاثة أسطر يشير إلى ذلك.

لم يبق من الجامع حالياً سوى مئذنة، قاعدتها مربعة الشكل وجسمها مثمّن الأضلاع، ويبلغ إرتفاعها سبعة أمتار تقريباً، ونقش عليها المثلث التالي[1]:

صورة رقم (63)



عن حسن عباس نصر الله، تاريخ بعلبك، ص666.

7 ـ مسجد الجوكنداري

قام ببنائه نائب بعلبك محمد بن لاقوش الجوكنداري المتوفي سنة 762هـ/ 1360م، وشاد إلى جانبه حماماً وخاناً[2]، وبذلك أدّى خدمة إلى المسافرين. فهم يبيتون في الخان، ويستحمون في الحمام، ويؤدّون الصلاة في المسجد[3].

8 ـ قبة السعادين

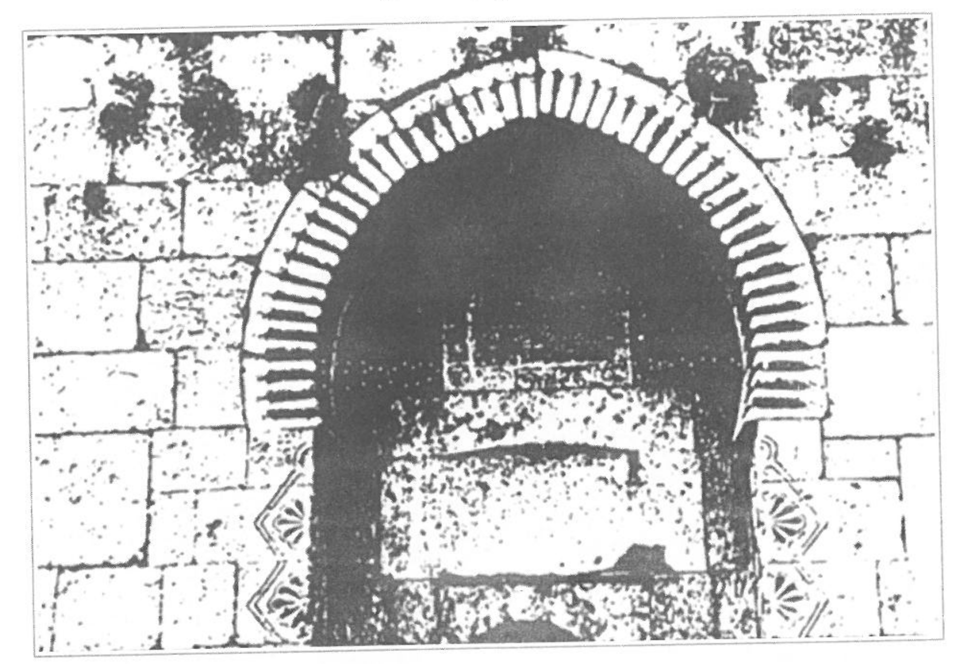
بالرغم من وجود العديد من القباب في مدينة بعلبك، إلاّ أنّ هذه القبة هي

(1) حسن عباس نصر الله، مرجع سابق، ج 2، ص 666.
(2) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 4، ص 281.
(3) حسن عباس نصر الله، مرجع نفسه، ج 2، ص 665.

الوحيدة العائدة الى العهد المملوكي، وقد بنيت في عهد المماليك الجراكسة بأمر من السلطان الناصر فرج في سنة 812هـ/ 1409م، وقد دفن فيها حاكم بعلبك تنكيز بوغا[1].

وتقع شمالي قلعة بعلبك، أمام أبواب المدينة الرومانية. وهذه القبة مستطيلة الشكل، يدخل إليها من الناحية الشمالية، بواسطة بوابة جميلة الشكل، يعلوها قوس رائع شاع أستعماله في العهد المملوكي، وهذا القوس يشبه مجموعة من المجلدات، وقد رصفت بجانب بعضها البعض مما يعطيها جمالاً مميزاً يسترعي الإنتباه[2].

صورة رقم (64)
عقد مدخل قبة السعادين.



قاسم الشماعي الرفاعي، ص618.

(1) G. Wiet, op. cit. p. 154.
(2) ميخائيل الوف، مرجع سابق، ص 19.

كذلك نجد هناك رنكاً لصاحب المبنى، وهو موجود فوق المدخل، وهو عبارة عن أربعة أكواب من الماء وولدين لهما أجنحة.

وقد زخرف هذا المدخل بزهرات على الجانبين، ممّا أضفى عليه رونقاً وجمالاً.

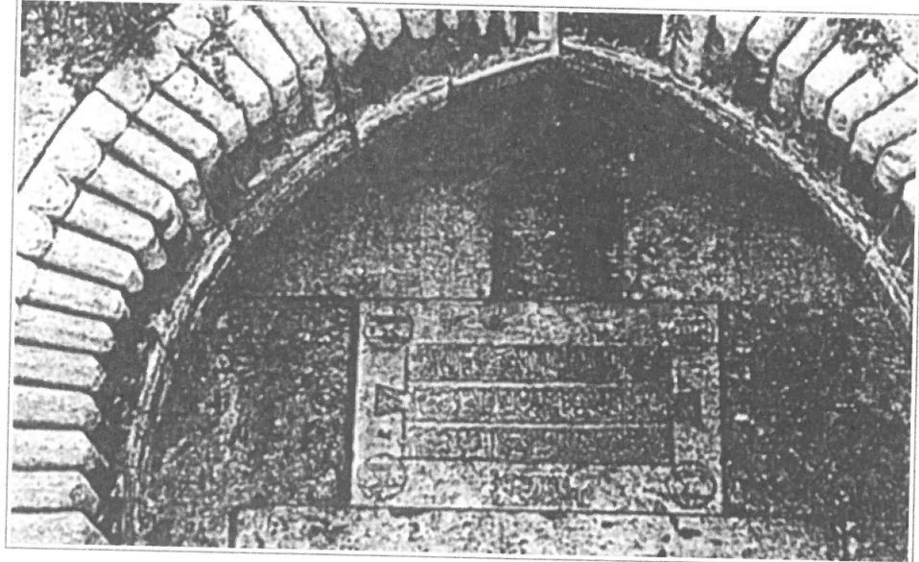
فوق عتبة المدخل يوجد كتابة عربية بالخطّ النسخي المملوكي، وهي تتألف من أربعة أسطر، وتنص على ما يلي:

1 ـ أنشأ هذه التربة المباركة المقرّ الأشرف الشيخ كافل المملكة الشامية.

2 ـ أعز الله تعالى أنصاره وجعلها وقفاً محبساً على المقر الأشرف المرحوم يشبك.

3 ـ تغمده الله برحمته ومن جاوره المقر المرحوم جركس وكان الفراغ في سنة أثني عشر وثمانماية.

صورة رقم (65)
الكتابة فوق مدخل قبة السعادين.



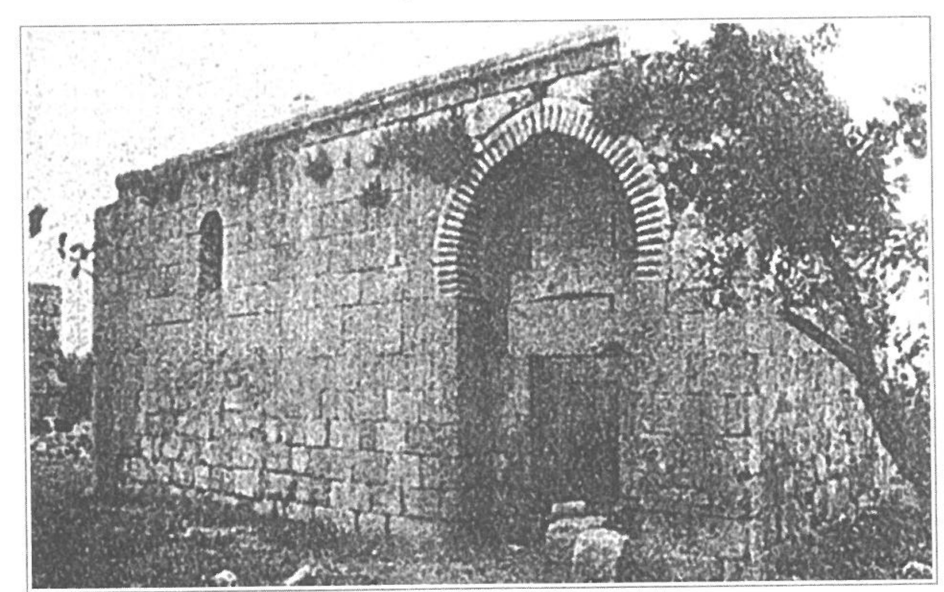
عن قاسم الشماعي الرفاعي، مرجع سابق، ص 618.

4 ـ وكان المشيد شيخ القوم جلال[1].

تتألف هذه القبة من حجرتين، يبلغ طول الأولى ستة أمتار بعرض أربعة، في إحدى جوانبها نافذة تطلّ على الجهة الغربية، ويفصل الحجرة الأولى عن الثانية قنطرة كبيرة، ونجد في الجدار الجنوبي للحجرة الثانية محراب وعلى جانبيه نافذتين، كذلك نلاحظ وجود ستة نوافذ في هذه الحجرات، ثلاثة منها في الجهة الغربية، وثلاثة في الجهة الشمالية[2].

كانت هناك قبة فوق ضريح حاكم بعلبك المملوكي تنكيز بوغا[3]، ولكنها الآن غير موجودة، نستدلّ على ذلك من بقايا الحنايا الركنية التي هي الأساس للإنتقال إلى عمارة القبة.

صورة رقم (66)
واجهة قبة السعادين.



عن حسن عباس نصر الله، تاريخ بعلبك ص211.

(1) T. Wiegand, op. cit., p.27.

(2) G. Wiet, op. cit., p. 154.

(3) ميخائيل الوف، مرجع سابق، ص 19.

9 ـ زاوية ومسجد الزغبرية

تقع على بعد مئة متر شمالي مسجد الشيخ محمود، والى جانبها يوجد سبيل الزغبرية. حيث توجد الكتابة التالية:

«لا إله إلاّ الله محمد رسول الله. أمر بتجديد هذا السبيل المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى الأميري الكبيري المخدومي الجمالي المظفري، نائب السلطنة الشريفة ببعلبك المحروسة. وذلك بتاريخ سنة ثمان وأربعين وسبعماية»[1].

10 ـ زاوية البدوي

كانت تقوم على نهر رأس العين، جنوب مسجد النهر. وكانت مقراً مهماً للمتصوّفية.

11 ـ زاوية الخضر

كانت مزاراً يقصده الناس للتبرّك والصلاة، ودفن بجوارها الكثير من أعلام بعلبك[2].

12 ـ الخانقاه الكبير أو المدرسة النجمية

أنشأها نجم الدين أيوب، والي بعلبك من قبل الأتابك زنكي سنة 534هـ/1139م، عنيت بالقرآن والفقه، وأختصّت بالدّراسات الصوفية. وبفضلها أنتشرت الصوفية في بعلبك وأشتهر أمرها[3].

شاهدها إبن خلّكان وذكرها بقوله: «ورأيت بمدينة بعلبك خانقاه لطيفة حسنة الوصف يقال لها النجمية»[4].

ولم يبقى لها أثر في أيامنا.

---

(1) G. Wiet, op. cit., p.154, T. Wiegand, op. cit., p. 27-28.

(2) حسن عباس نصر الله، مرجع سابق، ج 2، ص 683.

(3) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1988م، ج 2، ص 175.

(4) أبن خلكان، وفيات الأعيان، ج 1، ص 261.



الفصل السابع

طرابلس في العهد المملوكي

أشهر المعالم الأثرية الدينية المملوكية في مدينة طرابلس:

1 ـ الجامع المنصوري الكبير.

2 ـ مسجد عبد الواحد المكناسي.

3 ـ جامع طينال.

4 ـ مسجد العطار.

5 ـ مسجد البرطاسي.

6 ـ مسجد التوبة.

7 ـ مسجد أرغون شاه.

8 ـ مسجد الأويسية.

9 ـ جامع الطحام.

المدارس المملوكية الدينية في مدينة طرابلس:

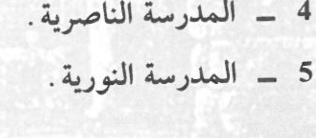
1 ـ المدرسة القرطاوية.

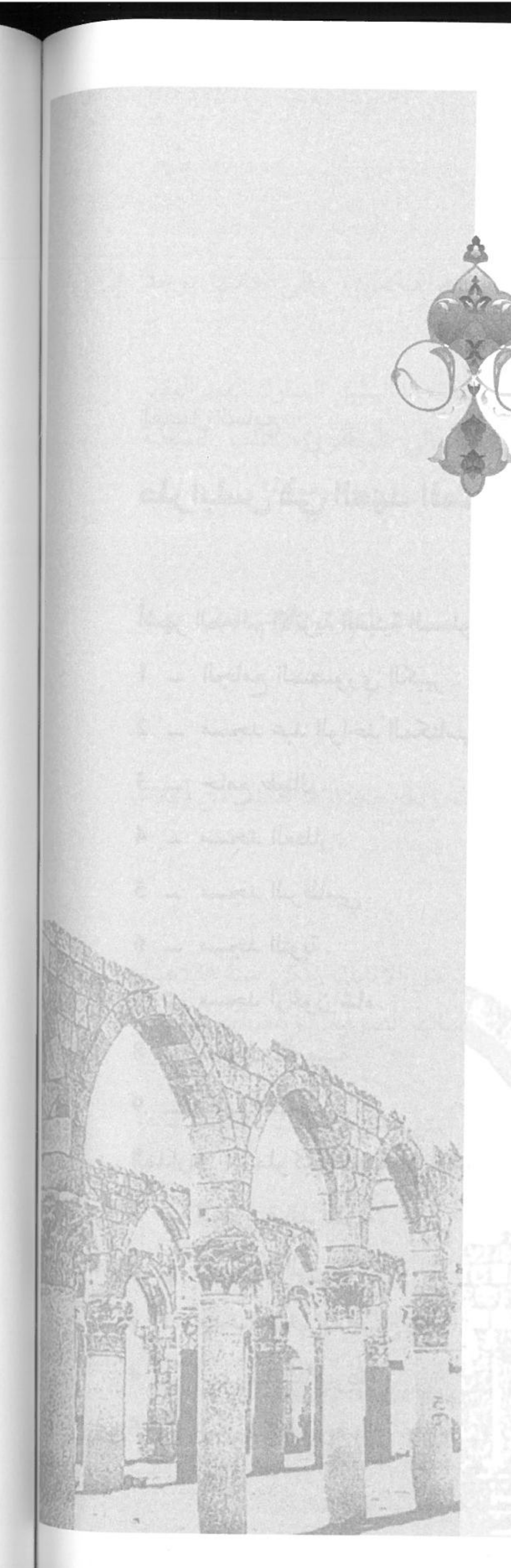
2 ـ المدرسة الزريقية.

3 ـ مدرسة الخيرية حسن.

4 ـ المدرسة الناصرية.

5 ـ المدرسة النورية.





6 ـ المدرسة الشمسية.

7 ـ مدرسة المشهد الأثرية.

8 ـ المدرسة الطواشية.

9 ـ المدرسة السقرقية.

10 ـ المدرسة الخاتونية.

11 ـ المدرسة العجمية.

12 ـ المدرسة الظاهرية.

13 ـ مدرسة سبط العطار.

14 ـ المدرسة القادرية.

15 ـ المدرسة الماردانية.

16 ـ المدرسة العمرية.

17 ـ مدرسة القاضي الإسكندري.

18 ـ مدرسة النسر بن عجبور.

19 ـ مدرسة الوتار.

20 ـ زاوية القاضي القرمي.

21 ـ زاوية الدمرداش.

22 ـ الخانقاه.

مدينة طرابلس في العهد المملوكي

بعد أن إستولى السلطان المنصور قلاوون على مدينة طرابلس سنة 688هـ/ 1289م، أمر بدكّ معالمها[1]. بكلّ ما فيها من العمائر والدور والأسواق الحصينة التي كانت عليها. ثم أمر ببناء مدينة جديدة على بعد حوالي ميلين من المدينة القديمة، والهدف من ذلك هو التمكن من حماية المدينة الجديدة من الهجمات الصليبية البحرية[2].

ويعود الفضل في عمارة هذه المدينة الجديدة إلى جهود معظم نواب السلطنة المملوكية الذين تعاقبوا على نيابة هذه المدينة، حيث تم بناء الجامع المنصوري الكبير، وأقيمت فيه الصلاة والخطبة في عهد الأشرف خليل، وأثناء نيابة عز الدين أيبك الخزندار سنة 693هـ/ 1294م، وينسب إلى الأمير سيف الدين أسندمر الكرجي نائب طرابلس[3] بناء العديد من أبنية هذه المدينة، حيث

(1) إبن الفرات، مصدر سابق، ج8، ص80-81.

(2) البستاني، دائرة المعارف، ج15، ص115.

(3) هو الأمير سيف الدين اسندمر الكرجي، نائب طرابلس لفترتين الأولى من سنة 698هـ/ 1297م، والثانية من سنة 700هـ/ 1299م الى 709هـ/ 1308م. وإليه يعود الفضل في بناء معظم المدينة المملوكية.

ـ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص 15-16

أسس فيها حماماً وقيسارية وطاحوناً ومساكن للمماليك، كذلك أعاد بناء جزءٍ كبير من قلعة سان جيل[1].

وقد بلغت هذه المدينة الجديدة في منتصف القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، ذروة عظمتها وإزدهارها العمراني، فإتسعت أعمالها حتى إعتبرت من أعظم النيابات بعد نيابتي دمشق وحلب ومن الرحالة المسلمين الذين زاروا طرابلس في العهد المملوكي، الرحالة إبن بطوطة الذي زارها في سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون، حيث كان نائبها آنذاك الأمير سيف الدين طينال الحاجب ووصفها بقوله: «ثم وصلت إلى مدينة طرابلس وهي إحدى قواعد الشام وبلدانها الضخام تخترقها الأنهار وتحفّها البساتين والأشجار ويكتنفها البحر بمرافقه العميمة والبرّ بخيراته المقيمة ولها الأسواق العجيبةب وهي مدينة البناء»[2].

أما إبن الشحنة فيصفها بقوله: «ولعمري أنها بلدة لطيفة ومدينة أقطارها خفيفة ومحاسنها عديدة وماؤها دافق ومرعاها موافق وأزهارها باسمة ومناظرها لمادة الآسار حاسمة. . .»[3].

وسرعان ما بدأت هذه المدينة الحديثة تأخذ ملامحها العمرانية بخططها وأسواقها، حيث اختصّت هذه الأسواق بحرفها وصناعاتها. وأوّل ما نشأت في هذه المدينة هي حارة السويقة[4]. وهي قلب المدينة الجديدة وفيها كان يقوم سوق السلاح. وبعد فترة وجيزة إمتدّت المدينة شمالاً وغرباً وجنوباً، وأقيمت بها الأسواق والمنشآت العديدة. وقد أقيمت هذه الأسواق والأماكن على النمط العمراني لبقيّة مدن الشام، فكانت ضيقة الشوارع متعرّجة لإتقاء الغارات ولتسهيل عملية الدّفاع عن المدينة. ذلك لأنّ السلطان المنصور قلاوون لم

(1) إبن تغري بردي، مصدر سابق، ج9، ص240.

(2) إبن بطوطة، الرحلة، ص64-65.

(3) إبن الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، المطبعة الكاثوليكية، 1909، ص264.

(4) عمر تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري، ج2، ص255-256.

يرغب ببناء سور حول هذه المدينة، حيث استعاض المماليك عن هذه الأسوار بإتباع نظام جديد وهو بناء سلسلة من الأبراج على طول الساحل بالإضافة إلى عمليّة التعرّج في الشوارع والأسواق، وقد أمنوا لهذه المناطق الأبواب الضخمة، وذلك لحمايتها بإقفالها ليلاً. وكانت المياه تأتيها عن طريق قناة للمياه من عمل الصليبيين، وتحمل إسم قناطر البرنس. وكان في داخل المدينة أحياء لغير المسلمين منها: حي النّصارى ولا يزال هذا الحي حتى الآن يعرف بهذا الإسم، وكان هناك حيّ لليهود يقع شمالي حي النصارى[1].

وقد روعي في بناء المدينة أن تكون المدارس والحمامات والخانات بجوار بعضها البعض، وذلك لحاجة التجار والمسافرين والوافدين الذين ينزلون في الخان، ويذهبون إلى الحمام، وبعدها يؤدّون الفرائض في المساجد.

وقد تميزت مدينة طرابلس بسهولها الواسعة[2]، وقد تم إستثمار هذه الظاهرة الطبيعية على أوسع مدى، وتم بالتالي زراعة الأشجار المثمرة التي ملأت البساتين المجاورة لمدينة طرابلس وسفوح الجبال المجاورة للمدينة. لذلك إمتازت طرابلس بكثرة حاصلاتها الزراعية، وبمصنوعاتها الناتجة عنها.

وقد وصفها الرحالة ناصر خسرو بقوله: «وحول المدينة المزارع وكثيراً من قصب السكر وأشجار النارنج والموز والليمون والتمر، وكان عسل السكر يجمع في طرابلس، وأنها مشيّدة بحيث تطلّ على البحر من ثلاثة جوانب»[3]. ولم تكن هذه المزروعات وليدة العصر المملوكي، بل كانت معروفة من قبل. فقبل الغزو الصليبـي إشتهرت هذه المدينة بالجمع بين الثمار المصرية والشامية، فإنّ زراعة قصب السكر وأشجار النخيل هي من المزروعات التي إشتهرت بها مصر[4].

(1) عمر تدمري، تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك، دار البلاد للطباعة والإعلام في الشمال، طرابلس، 1394هـ-1974م، ج2، ص46-49.

(2) إبن تغري بردي، مصدر سابق، ج12، ص116.

(3) ناصر خسرو، سفر نامه، ص 8.

(4) عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، دار المعارف، 1967، ص378.

وكانت مدينة طرابلس في عصر المماليك تعتبر بحق من أشهر مدن بلاد الشام في زراعة قصب السكر، والذي يُعَدّ من أهمّ ثرواتها الزراعية إلى جانب الكروم والجوز والنخيل والموز.

وقد إشتهرت طرابلس بصناعة الصابون العادي والمطيب. وقد كان الصابون الطرابلسي من الموارد الإقتصادية الرئيسة الذي كان يدّر الربح الكثير لهذه المدينة، حيث كانت تقوم بتصديره إلى مختلف الأنحاء والأقطار.

كذلك إشتهرت بصناعة السكر، وقد ذاعت شهرة السكر الطرابلسي، بحيث كانت أوروبا تستورد السكر من طرابلس[1]. وقد إشتهرت طرابلس كذلك بصناعة المنسوجات الحريرية، ويقول المقريزي: «بأنه كان في طرابلس أربعة آلاف نول لحياكة الحرير الطبيعي المنتج محلّياً»[2].

وقد شهدت طرابلس تقدماً ملموساً في زخرفة الموزاييك، حيث كانت تزين به واجهات الأماكن الدّينية، وأنّ أبهى وأجمل ما صنع في فن الموزاييك في مدينة طرابلس، هو ما زين به مدخل المدرسة القرطائية[3]. هذا إلى جانب صناعة الحلي والأواني المنزلية[4].

وقد عرفت المدينة أيضاً صناعة الزجاج العادي والملوّن، ونشاهد ذلك في نوافذ وقباب المساجد والمدارس في هذه المدينة. وفيها حوض لصناعة السفن[5].

وإلى جانب الزراعة والصناعة، كان لطرابلس كذلك مركز مرموق في عالم التجارة، وكان لموقعها الجغرافي ولوجود ميناء مهم فيها، أثره الكبير في

(1) فيليب حتي، لبنان في التاريخ، ص413– 414
(2) المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص748.
(3) Bruce Condé, Tripoli of Lebanon, Beyrouth, 1961, p.p. 38-39.
(4) إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص235.
(5) المقريزي، مصدر نفسه، ج3، ق1، ص113

إزدهار الحركة التجارية لهذه المدينة، حيث أصبحت سوقاً رئيساً للتصريف والإستيراد في آن واحد.

وقد إزدهرت طرابلس تجارياً في العهد المملوكي، وبلغت مركزاً مرموقاً بعد أن تلاشى أمر عكا وصور وأنطاكية وجبيل والبترون وصيدا، كقواعد تجارية، وإنحسار التجارة في هذا العهد في ثلاثة مدن ساحلية فقط هي: طرابلس واللاذقية وطرسوس[1].

ولم تتأثّر مدينة طرابلس بتلك الفترة من الركود مع الغرب، وذلك بسبب قضاء المماليك على الصليبيين في بلاد الشام، وذلك لأن البنادقة حرصوا على الإبقاء على صلات الودّ مع المماليك[2]، حرصاً على مصالحهم التجارية. وبذلك أصبح ميناء طرابلس من أعظم موانئ بلاد الشام نشاطاً في التجارة.

وتعتبر طرابلس من أكثر المدن اللبنانية كثافة بالمساجد والمدارس، وهذا ما لاحظه الرحالة عبد الغني النابلسي أثناء زيارته لمدينة طرابلس، حيث يقول: «إنّ ببلدة طرابلس المحميّة مدارس وزوايا ومساجد لا تعدّ ولا تحصى، وأنه سمع من أهلها أنه كان بها 360 مدرسة»[3].

أشهر المعالم الأثرية الدينية والتعليمية المملوكية في مدينة طرابلس:

1 ــ الجامع المنصوري الكبير

يعتبر هذا الجامع من أهم مساجد طرابلس وأكبرها، يقع في وسط المدينة، على العقار رقم 88 من منطقة النوري العقارية.

(1) A B DEL-Nour, Antoine, Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie ottomane (XVI - XVIII) siecle. Publication de l'Universite libanaise, Beyrouth, 1982. p.p. 306-307.
(2) عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص383–384.
(3) عبد الغني النابلسي، التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، حققه وقدم له هربيرت بوسه، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1971، ص72.

أقامه السلطان الأشرف خليل في سنة 693هـ/ 1294م، على أنقاض الكنيسة المعروفة بإسم سان جان. وكانت الكنيسة قد أقيمت في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، عندما كان ريموند دي سان جيل يحاصر مدينة طرابلس من حصن سان جان المعروف بإسمه القائم على تلّة الحجّاج. ولكن هذه الكنيسة تهدمت سنة 1170م، عقب الزلزال العنيف الذي ضرب مدينة طرابلس، وقد شاهد الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي الذي زار طرابلس سنة 1171م، آثاره المدمرة وما أحدثه من تخريب ودمار كبير فيها[1]. حيث يقول: « وقد أصاب طرابلس قبل مدّة وجيزة زلزال شديد أدّى إلى هلاك خلق كبير من اليهود وغيرهم. انهارت عليهم الدور والحيطان فطمرتهم»[2].

وقد تعرّض الجامع لعدد من الزيادات والتعديلات، حتى أصبح بناءً إسلامياً لا أثر فيه للتأثيرات المسيحية إلاّ في مئذنته الحالية، وبعض الآثار المتبقية في المدخل الشمالي وفي صحن الدار.

عُرف هذا الجامع بإسم الجامع المنصوري، وهو منسوب بهذه التسمية إلى السلطان المنصور قلاوون، فاتح طرابلس ومحرّرها من الصليبيين. غير أن الذي أمر ببناء هذا الجامع هو السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، لأنّ السلطان المنصور قلاوون توفي في العام التالي لفتح المدينة سنة 689هـ/ 1290م، وكان من المفروض أن يسمّى الجامع، بالجامع الأشرفي نسبة إلى الأشرف خليل، ولكن ذكرى فتح طرابلس على يد المنصور قلاوون، كان عاملاً قوياً في إطلاق إسم المنصوري على الجامع تيمناً بإسم الفاتح العظيم. وقد تم بناء الجامع في سنة 693هـ/ 1294م، في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، بعد مضي خمس سنوات على فتح طرابلس[3].

(1) الياس القطار، نيابة طرابلس في عهد المماليك، ج2، ص423.

(2) بنيامين التطيلي، الرحلة، ترجمة عزرا حداد، طبعة بغداد، ص87-88.

(3) عمر تدمري، مرجع سابق، ج2، ص57.

وقد سجل تاريخ بناء الجامع على لوحة مثبتة على الباب الرئيسي للجامع وهي تحتوي على النص التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الأعظم سيد ملوك العرب والعجم، فاتح الأمصار ومبيد الكفار، الملك الأشرف صلاح الدنيا والدّين، خليل قسيم أمير المؤمنين إبن مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي، خلّد الله ملكه، في نيابة المقر العالي الأميري الكبيري العزي عز الدين أيبك الخزندار الأشرفي المنصوري نائب السلطنة بالفتوحات والسواحل المحروسة عفا الله عنه وذلك في سنة ثلاث وتسعين وستمائة والحمد لله وحده»[1].

ثم نجد تحت هذا النقش وعلى يسار الداخل، نقشاً كتابياً آخر يشير إلى إسم مهندس الجامع، وينص على ما يلي:

«تولى عمارة هذا الجامع المبارك العبد الفقير لله تعالى سالم الصهيوني إبن ناصر العجمي عفا الله عنه».

وفي عام 715هـ/ 1315م، وبعد مرور عقدين من الزمن على تأسيس الجامع، أمر السلطان محمد بن قلاوون نائبه في طرابلس كستاي الناصري[2]، ببناء الأروقة الداخلية المطلة على صحن الجامع، كما تبين من النص المنقوش في أعلى الدعامة الوسطى من دعامات الرواق الشرقي، وهو ينص على ما يلي:

(1) SOBERNHEIM Mortiz, Corpus inscriptionum Arabicarum, Institut Français du Caire, T. XXV, 1909, p.49.

التميمي وبهجت، ولاية بيروت، دار لحد خاطر، بيروت، 1979، ج2، ص118

(2) هو الأمير سيف الدين كستاي الناصري، أمير سلاح، نائب السلطنة بطرابلس، والمتوفي بها سنة 716هـ، ترقى في خدمة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، حتى أصبح أمير سلاح، ففوض إليه السلطان نيابة طرابلس سنة 714هـ. فباشرها بعد نائبها تمر الساقي بعفة. كان حسن السيرة شديد البأس قوي البدن، كان معجباً بنفسه شديد الغضب، يقال أن الناصر سمه في زمانه. ودفن في طرابلس.

إبن حجر، الدرر الكامنة، ج3، ص353-354.

«بسم الله الرحمن الرحيم، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر. أمر بإنشاء هذه الرواقات تكملة الجامع المبارك، مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد المظفر المنصور ناصر الدنيا والدين محمد إبن قلاوون خلّد الله ملكه، في نيابة المقر الشريف العالي السيفي كستاي الناصري كافل المملكة الشريفة الطرابلسية، أعزّ الله أنصاره، بإشارة المقر العالي البدري محمد بن أبي بكر شاد الدواوين المعمورة، أدام الله نعمته. وكان الفراغ منه في شهور سنة خمس عشر وسبعماية. صلّى الله على سيدنا محمد. تولّى عمارته العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد بن حسن البعلبكي».

وفي سنة 716هـ/ 1315م، أمر نائب طرابلس الأمير قرطاي بن عبد الله بتزويده بمنبر خشبي يزدان بزخارف ملّونة كما يتبيّن من النقش الكتابي الموجود على المنبر، وهو ينص على ما يلي:

«أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى قرطاي بن عبد الله الناصري[1] أثابه الله، فأقام به من ماله بكتوان بن عبد الله الشهابي، تقبل منه وذلك في شهر ذي القعدة سنة ست وعشرين وسبعمية».

وفي سنة 883هـ/ 1479م، أمر نائب طرابلس أزدمير الأشرفي[2] بترخيم محراب الجامع، ودوّن ذلك على رخامة فوق المحراب الجانبي من الجهة الشرقية لبيت الصلاة، وتنص على ما يلي:

«أمر بترخيم هذا المحراب المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى أزدمير الأشرفي، كافل المملكـة الشريفـة الطرابلسية المحروسة أعزّ الله أنصاره في أيّام

(1) Liebich, H., The Architecture of Mamluk city of Tripoli, Knada, 1975, p.19.

(2) هو الأمير أزدمر بن مزيد الظاهري جقمق قريب السلطان الأشرف قايتباي، تولى نيابة طرابلس في سنة 880هـ، عوضاً عن الأمير يشبك البجاسي، واستمر بها حتى سنة 884هـ، حيث نقل إلى نيابة حلب، واستقر بدلاً عنه الأمير يردبك المعمار، وكانت وفاته سنة 899هـ. - إبن أياس، بدائع الزهور، ج4، ص459، 486.

مولانا وسيّدنا قاضي القضاة الشافعي الإمام في مستهل ربيع الآخرة سنة ثلاث وثمانين وثمانماية بمباشرة محمد الشاد»[1].

وقد ذكر الرحّالة عبد الغني النابلسي هذا الجامع بقوله:

«الجامع متسع الجهات، قيل إنّ أصله كنيسة، وله في فنائه صفف ورواقات، وله في كل جانب من جوانبه الأربع باب عظيم.

وهو في وسط المدينة، وفي وسط فنائه بركة ماء كبيرة، عليها قبة عظيمة بأربع عضائض، كل عضاضة يحوطها أربع رجال»[2].

وقد ذكره التميمي بقوله:

«ومما يغلب على الظّنّ أنّ هذا الجامع كان كنيسة في زمن الصليبيين، فحوّلها السلطان قلاوون إلى جامع، وبابه الذي كان مبنياً على الطّراز الغوتي، قلب في زمن خليل الأشرف بن قلاوون، وبني على الطراز العربي»[3].

ـ وصف الجامع

إنّ بناء الجامع يعود حسب التواريخ المدوّنة على نقوشه إلى العهد المملوكي ونرى طريقتهم في البناء بارزة وواضحة في مجمل محتوياته، حيث تمّ إستعمال ركائز مربعة تستند إليها السقوف بشكل عقد ترتكز على قوسين متقاطعين بين أربعة ركائز. ويكون السقف غير مسطح بين جوانب هذه الأقواس. وقد عمد المماليك إلى بناء الجامع بالقرب من الآثار القديمة، لكي يُصار إلى الإفادة من الحجارة الموجودة في بنائه.

ولا يستبعد الدكتور عبد العزيز سالم في كتابه «طرابلس الشام» أن يكون السلطان المنصور قلاوون، قد قنع في بناء بيت الصلاة في نطاق جدران الكنيسة

(1) عمر تدمري، مرجع سابق، ج2، ص74.

(2) عبد الغني النابلسي، التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، ص57.

(3) التميمي وبهجت، مرجع سابق، ج2، ص118.

الخارجيّة التي كانت موجودة منذ العهد الصليـبي في مكان بناء الجامع، وذلك لكي يفيد من برجها اللومباردي فيتخذه مئذنة للجامع، ولعلّه إستغلّ جدران الكنيسة القديمة وبابها الرئيس وبرجها بعد أن إنتزع منه النواقيس في بناء الجامع. غير أن إبنه وخليفته الأشرف خليل، حوّل البوابة القوطية الطراز التي تتوسّط جدار الجامع الشمالي إلى باب إسلامي الأسلوب، ويحتمل أن تكون البوّابة قد إنتزعت من الكنيسة القديمة ووضعت في مدخل الجامع المنصوري، لتكون شاهداً ماثلاً يسجل إنتصار المسلمين على الصليبيين.

والبوابة بشكلها الحالي هي: عقد مدبب، سنجاته يتناوب فيها اللونان الأبيض والأسود، ويحتضن العقد صفان من زخرفة هندسية متصلة على شكل تعرجات، ويبرز الأعلى من هذين الصفين أفاريز منبعجة بارزة، تستند على إفريز أفقي يمتدّ على شكل رفّ تحت صفي الدلايات من الجانبين، ويقوم هذا الإفريز على عامودين تاجهما من الطراز القوطي[1].

هذا الإطار البارز ذو الطابع اللاتيني يحيط بباب إسلامي الطراز، فإنّ عقده المدبب يمتدّ جانباه إلى أدنى البوابة، بحيث يؤلفان عضادتي البوابة، ويستمر تناوب اللونين الأسود والأبيض في صفوف أحجاره، أما عتبته فهي قطعة واحدة من الحجر تستند على مسندين محدّبين، وطبلة العقد صمّاء يكسوها ملاط خشن المظهر تتوسطه زخرفة نباتية، وهي تعود للعصر العثماني كتب تحتها:

«لا إله إلاّ الله محمد رسول الله»[2].

أما تخطيط الجامع فيتبع النظام القديم للمساجد الجامعة، حيث يشتمل على ثلاث مجنبات تحيط بصحن مستطيل وعلى بيت للصلاة، وتعلو هذه المجنبات قبوات متعارضة، وتطل هذه المجنبات على الصحن بعقود منكسرة مثلثة الرؤوس، تقوم على دعائم ضخمة مربعة القاعدة، وتتألف المجنبة الشمالية

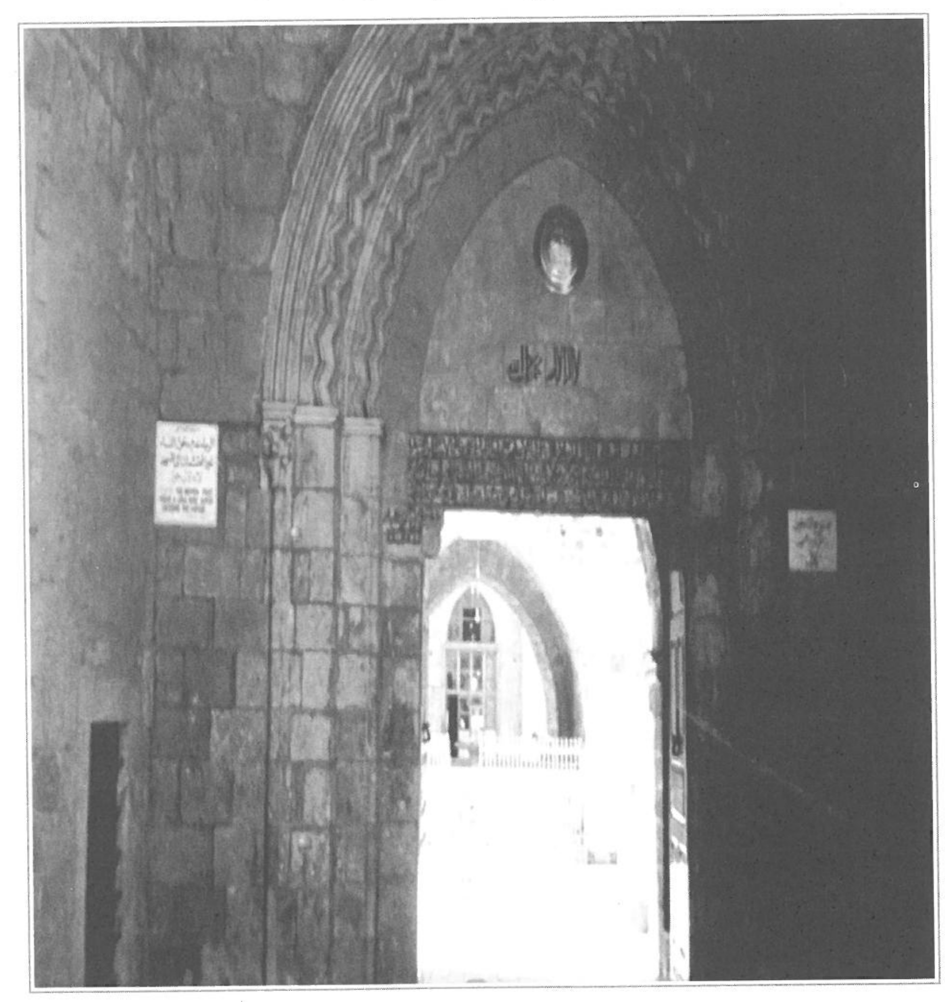
(1) عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص401.

(2) عمر تدمري، مرجع سابق، ج2، ص62.

من سبعة عقود، أما المجنبات الشرقية والغربية فهي ضمن خمسة عقود أكثر إتساعاً من عقود المجنبة الشمالية، وأرضها أعلى من أرض الصحن. وهذه المجنبات أقيمت في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة 715هـ/ 1315م، في نيابة المقرّ الصّيفي كستاي الناصري. وعهد بأعمال البناء إلى أحمد بن حسن البعلبكي، وقد سجل ذلك في نقش، تم ذكره سابقاً.

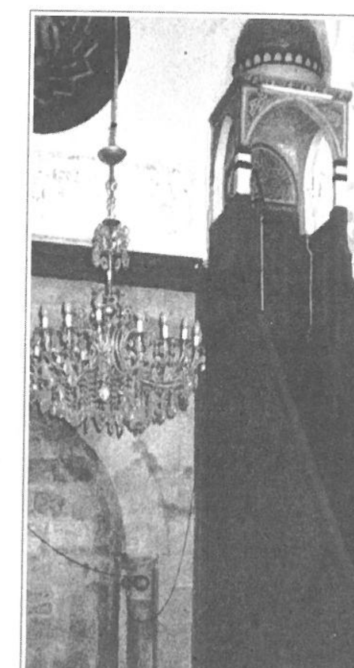
صورة رقم (67)

البوابة الرئيسة للجامع المنصوري، وهي قوطية الطراز.



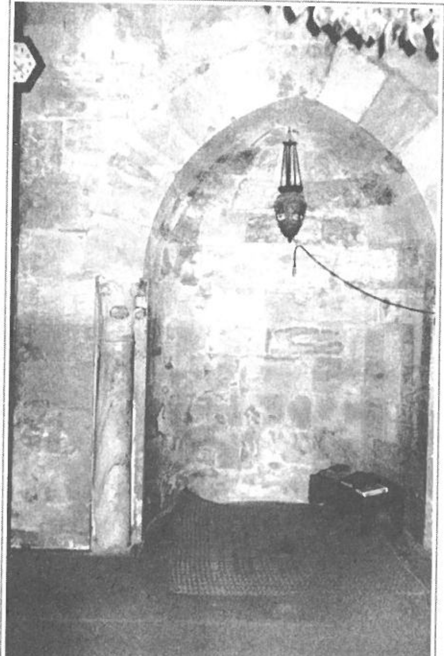
تصوير خاص بالباحث

صورة رقم (68)
منبر الجامع.



تصوير خاص بالباحث

صورة رقم (69)
محراب الجامع الكبير.



تصوير خاص بالباحث

وتطلّ على الصحن من الجهة الجنوبية واجهة بيت الصلاة بسبعة عقود أكثر إتساعاً من عقود المجنبة الشمالية، ويشتمل بيت الصلاة على بلاطين موازيين لجدار القبلة، ينقسمان إلى أربعة عشر عامود، ويعلو كلّ عامود قبوة متعارضة، فيما عدا عامود المحراب فتعلوه قبة قائمة على مقرنصات مقوّسة، ويفصل البلاطين صفّ من الدعائم الضّخمة عددها ستة دعائم. وترتفع الأطراف الشرقية والغربية لبيت الصلاة عن أرض الوسط قليلاً[1]. يتوسط الحائط الجنوبي محراب كبير قائم على عتبة عقد من الحجارة ترتكز على عامودين رخاميين، لهما تاج مزخرف، وفوق المحراب نقشت دائرة كبيرة داخل الجدار، وأحيطت

(1) عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص404-405.

بثلاثة خطوط دائرية متعرّجة، وهذه الخطوط على طبقات بحيث تشبه مع الدائرة الغائرة في وسطها وردة متفتحة، أو زهرة دوار الشمس. وعلى يمين المحراب ينتصب منبر الجامع الخشبي بطول ثلاثة أمتار وعرض متر واحد، تزينه زخرفة هندسية ملوّنة، وما زال هذا المنبر منذ أن أقيم في سنة 726هـ/ 1325م، يحتفظ حتى الآن بجماله ومتانته وزخرفته[1].

وفي مقابل المحراب، وعلى الحائط الشمالي للمسجد، ثبتت سدّة خشبية قطعت وزخرفت على شكل المحراب. ولبيت الصلاة ستة أبواب كبيرة تنفتح على الصحن، قائمة في الحائط الشمالي للمسجد، وله باب واحد يفتح على متفرّع من سوق العطارين في الحائط الشرقي، وله أيضاً مدخل صغير من الجهة الشمالية الغربية يصل إلى غرفة إستقبال صغيرة، أقيمت لكي تكون مقراً للأثر النبوي الشريف، وهو عبارة عن شعرات من أثر الرسول (ص)، جلبت في عهد متأخّر ولا يعلم مصيرها الآن رغم أنّ صندوقها لا يزال إلى الآن.

ويعلو المدخل الشرقي لبيت الصلاة لوحة نقش عليها النص التالي:

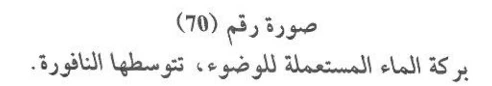
«الحمد لله رسم بالأمر العالي السلطاني الملكي المؤيدي أبي النصر شيخ، أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه وصرفه بإبطال المظالم المحدثات على أهل طرابلس من التحجير على قوت العباد من القمح واللحم والخبز والطرح وغير ذلك بحيث لا يعود ويبطل ذلك جمعية في هذه الأيام الزاهرة، خلّد الله سلطانها وأدام قدرته على المسلمين بتاريخ خامس عشر شهر ربيع الأول سنة سبعة عشر وثمانماية والحمد لله»[2].

وعلى عتب العقد النصف دائري بالباب الشرقي للمسجد المؤدّي إلى الصحن نقش كتابي ينص على ما يلي:

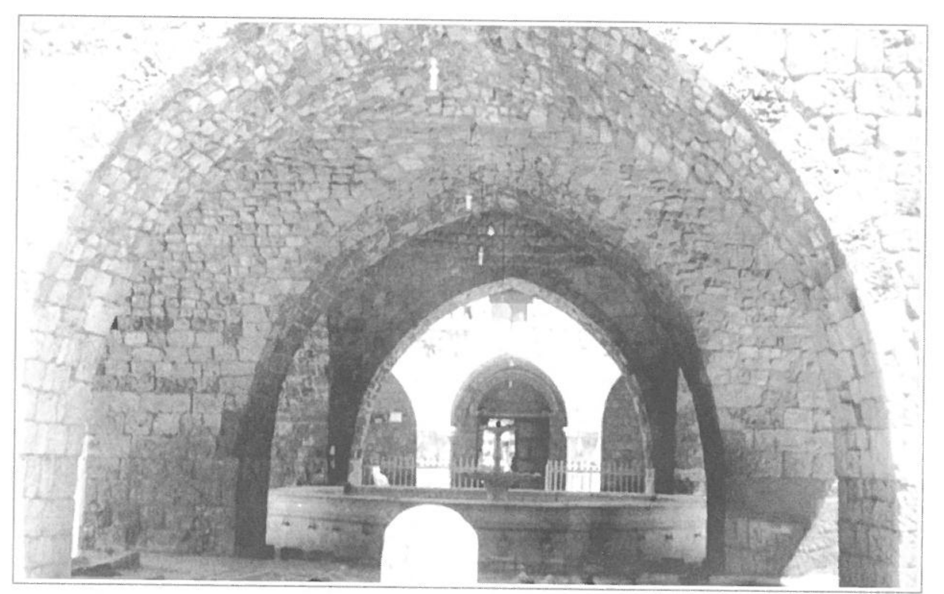
«برسم الدخان وما يستأديه من يكون متكلماً في ديوان الحجوبية الكبرى،

(1) عمر تدمري، مرجع سابق، ج2، ص70.

(2) SOBERNHEIM, op. cit., p. 56.



صورة رقم (70)
بركة الماء المستعملة للوضوء، تتوسطها النافورة.

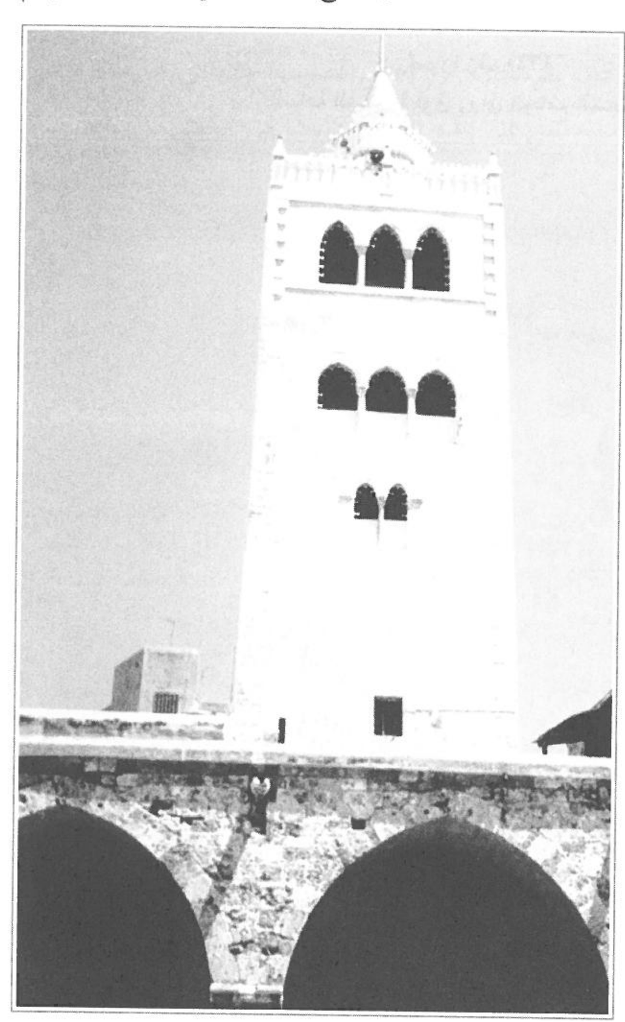


تصوير خاص بالباحث

وإستادارية الديوان الشريف من سكرّ وخلّ وغير ذلك المعقود ذلك وبإعفائها من ذلك جمعية ومن طرح الصابون والزيت والبلس ومن جميع ما يحدث من ديوان النيابة والديوان الشريف وغيرها من جميع الكلف والمخادم الجارية بها العادة قديماً والحادثة مستقبلاً ومنع خازندار الكافلي من التعرّض إلى ذلك وأخذ شيء منه وإستقرارها في حماية سيّد المرسلين سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلم على حكم المربع الشريف، وأخذ ينقش ذلك في رخام جامع الكبير بطرابلس بأمر الكافلي المشار إليه بالمملكة الشريفة، وأن يسّطر ذلك ثاني شهر الله الحرام سنة ثمان وتسعمائة والحمد لله»[1].

ويتوسط صحن الجامع بناء معقود من أسطوانتين، الشمالي منها تتوسطه نافورة للوضوء بأعلاها قبة، والجنوبي ينتهي بمحراب صغير، وهو مكان

(1) SOBERNHEIM, op. cit., p. 56.

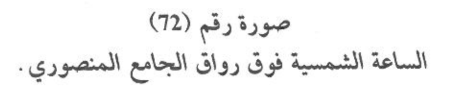


صورة رقم (71)
مئذنة الجامع المنصوري، المؤلفة من أربعة طوابق.

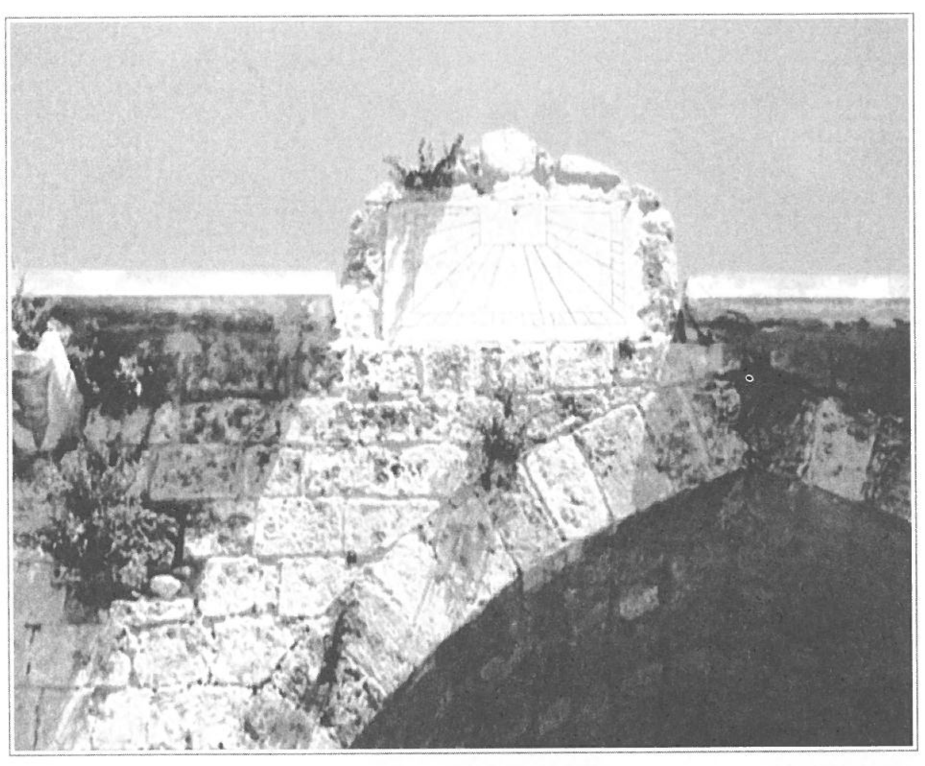
تصوير خاص بالباحث

مخصّص للصلوات وخاصة عندما يكون المسجد مقفلاً . وهذا القسم صغير المساحة قليل الإتساع.

أما مئذنة الجامع فهي البرج اللومباردي للكنيسة القديمة، وهي تتألف من أربعة طوابق، الطابق الأول خالٍ من النوافذ، أما الثاني فله نافذتان في جهاته الأربع، أمّا الطابق الثالث ففيه عشرة نوافذ، ثلاثة منها في الجهة القبلية، وثلاثة في الجهة الشمالية، وفي كلّ من الجهتين الشرقية والغربية نافذتان، وكذلك في



صورة رقم (72)
الساعة الشمسية فوق رواق الجامع المنصوري.



تصوير خاص بالباحث

الطابق الرابع. وهذه النوافذ عبارة عن عقود ترتكز على أعمدة رخامية ذات طراز صليـبي في الطابق الثاني والثالث فقط.

ويقع إلى شمالي هذا البناء بئر قديمة، كانت تستعمل لتغذية المسجد وملحقاته بالماء، وهي مهجورة الآن.

أمّا قمة المئذنة فتأخذ شكلاً يشبه القمع، في أسفله دائرة تحيط بالبرج الأسطواني الذي يعلوه الشكل القمعي. وهذا القسم حديث البناء. ويوجد جنوبي المئذنة فوق الأروقة الشمالية غرفة صغيرة تعلوها قبة صغيرة أيضاً، وعلى يمينها في أعلى واجهة الأروقة الشمالية المطلّة على صحن الجامع، لوحة بها

خطوط تمثل ساعة شمسية، كان يتوسطها من أعلى قضيب حديدي غليظ، وهو بمثابة عقرب الساعة. ومن المحتمل أنّ هذه الغرفة كانت في وقت ما مخصّصة لمؤقت الجامع، حيث يراقب ظلّ الشمس على اللوحة الشمسية القريبة منه، ليعطي الإشارة إلى المؤذنين بإعلان وقت الصلاة[1].

القيمة التاريخية والأثرية للمسجد

يعتبر الجامع المنصوري الكبير في طرابلس من أكبر المساجد الجامعة في لبنان ومن أقدمها أثراً. وهو يروي بمختلف أقسامه تاريخ المدينة تقريباً بما تعاقب عليها من ولاة في العهد المملوكي. ويجمع الجامع المنصوري في تخطيطه النظام القديم للمساجد الجامعة، من مجنبات حول الصحن، وبيت للصلاة يمتد طولاً من الشرق إلى الغرب، ومن بناء القبوات المتعارضة والعقود المنكسرة المثلثة الرؤوس والدعائم الضخمة ذات القاعدة المربعة.

وتبيّن لنا ملحقات بناء المسجد من غرف ومدارس، الإهتمام الكبير بالعلم وأهله، فالغرف الموجودة عند المدخل الشمالي وفوقه، كانت مقرّاً للقيمين على المسجد.

والوضع العام للمسجد يدلّ على أنه بناء إسلامي لا أثر فيه للتأثيرات المسيحية، مما يدل على أنه بني بناءاً جديداً، وأنه لم يبنى داخل كنيسة. ولم يبق من الأثر الصليـبي فيه، سوى البرج والبوّابة الشمالية، وقد حوّرا تحويراً كلياً، بحيث يظهران بالمظهر الإسلامي الصرف.

أما المظهر العام للجامع فلا يدلّ على عناية فائقة ببنائه، فجدرانه مغطاة حالياً بطبقة من الجير والباطون والطرش الأبيض، وقد أهمل تزيين المسجد تماماً. ولكن إذا أمعنا النظر في المحراب والقبة الكبيرة التي تعلوه، والقبوات والعقود القائمة في داخل المسجد، يشعر الباحث أنه إذا ما أزيلت هذه الطبقة

(1) عمر تدمري، مرجع سابق، ج2، ص60.

الكلسية وأظهرت الأحجار على طبيعتها، فإن أثراً كبيراً سيظهر وفناً رائعاً سيبرز، وهو لا يقلّ جمالاً عما نشاهده في سقف جامع طينال أو البرطاسي.

2 ـ مسجد عبد الواحد المكناسي

وهو من أقدم مساجد طرابلس المملوكية بعد الجامع المنصوري الكبير، وهو مسجد صغير يقع خلف سوق الصاغة، بناه الشيخ عبد الواحد المكناسي عام 705هـ/ 1306م، وهو من الأولياء الذين نزلوا مدينة طرابلس في أوائل القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، بعد أن استولى عليها السلطان قلاوون، وكان مشهوراً بالورع والتقوى والزهد[1].

ويتميز هذا المسجد ببساطته التامة ونظام بنائه أقرب ما يكون إلى نظام العمارة المغربية منها إلى السورية، ويتوسّط صحن الجامع نافورة ماء يحيط بها حوض، وكان على إحدى جوانب الحوض لوحة تاريخية، وعندما أزيل الحوض ثبتت تلك اللوحة على الوجه الشمالي لإحدى عضاضات الحرم المطلّة على صحن الجامع، وهي من ثلاثة أسطر بالخطّ المغربي وتنص على ما يلي:

«أنشأ هذا المكان المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الواحد المكناسي غفر الله له ولوالديه ولمن كان السبب فيه وللمسلمين في تاريخ سنة خمس وسبعماية»[2].

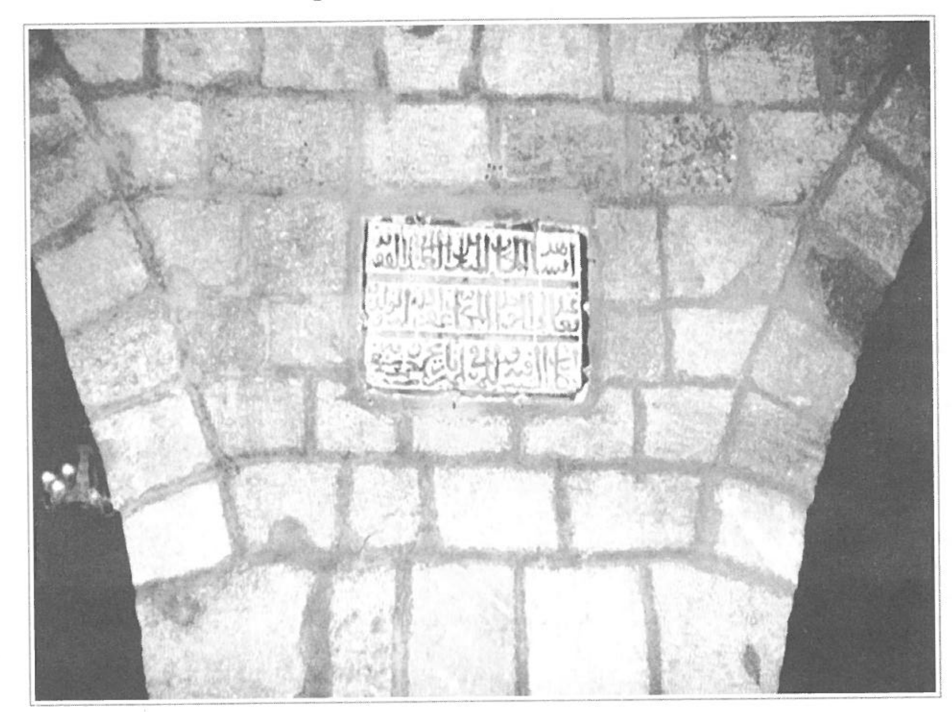
وتعلو بيت الصلاة قبوات متعارضة تقوم على عضاضات ضخمة مربعة الشكل، وهي أقرب إلى عقود مساجد المغرب، أمّا عن قبة المسجد فهي مضلّعة ترتكز على عنق من طابقين، السفلي منهما يحوي أربعة نوافذ والعلوي ثماني نوافذ. وهي أقرب إلى القباب التونسية منها إلى القباب السورية[3].

(1) عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص407.
عمر تدمري، مرجع سابق، ج2، ص155.

(2) SOBERNHEIM, op. cit., p.85.
Liebich, H., op. cit., p.29.

(3) عبد العزيز سالم، مرجع نفسه، ص 408.
عمر تدمري، مرجع نفسه، ج2، ص157.

صورة رقم (73)
اللوحة التاريخية، التي تؤرخ لبناء الجامع.



تصوير خاص بالباحث

وطابع المئذنة يختلف عن الطابع المألوف في المآذن الطرابلسية، وهو الشكل المربع، إذْ أنها تتكونّ من ساق مثمنّة في أعلاها قبة، وتزدان جدران المئذنة بنافذة من كل جهة بحيث يكون مجموع نوافذها ثماني نوافذ.

ومما يلفت الإنتباه، أنّ النابلسي[1] الذي عدّد مساجد طرابليس الجامعة في القرنين السابع عشر والثامن عشر ميلاديين، لم يذكر هذا الجامع، مع العلم بأنه ثاني جوامع المدينة من حيث القدم، مما يحمل على الظنّ بأنه لم يكن من المساجد الجامعة، أو أنه كان مهملاً في ذلك التاريخ.

وكان موقوفاً بهذا الجامع مصحف مخطوط بيد عثمان بن محمد

(1) عبد الغني النابلسي، مصدر سابق، ص75-76.

السباطي، إنتهى منه سنة 715هـ/ 1315م، وهو من أندر المخطوطات الطرابلسية، وقد كتب بخط الثلث، وعليه زخر فات رائعة ملوّنة ومطعمة بماء الذهب[1].

3 ـ جامع طينال

وهو من أهم مساجد طرابلس بعد الجامع المنصوري الكبير، ويطلق عليه العامة اليوم إسم مسجد طيلان، وقد ذكره الرحالة إبن بطوطة في وقائع رحلته أثناء زيارته إلى مدينة طرابلس بقوله:

«ويقع في ظاهر المدينة في منطقة باب الرَّمل بجانب مقبرة الشهداء، ويشبه هذا الجامع مساجد القاهرة من حيث زخارفه وعناصره المعمارية»[2].

أقام هذا الجامع الأمير سيف الدين طينال نائب طرابلس سنة 726هـ/ 1325م، على أنقاض كنيسة من العهد الصليـبي، هدّمت بعد أن استولى السلطان قلاوون على مدينة طرابلس، وظلّت هذه الكنيسة المتهدّمة مهجورة إلى أن جاء إلى سدة النيابة الأمير سيف الدين طينال، فقام بتحويل أنقاضها إلى مسجد عرف بإسمه[3].

ويعتقد بعض الأثريين أن عقود الجامع، وتيجان العامودين المركزيين، هي من النوع الشائع في العمارة القوطية، ويرون أنّ مئذنته كانت في الأصل، برج الأجراس التابع للكنيسة الكرملية، علماً بأنّ المئذنة تشبة بدرجها مئذنة عبد الرحمن الناصر بالمسجد الجامع في قرطبة[4].

ـ وصف الجامع

إنّ أوّل ما يقع عليه نظر الزائر لجامع طينال عامودين منتصبين أمام

(1) عمر تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري، ج2، ص321.
(2) إبن بطوطة، الرحلة، ص64.
(3) Liebich, H., op. cit., p. 51.
(4) الياس القطار، مرجع سابق، ج2، 431.

المدخل الخارجي للمسجد. وهذان العامودان قد طالتهما يد الخراب بحيث لم يبق منهما سوى القاعدة.

ويقسم الجامع إلى قسمين منفصلين: شمالي وجنوبي.

الشمالي عبارة عن بيت للصلاة، ويشتمل على ثلاثة بلاطات، الأوسط أكثر إتساعاً من البلاطين الآخرين.

والبلاط الأوسط مؤلف من اسطوانتين تعلوهما قبتان الأولى نصف كروية تقوم على ثلاثة طوابق من المقرنصات، يعلوها عقد مزين بأثنتي عشرة نافذة مرتبة على الشكل التالي:

واحدة مفتوحة والثانية مغلقةب، في حين أنّ القبّة الثانية هي نصف كروية تنتهي بفتحة في أعلاها أيضاً، لكنها تقوم على مقرنصات مقوّسة، وعقدها مزدان بثلاث نوافذ.

وهاتان القبتان تقومان على أربعة أعمدة مرتبة على الشكل التالي: إثنتان منهما في الوسط، والإثنتان الباقيتّان ملاصقتان للحائط المقابل، الذي تقوم في وسطه بوابة ضريح طينال.

وتزين رؤوس تلك الأعمدة تيجان، وهي من النوع الشائع في العمارة القوطية، مما يدفعنا إلى الإعتقاد مع الدكتور عبد العزيز سالم أنها من الطراز القوطي حيث يقول:

«ويغلب على الظّنّ أنّ هذين العامودين، وتاجيْهما من الكنيسة القديمة»[1].

أما أرنست كونل فيقول في كتابه (الفن الإسلامي):

«وأحياناً كانت العقود المدبّبة تتخذ أشكالاً مقتبسة من الغرب، كما هو

(1) عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص410.

الشأن في مباني المماليك، متأثرة بالطراز القوطي، الذي لا شكّ أنه دخل فلسطين عن طريق الصليبيين»[1].

أما جدار الجامع فهو خالٍ من الزخرفة. وتتخلّل جدار البلاط الأوسط ثلاثة نوافذ، النافذة الوسطى أكبر من النافذتين الجانبيتين، وجميع النوافذ مزودة بالزجاج، وكانت قديماً مجهزة بالزجاج الملوّن الذي يلطف من حرارة الشمس لوفرة عددها. ويفضي البلاط الأوسط إلى القسم الجنوبي من الجامع، حيث يوجد ضريح الأمير طينال، ويمتاز ببوابة ملتصقة بقاعدة القبة وتعتبر من أجمل البوابات المملوكية.

ويعلو باب المدخل نقش كتابي يدوّن تاريخ إنشائه، وهو ينص على ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك المقر الأشرفي العالي المولوي الأميري الناصري نائب السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسة إتماماً في أيام الملك الناصر في شهر رجب سنة ست وثلاثين وسبعماية»[2].

كذلك نجد نقش كتابي آخر بالقرب من النقش السابق، وهو عبارة عن وقفية سجل فيها إسم النائب، وكذلك حدود الوقفية المذكورة، وهو ينص على مايلي:

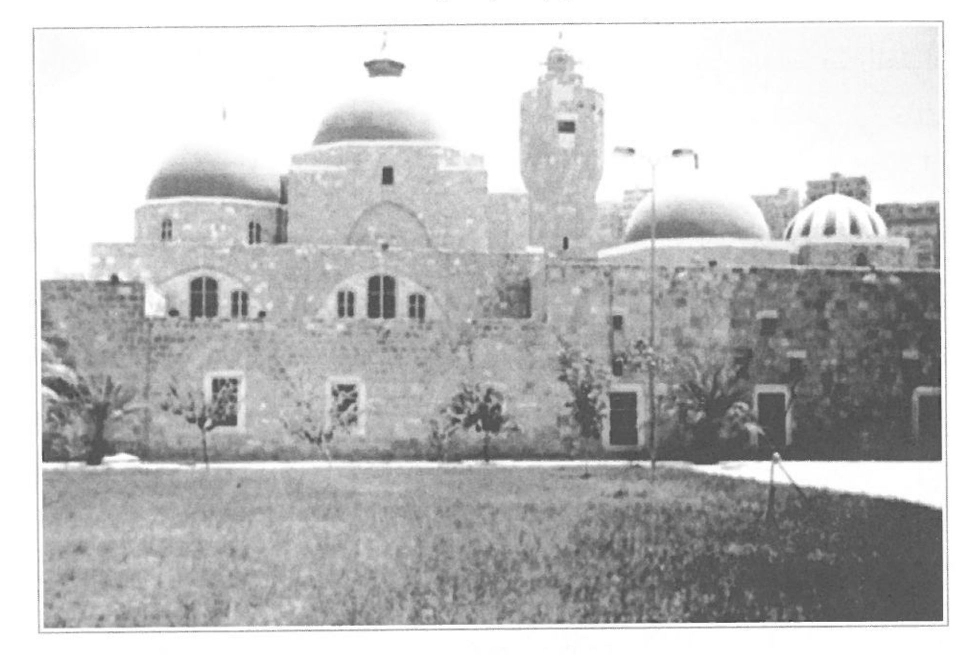
«بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بإنشاء هذا الجامع المعمور بذكر الله تعالى مولانا المقر الأشرفي العالي المولوي الكافلي السيدي المالكي المخذومي السيفي طينال المالكي الناصري، كافل المملكة الشريفة الطرابلسية بلغه الله آماله، وتقبل في الصالحات أعماله ووقف عليه لمصالحه المعينة في كتاب وقفه جميع البستان المعروف قديماً بالطنطاش بسقي طرابلس، وجميع الحانوتين الملاصقين لسوق السلاح بجوار الحمام المعروف بأسندمر، وهي الآن ملك

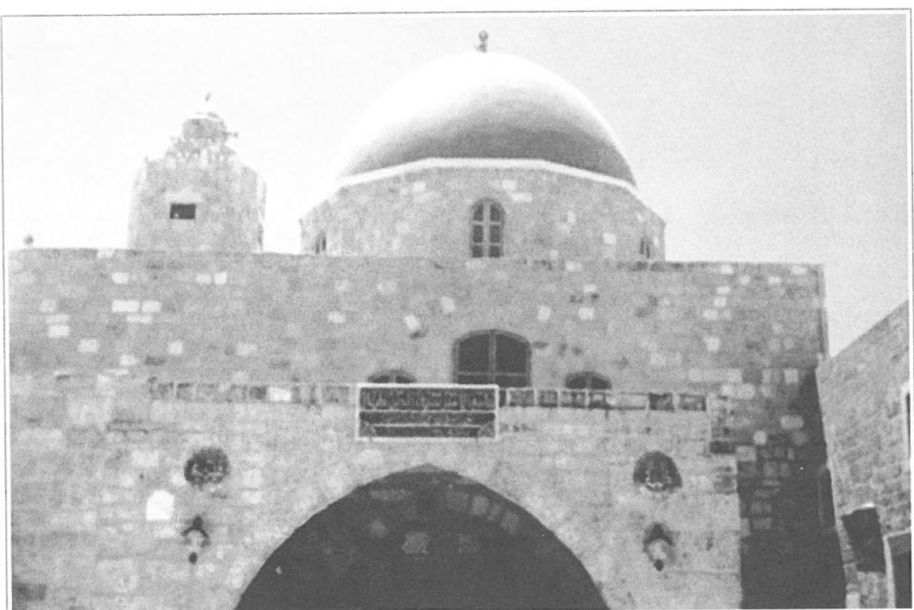
---

(1) أرنست كونل، الفن الإسلامي، ص108.

(2) Liebich, H., op. cit., p. 54.

صورة رقم (74)
قباب مسجد طينال.





تصوير خاص بالباحث

الواقف وجميع ثلث المخازن المعروف بدار الوكالة القديمة. وجميع القرية المعروفة بأرزونية من أعمال عرقا بجون طرابلس. وشرط أنه مهما فضل من ريع هذا الوقف عن أرباب وظائفه ومصالحه المعينة في كتاب يصرف للفقراء والمساكين المقيمين في طرابلس والواردين إليها حسب ما يراه الناظر في ذلك من غير أن يرتب لأحد مرتباً في كل شهر أوكل يوم، ومن غير ذلك أو بدله أو رتب شيئاً مستمراً، كانت عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[1].

ومدخل الضريح عبارة عن مستطيل مفرغ ينتهي في أعلاه بعقد منكسر. وتوجد في كلّ زاوية من زاويتي المدخل مقرنصة ضخمة ترتكز على أربع حطات من المقرنصات أشكالها مميزة جميلة. وينتهي المدخل بفجوة في أعلاه يكلّلها العقد المذكور.

أما واجهة المدخل فتزدان بقطعة من الفسيفساء، مستطيلة الشكل تتخللها خطوط هندسية، وتتوسطها دائرة تتفرع منها خطوط هندسية متناسقة، ولكي يزداد المنظر جمالاً فقد أختار له الفنان المسلم، الألوان المناسبة من سوداء وبيضاء وبنّية وغيرها.

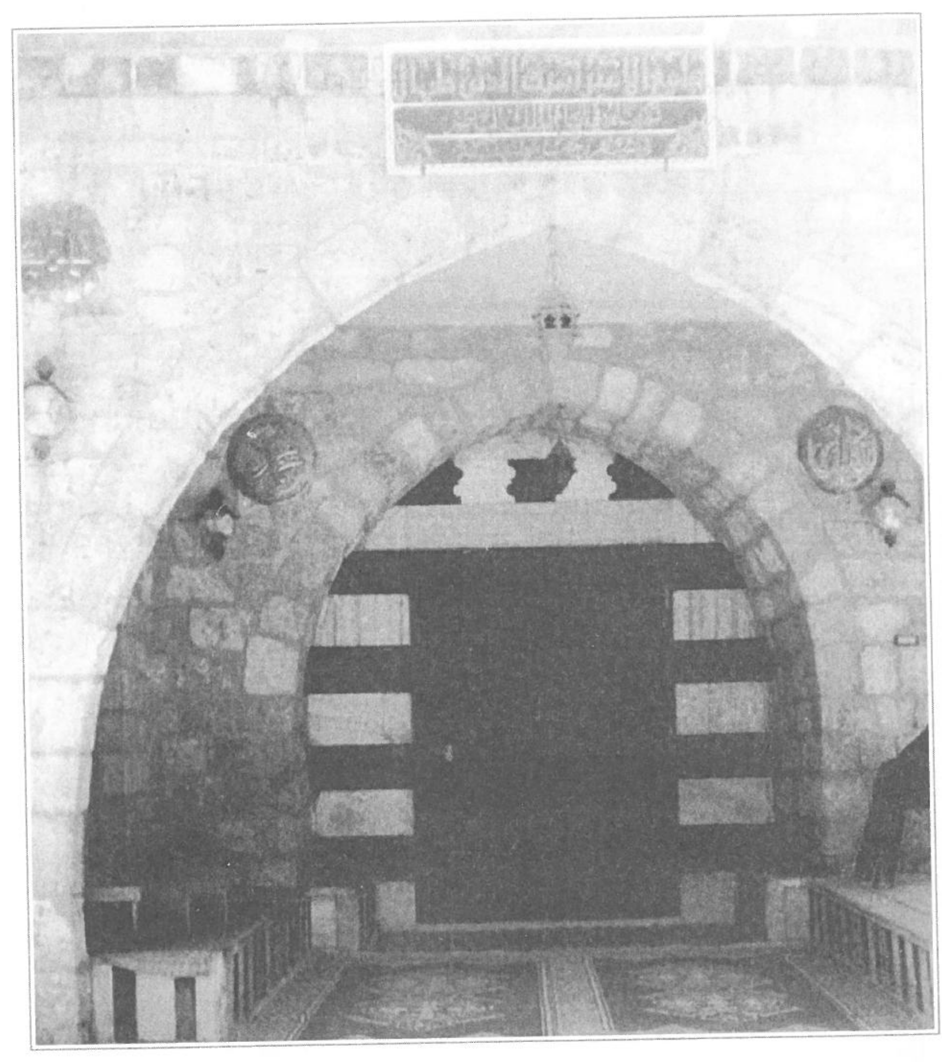
وذلك لأن هذا الفنان أدرك أنّ اللذة البصرية هي المصدر الأساسي للجمال، وعرف ما للألوان من قيمة كبرى في إحداث التأثير الجمالي. ولما كانت المداخل تحتل في أغلب الأحيان ركناً من الواجهة، فقد عمد الفنان إلى إحداث نوع من الإتزان والتناسق في هذه الواجهة لأنه أدرك أنّ العين عندما تستقرّ على واجهة البناء فستجد الموضوعات التي تسترعي إنتباهها، موزّعة على مسافات متساوية، يطرأ على ذهن المشاهد لها نوع من الإنتشاء يشبه ما تحدثه النغمات الموسيقية. لذلك فقد أفاض الفنان المسلم على عمله الفني هذه الألوان المتناسقة، التي إنتقاها خصيصاً لإحداث هذا التأثير[2].

---

(1) SOBERNHEIM, op. cit., p. 87.
Liebich, op. cit., p. 54.

(2) عبد العزيز سالم، القيم الجمالية في فن العمارة الإسلامية، ص18- 19.

صورة رقم (75)
واجهة مدخل مسجد طينال.



تصوير خاص بالباحث

وفوق مدخل الباب نجد زخرفة، هي عبارة عن عقد فيه سنجات متداخلة ملوّنة باللونين الأبيض والأسود.

أمّا الجدار الملاصق للواجهة، فهو لا يقلّ روعة عن الواجهة نفسها، حيث تتخلّله مداميك من الرخام تتناوب فيها الألوان الجميلة.

ومدخل الضريح محاط من جميع جوانبه بإفريز من الدالات المتصلة والمتداخلة بشكل خط منكسر.

أمّا البلاط الشمالي من المسجد، فهو عبارة عن صحن مكشوف، أرضه أقلّ إرتفاعاً من الممشى الذي يحيط به. وفي هذا الممشى توجد بركة للوضوء وأربع غرف. وجدار الصحن الذي يفصله عن الممشى، مزدان بزخارف متنوّعة الأشكال ومتعددة الألوان. وهذه الأشكال الهندسية منها ما هو على شكل مزهريّة، والبعض الآخر جاء على شكل دوائر تتفرع منها خطوط هندسية بإتجاهات مختلفة.

وأرض المسجد مرصعة بالفسيفساء الجميلة ذات الطابع الإسلامي الخالص.

أما القسم الجنوبي من المسجد، فهو ضريح دفن فيه مؤسس هذا الجامع الأمير سيف الدين طينال. ويحتوي الضريح على قبتين متفاوتتين في الحجم، القبة الأولى كبيرة ترتكز على قاعدة مربعة الشكل. أمّا القبة الثانية فهي قبّة المحراب وتقوم على قاعدة مربّعة أيضاً، لكنها تمتاز بفصوصها المتعدّدة وبمقرنصاتها المقوّسة المنظمة بشكل طوابق فوق بعضها. ويزين عقد القبة نوافذ متعدّدة.

ومما يزيد منظر القبة جمالاً، هي تلك العقود من الدالات التي تتفرّع من العقد الرئيس الذي يحيط بالقبة، وتتصل جميعها في أعلى القبة.

أما المحراب فهو بسيط خالٍ من الزخرفة الفنية، يوجد على جانبيه عامودان من الرخام الأبيض.

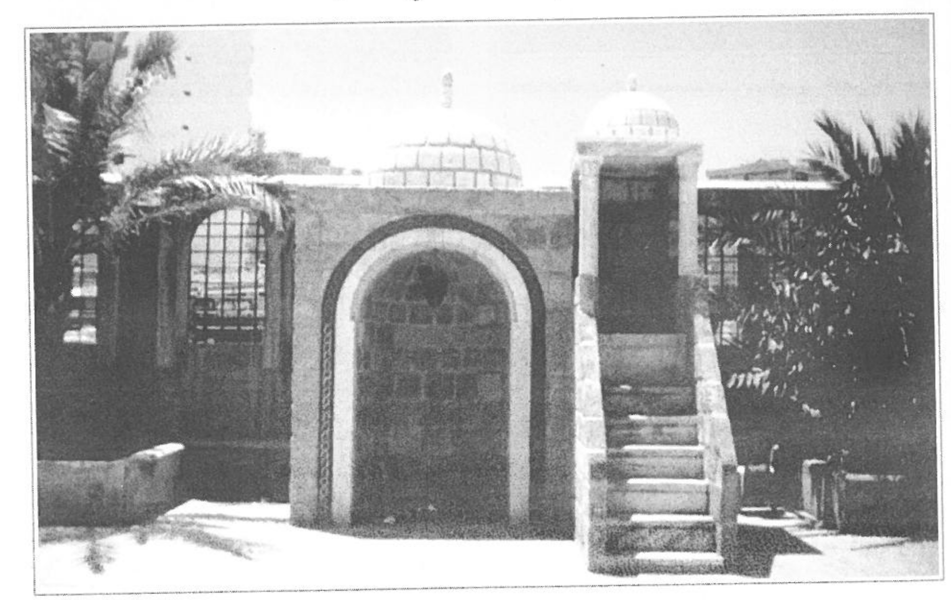
وللضريح منبر خشبي في أعلاه لوحة خشبية، نجد عليها نقش كتابي ينص على ما يلي[1]:

(1) SOBERNHEIM, op. cit., p.93.
Liebich, op. cit., p. 59.

صورة رقم (76)
بركة الوضوء في البلاط الشمالي المكشوف.

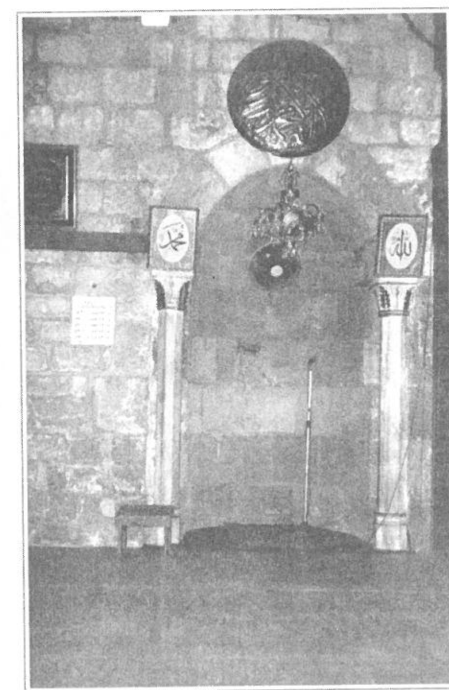


صورة رقم (77)
منبر ومحراب البلاط الشمالي المكشوف.

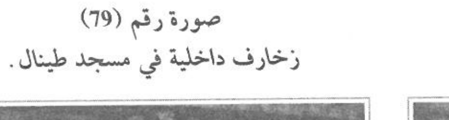


تصوير خاص بالباحث

صورة رقم (78)
محراب مسجد طينال.



تصوير خاص بالباحث



صورة رقم (79)
زخارف داخلية في مسجد طينال.





تصوير خاص بالباحث

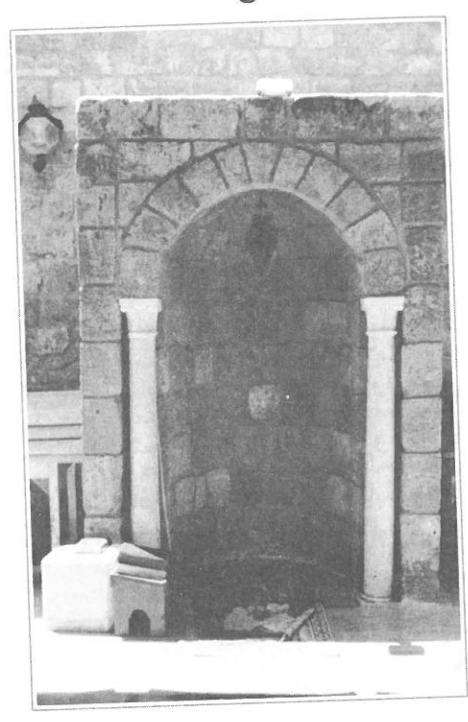
«بسم الله الرحمن الرحيم. إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشى إلاّ الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين. تكمل هذا المنبر في شهر ذي القعدة سنة ست وثلاثين وسبعماية».

والمنبر مرصع بالفسيفساء الجميلة المصنوعة من الجص، ويتألف من مدرج ينتهي بقبة بسيطة تنتهي بصف من المقرنصات.

ونجد في المسجد سدة خصصت للنساء اللواتي يجئنه في أيام الأعياد والمناسبات الدينية، وهي مزدانة بنفس الزخرفة التي تغطّي المنبر.

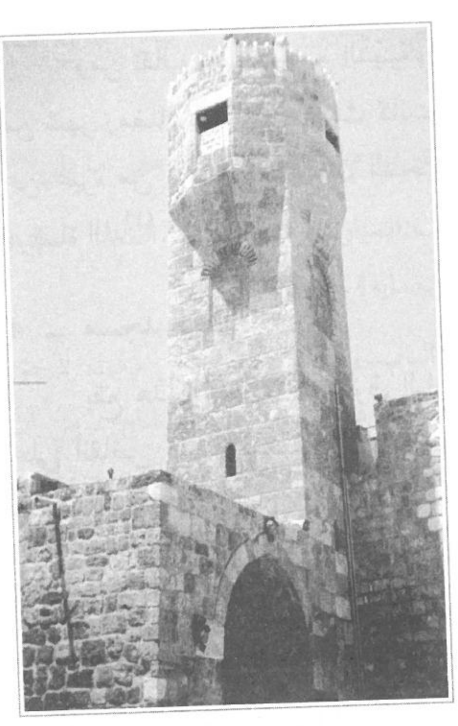
أما مئذنة هذا المسجد الجامع، فهي مربعة الشكل تزدان جوانبها بعقود

صورة رقم (80)
أحد المنابر الخارجية في الصحن المكشوف لجامع طينال.



تصوير خاص بالباحث

صورة رقم (81)
مئذنة مسجد طينال.



تصوير خاص بالباحث

صماء ذات وسائد، وتنتهي في أعلاها بشرفة بارزة عن وجه البناء، تحتوي على نافذة في كلّ وجه من وجوهها الأربعة.

وتمتاز هذه المئذنة عن بقية المآذن المملوكية في طرابلس بإبتكار فنّ جديد من فنون العمارة الإسلامية. ويتمثل هذا الفن في الدرجين داخل المئذنة، وقد صُمّما بحيث لا يلتقي الصاعد في إحداهما بالصاعد في الثاني، إلاّ في دورة الآذان، مع العلم أنّ محور الدرجين واحد.

وهي تشبه في ذلك مئذنة عبد الرحمن الناصر، في المسجد الجامع بقرطبة، وهي مئذنة ذات مطلعين، واحد يؤدّي إلى صحن الجامع والآخر إلى خارجه[1].

(1) محمد كرد علي، مرجع سابق، ج6، ص 53.

وربما كان المقصود من هذا الإبتكار الجديد في فنّ العمارة الإسلاميّة، تسهيل مهمة المؤذّن، الذي يتخذ من إحدى غرف الجامع الخارجية مسكناً له.

ومن تقاليد هذا الجامع الدّينية، إحتفالات الجمعة اليتيمة وهي آخر جمعة من شهر رمضان المبارك، حيث كانت تقام إحتفالات دينيّة إنفرد بها هذا الجامع عن غيره من المساجد، وكان المحتفلون يرتّلون الأدعية الدينية الكثيرة إبتغاء مرضاة الله[1].

4 ـ مسجد العطار

يقع هذا المسجد في سوق البازركان بالقرب من بركة الملاحة، وقد بني على أنقاض كنيسة قديمة كانت قد تهدّمت إبّان فتح مدينة طرابلس، وهذا ما يؤكده بعض المؤرخين مثل: عبد الغني النابلسي في كتابه «التحفة النابلسية»، ومحمد كرد علي في كتابه «خطط الشام»، بالإضافة إلى ما يقال عن أنّ القبة الرخامية التي تعلو المنبر ما هي إلاّ جرن الكنيسة الصليبية الذي توضع فيه المياه المعمّدة، إلى جانب القسم القبلي منه حيث يوحي لمن يراه بأنه لا يدلّ على أنه بناء إسلامي. وقد بنى هذا الجامع الشيخ بدر الدين العطار، وهو أحد العطارين الأثرياء بطرابلس[2].

أمّا تاريخ بنائه فيعود إلى سنة 751هـ/ 1350م، تقريباً، كما يقول عبد العزيز سالم في كتابه «طرابلس الشام»[3]. أمّا السيد عمر تدمري فيقول: »بأنّ بنائه قد تم في سنة 735هـ/ 1334م، معتمداً في ذلك على ما ورد في كتاب «الدر الفاخر» لأبن أبيك الدواداري، عندما ذكر بناء هذا الجامع ضمن إحصائية عرض فيها ما بني من جوامع أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون، كما أنّ بدر الدين

---

(1) منذر عوض، قصة مدينة، دليل طرابلس السياحي، لا تاريخ، ص51.

(2) الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانزروبرت رويمر، القاهرة، 1960، ص 391.

(3) عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص 413. الياس القطار، مرجع سابق، ج 2، ص 432.

العطار باني الجامع قد تـوفي سنة749 هـ/ 1348م، بالوباء الذي أصاب طرابلس. كما أن النقش الكتابي الذي أعتمد عليه عبد العزيز سالم لإثبات تاريخ إنشاء الجامع، فهو يحدّد تاريخ بناء الباب الرئيسي والمنبر، لا تاريخ بناء الجامع كما ظنّ السيد سالم»[1].

وهذا النقش يعلو الباب الشرقي، وهو من سطر واحد ينص على ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا الباب المبارك والمنبر عمل المعلم محمد بن إبراهيم المهتدي سنة أحد وخمسين وسبعماية».

ويبدو من هذه الكتابة أنّ بناء هذا الباب والمنبر حصل في وقت لاحق لبناء الجامع، مما يؤكد ما ذكره محمد كرد علي في كتابه «خطط الشام»، من أنّ بناء الجامع قد تداعى ثم أعيد بناؤه[2]. كما يتضح أنّ الجزء الذي تهدم وأُعيد بناؤه، هو الجزء المحيط بهذا الباب فقط. ويعتبر هذا المسجد من أجمل مساجد طرابلس القديمة. وقد ذكره النابلسي بقوله: «قيل إنّ أصله كنيسة وقد عمره رجل كان عطاراً، وكان ينفق من الغيب فنسب إليه. وفي هذا الجامع أربع صفف، كل صفّة بها مدرس، له معلوم يتناوله من وقف الجامع المذكور»[3].

ولهذا الجامع ثلاثة أبواب، أجملها الباب الرئيس، وهو أشبه إلى حدّ كبير بباب المدرسة القرطاوية حيث يحتوي على مقرنصات ومتدلّيات وعلى زخرفة من الفُسيفساء، وفوق عتبة الباب بلاطة مستطيلة الشكل عليها نقش لأزهار الزنبق باللونين الأبيض و الأسود. وعلى يمين الداخل من هذا الباب، يوجد نص المرسوم الذي أصدره الملك شيخ المحمودي وينص على ما يلي:

«لما كان بتاريخ العشر الأول من ربيع الأول سنة أحد وعشرين وثمان مائة ورد المرسوم الشريف من السلطان المؤيد أبو النصر شيخ بأن لا يؤخذ من سكان

---

(1) عمر تدمري، مرجع سابق، ج 2، ص 190.

(2) محمد كرد علي، مرجع سابق، ج 6، ص 54.

(3) عبد الغني النابلسي، مصدر سابق، ص 75. سميح وجيه الزين، مرجع سابق، ص 422 ـ 423.

صورة رقم (82)
الباب الرئيسي لجامع العطار، وهو من أجمل الأبواب المملوكية في مدينة طرابلس.



تصوير خاص بالباحث

صورة رقم (83)
منبر جامع العطار.



تصوير خاص بالباحث

وقف جامع العطار للمحتسبين من قدوم شهر ولا أذاً مكروه، استجلاب أدعية المصلّين ومن عمل به له أجره ومن خالف عليه غضب الله ولعنة الملائكة والناس أجمعين آمين»[1].

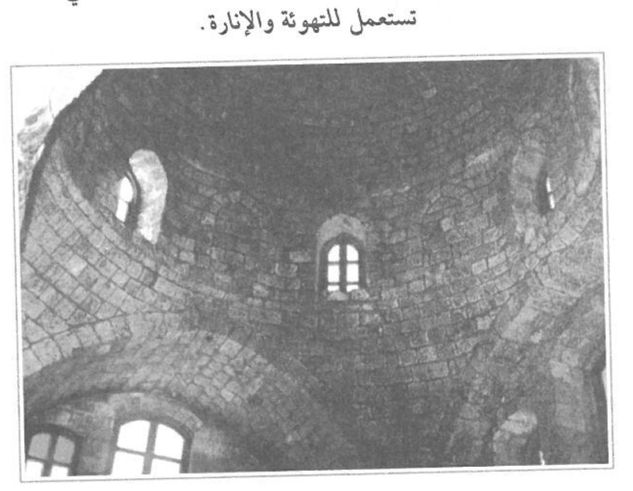
وعلى جانبي المدخل الرئيس مصطبتان، كمدخل باب المدرسة القرطاوية ومدخل جامع البرطاسي. أما حرم الجامع فيتكون من أسطوان واحد مستطيل الشكل يحتوي على عشر عضاضات. ويمتاز هذا الجامع من الداخل ببساطته، إذ يخلو من أية زخرفة، ما خلا بعض التجويفات الهندسية

(1) Liebich, H., op. cit., p. 79.

صورة رقم (84)
محراب جامع العطار.

تصوير خاص بالباحث

صورة رقم (85)
زخرفة قبة مسجد العطار من الداخل، ونشاهد بها النوافذ التي كانت تستعمل للتهوئة والإنارة.



تصوير خاص بالباحث

في القبة التي تعلو القسم الشمالي من الحرم، أمّا المنبر فقد صنع من الرخام الأبيض.

وفوق عتبة باب المنبر، نجد لوحة رخامية فيروزية اللون، نقش عليها هذه الآية:

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

وعلى الجانب الشرقي من المنبر نقش هذا البيت من الشعر:

«انا مرقى لخطيب ومُعدّ للمواعظ».

وعلى الجانب الغربي منه حفر البيت التالي:

«فإعتبر فيّ وفي نفسك تلقى كل واعظ».

وتعتبر مئذنة هذا الجامع من أفخم مآذن طرابلس المملوكية، وهي عبارة عن برج مربع الشكل، وهي أقرب إلى البناء الحربي منه إلى البناء الديني[1].

(1) عمر عبد السلام تدمري، تاريخ وآثار، ج 2، ص 200 ـ 201.

ولها إفريز بارز في منتصفها، وتنتهي من أعلى بشرفة مكعبة الشكل بارزة عن بناء برج المئذنة، ونجد في أسفل هذه الشرفة مقرنصات ومتدلّيات ترتكز على أربعة أعمدة رخامية في أركان المئذنة، ويتوسط كل وجه من وجوه الشرفة العليا نافذة، ويوجد على الأركان الأربعة فوق الشرفة أربع قبيبات. وقد بنيت هذه المئذنة فوق الباب الغربي للجامع[1].

5 ـ مسجد البرطاسي

يقع هذا المسجد في منطقة السويقة على ضفة نهر أبو علي. يصفه الرحالة العطيفي بقوله: «وبها جامع يقال له البرطاسية، من بابه إلى محرابه مفروش بالرخام المنّوع الذي يدهش الأبصار ويحيّر الأفكار وكذلك حيطانه. وسقفه معقود بالأحجار، وبه من الجام الملوّن ما يشبه النجوم والعقد المنظوم . . . وبه بركة ماء مفصّصّة بأنواع الرخام الملون»[2].

وهو أجمل جوامع طرابلس، ومحرابه من أجمل محاريب الجوامع المملوكية في لبنان على الإطلاق[3]. تزينه فسيفساء مذهبّة، وتقاطع رخاميات مختلفة الألوان، أمّا مئذنته فتحمل طوابع أموية أندلسية، وسمات مغربية.

ورد أسم مؤسس هذا الجامع في كتابة منقوشة عند مدخله، جاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، أوقف هذه المدرسة المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى عيسى بن عمر البرطاسي[4]. عفا الله عنه، على المشتغلين بالعلم الشريف

(1) عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص 414 ـ 415.
عمر تدمري، مرجع سابق، ج 2، ص 201.
(2) رمضان بن موسى العطيفي، مصدر سابق، ج 2، ص 21.
(3) عمر تدمري، تاريخ طرابلس السياسي، ج 2، ص 307.
(4) هو عيسى بن عمر بن عيسى الكردي، شرف الدين البرطاسي. ولد سنة 665هـ وباشر ولاية السر بدمشق، ثم ولي وشد الدواوين بطرابلس. وكان مشكور السيرة مذكوراً بالخير، وعمّر مدرسة للشافعية. عمر المدرسة البرطاسية بطرابلس للشافعية، ومات بطرابلس في شهر رمضان سنة 725هـ.
ـ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 3، ص 286 ـ 287.

صورة رقم (86)
مسجد البرطاسي.



تصوير خاص بالباحث

على مذهب الإمام الشافعي، وأقامة الجمع والصلوات المكتوبة وشرط الا يرسم فيها على أحد ولا يسكنه من لا له الحق في ذلك»[1]. وقد طمس من هذه الكتابة الجزء الذي يتحدث عن زمن بناء المسجد، مما جعل تاريخ بنائه مجهولاً. إلاّ أنّ المؤرخين إجتهدوا في ذلك، ورأى بعضهم أنّ طراز بنائه وزخارفه وأسلوب كتاباته تعود إلى أواخر عصر المماليك البحريين[2].

ويقول عمر تدمري: «أن جامع البرطاسي، ينسب إلى بانيه عيسى بن عمر

(1) Liebich, H., op. cit., p. 35.
(2) التميمي وبهجت، مرجع سابق، ج 2، ص 132.

البرطاسي الكردي أحد أمراء الطبلخانة المتوفي سنة 725هـ/ 1325م، وكان بناء الجامع حول سنة 710هـ/ 1310م ». وهو يستند في ذلك على ترجمة صاحبه، عند الفيومي والصفدي، وابن حجر العسقلاني[1].

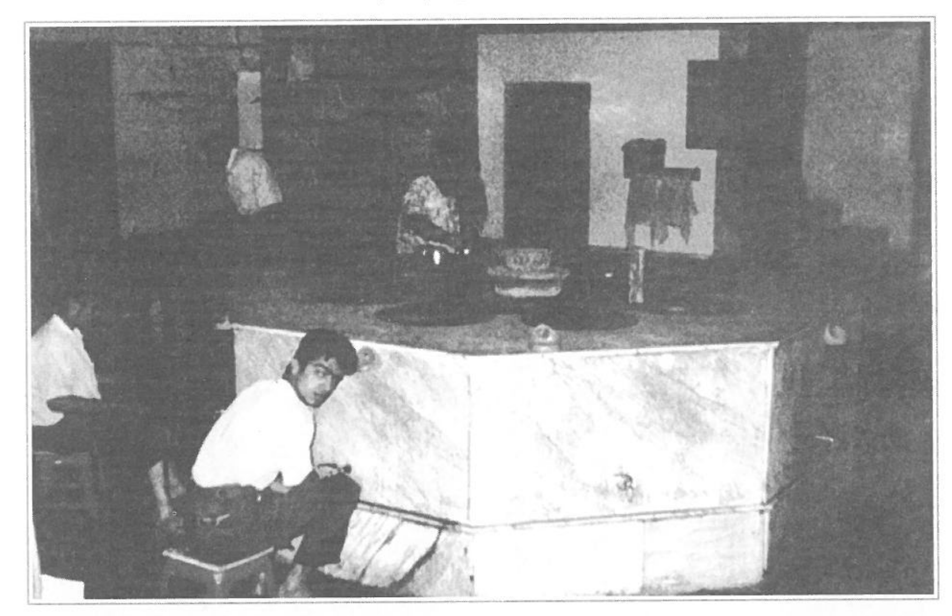
أما فاروق حبلص فيقول: «إنّ الدكتور عمر تدمري أرجع بناء الجامع إلى عام 710هـ/ 1310م، وأضاف إلى أسم مؤسسه الذي ورد في النقش الكتابي عيسى بن عمر البرطاسي نسبة (الكردي)، ثم وصفه بالأمير فقال عنه: «إنّه أحد أمراء الطبلخانة»، وهي صفة لم نجدها في النقش الكتابي، علماً بأنها من الألقاب التي كانت تلازم أسماء حامليها، كما يظهر في النقوش الكتابية في سائر المساجد.

ومن خلال التدقيق في شروط الواقف، نجد شرط عدم التعدّي عليه وألاّ يسكنه من ليس له الحق في ذلك. يستنتج من ذلك أنّ بناءه كان بعد أن شاع أمر التعدّي على الأوقاف والتلاعب بها، وهي مرحلة متأخرة في طرابلس تعود إلى أواخر عصر المماليك الشراكسة. كما أنّ زخرفة الجامع، لم تكن شائعة في طرابلس سنة710 هـ/ 1310م، التي كانت لا تزال في طور التأسيس في ذلك الزمان، يشهد على ذلك بساطة مساجدها التي تعود إلى ذلك التاريخ، كالجامع الكبير وجامع عبد الواحد المكناسي[2].

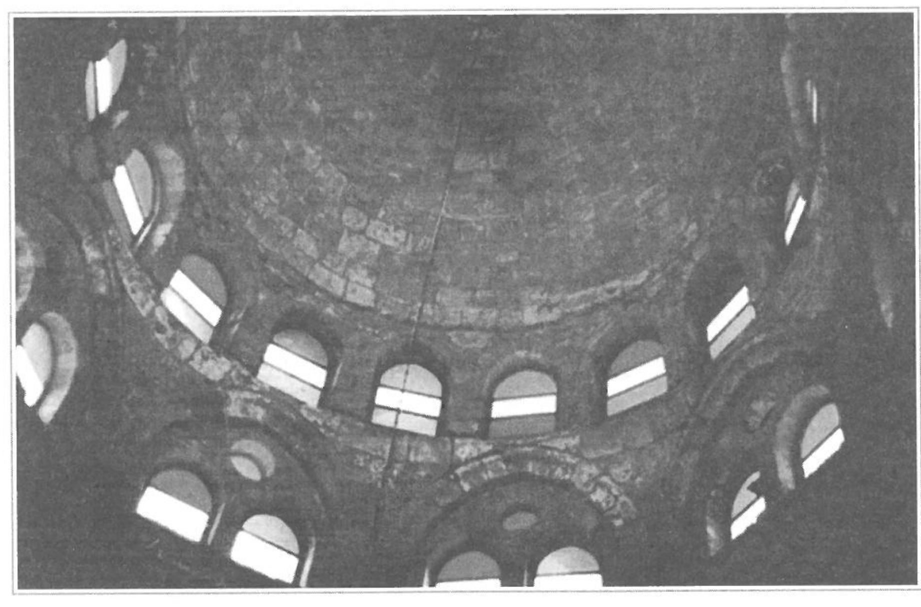
يتألف حرم هذا المسجد من بلاط مربّع الشكل، يقوم في وسطه حوض الماء للوضوء، وهو مصنوع من الرخام الأبيض، ويرتفع بيت الصلاة عن البلاط بحوالي الستين سنتم، وتزدان قنطرة المحراب العليا بلوحة نباتية من الفسيفساء ذات اللون الفيروزي على أرضيّة مذهّبة[3]، وعلى يمين المحراب، منبر خشبي مزخرف بالتقاطيع الهندسية. وللجامع ثلاث قباب، فهناك قبة فوق حوض الوضوء، ترتكز على عضاضتين، وهي تقوم على طابقين، الأول به ثمانية نوافذ

(1) للتوسع في هذه الترجمة، انظر عمر تدمري، تاريخ وآثار، ج 2، ص 207 ـ 208.
(2) فاروق حبلص، طرابلس المساجد والكنائس، دار الإنشاء والطباعة والنشر ، 1988م، ص 54.
(3) عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص 427.

صورة رقم (87)
حوض الوضوء، وهو يقع في حرم المسجد.

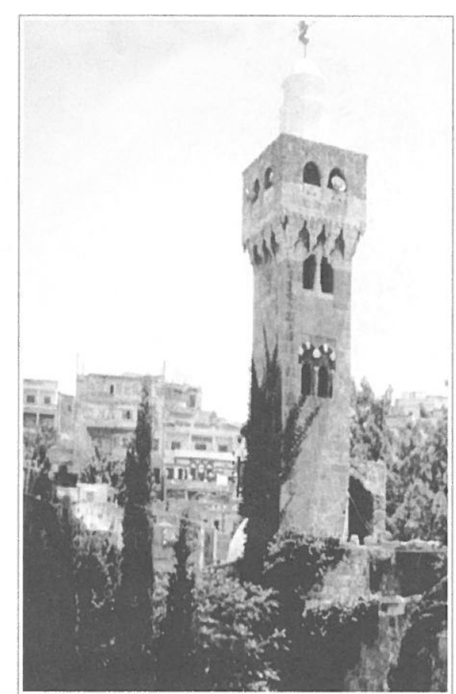


صورة رقم (88)
القبة القائمة فوق حوض الوضوء وهي ذات طابقين.



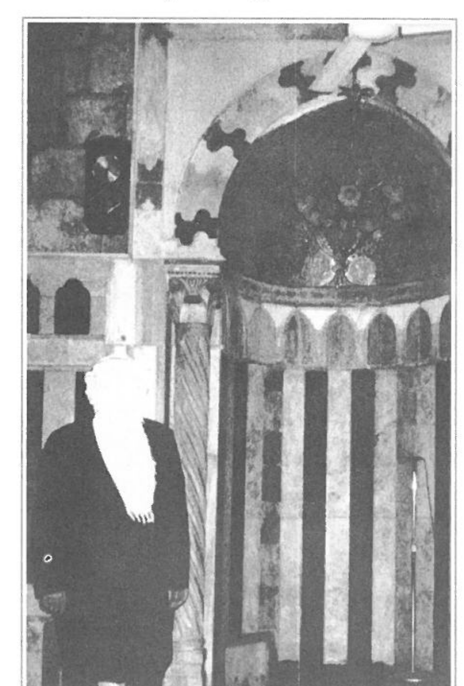
تصوير خاص بالباحث

صورة رقم (89)
مئذنة جامع البرطاسي.



تصوير خاص بالباحث

صورة رقم (90)
منبر جامع البرطاسي.





تصوير خاص بالباحث

كبيرة، والثاني به إثنتا عشر نافذة أصغر حجماً ولها عنق بارز من الخارج كفتحة القارورة، وهي للتهوية والوضوء، وهناك قبة أصغر من الأولى وتقع فوق محراب الجامع تقوم على طابق مثمن الأضلاع ولها نافذتان شرقيّة وغربيّة، والقبة الثالثة.

تقع شرقي المئذنة وهي أصغر قباب المسجد[1]، وتختلف مئذنة هذا الجامع عن بقية مآذن طرابلس من حيث هندستها خاصة واجهتها الغربية، حيث نجد أنماطاً من العمارة المغربية وهي مربعة الشكل، وتزدان واجهتها الغربية بنافذة توأمية ذات عقدين متجاوزين منكسرين عند الرأس، يستند جانبهما

(1) عمر عبد السلام تدمري، تاريخ وآثار، ج 2، ص 212.

المشترك على منكب قائم على عامود صغير، وتتناوب في هذين العقدين السنجات البيضاء والسوداء، ويذكرنا هذان العقدان بالعقود الخلافية بقرطبة وطليطلة، ويحيط بالعقدين إطار مستطيل يحصر النافذة في نطاق غائر، ويغلب على الظّن أنّ مهندس هذه المئذنة أندلسي الأصل[1].

6 ـ مسجد التوبة

عرفه التميمي بإسم جامع الطوبا[2]. وذكره معظم الرحالة العرب الذين زاروا طرابلس في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، وهو لا يحمل كتابة تبيّن تاريخ بنائه، لذلك اكتفى معظم المؤرخين بإرجاعه إلى العهد المملوكي، لأنّ هندسته تشبه هندسة الجامع الكبير، ولكنه أصغر منه مساحة[3]. وهويحمل كتابة مملوكية تعود إلى سنة 817هـ/ 1414م، في عهد السلطان المؤيد شيخ، وقد أرجع بعضهم تاريخ بنائه إلى ما بين عامي 709و741هـ، في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون[4]، وذكر أنّه كان يعرف بإسم الجامع الناصري نسبة إلى بانيه[5].

ويرجح تدمري بأنّ الجامع بني في الولاية الثالثة للسلطان محمد بن قلاوون (709 ـ 741هـ)، ومن قبل المهندس الذي قام ببناء الجامع المنصوري الكبير، وذلك للشبه الكبير بين الجامعين[6]. وبينما يكتفي عبد العزيز سالم بالقول: «إنّ هذا الجامع أقيم في عصر دولة المماليك، وهو يشبه في نظام بنائه الجامع المنصوري الكبير. ويمتاز هذا الجامع بكتاباته الأثرية التي ترجع إلى عهد المؤيد شيخ المحمودي»[7].

(1) عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص 227.
(2) التميمي وبهجت، مرجع سابق، ج 2، ص 164.
(3) محمد كرد علي، مرجع سابق، ج 6، ص 53.
(4) عمر تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري، ج 2، ص 283.
(5) هو محمد بن قلاوون الملقب بالناصر، أستلم الحكم ثلاث مرات. للتوسع انظر صفحة 23- 25 من هذا الكتاب.
(6) عمر تدمري، تاريخ وآثار، ج 2، ص 135.
(7) عبد العزيز سالم، مرجع نفسه، ص 417.

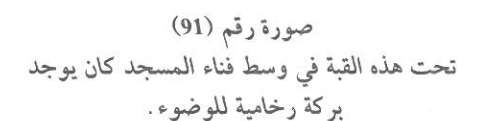
ويضيف تدمري بأنّ هذا الجامع هو الجامع الثاني الذي بني بأمر من سلطان المماليك بعد الجامع المنصوري الكبير. أما بقيّة الجوامع والمدارس في طرابلس فقد بنيت على يد نواب السلطنة والأمراء أو الأثرياء من المسلمين. ويستشهد تدمري على ذلك بقول القلقشندي في نص خطبة توجيه وظيفة الخطابة بالجامع، إذ أنه لم يذكر في كتابه سوى نص مرسوم خطيب ومحدّث الجامع المنصوري الكبير، ونص مرسوم خطيب جامع التوبة فقط. مما يدل على أنّ هذا الجامع بني بأمر سلطاني ولذا كان تعيين الخطيب للجامعين يصدر بمرسوم من قبل نائب السلطنة بطرابلس. كما أنّ أوقاف جامع التوبة، مشتركة مع أوقاف الجامع الكبير[1].

وهو يقع على الضفة اليسرى لنهر »أبو علي«، ومن يريد الدخول إلى هذا المسجد عليه النزول بالدّرج من البابين الشرقي والشمالي. والباب الشرقي هو الباب الرئيس حيث يفضي إلى ممر جنوبي الشارع، بمحاذاة الحرم، حيث تقوم فوقه قبة صغيرة تقع شرقي المئذنة، ويفضي الممرّ إلى فناء الجامع الذي يحيط به رواقان يقومان على عضاضات ضخمة تتشكل منها عقود وقناطر، وفي أعلى واجهة الرواق الغربي توجد لوحة نقشت عليها خطوط متوازية بشكل ساعة شمسيّة، وهي لتحديد وقت الشروق والظهر والعصر.

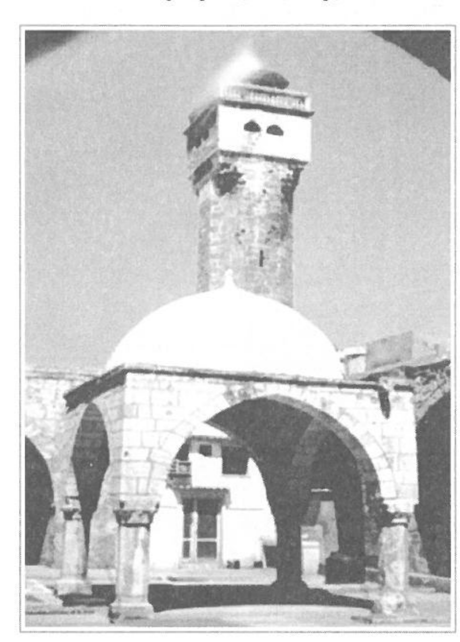
وفي وسط الفناء، يقوم أسطوان من أربع قناطر وعلى أربعة أعمدة تعلوها قبّة شبيهة بالقبة في صحن الجامع، وتحت هذه القبة كانت توجد بركة رخامية للوضوء، لكنها أزيلت في عهد قريب. وفي الزاوية الشمالية الغربية من فناء الجامع، تقوم مدرسة قديمة متهدّمة. وعلى يسار الداخل من الباب الشمالي، توجد لوحة برونزية نقش عليها سبعة أسطر بالخط النسخي، وهي تؤرخ لفيضان النهر الذي حدث عام 1020هـ/ 1612تسبب في هدم جداره ومنبره ومحرابه، وتجدّد بناء ما تهدم في السنة التالية.

---

(1) عمر تدمري، تاريخ وآثار، ج 2، ص 135 ـ 137.



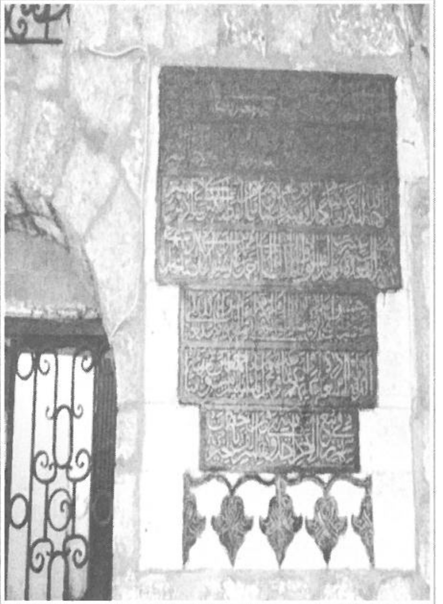
صورة رقم (91)
تحت هذه القبة في وسط فناء المسجد كان يوجد بركة رخامية للوضوء.



تصوير خاص بالباحث



صورة رقم (92)
اللوحة البونزية التي تؤرخ لفيضان نهر أبو علي.



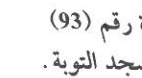
تصوير خاص بالباحث

وتنص الكتابة على ما يلي:[1].

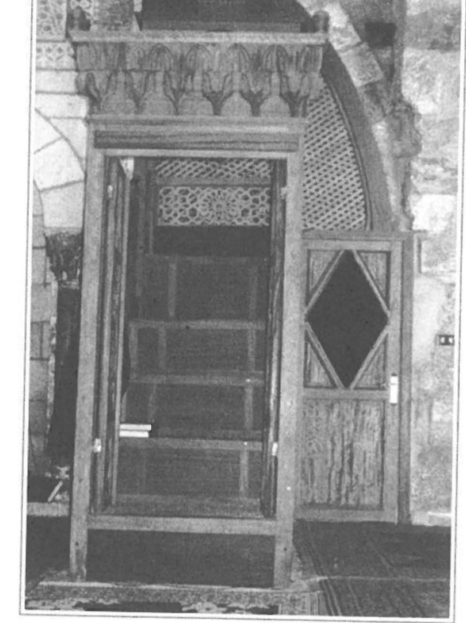
«الحمد لله الذي منّ على عبده من جريان فيض فضله ويسر هذا الخير على يده وهداه إلى العمل بقوله سبحانه وتعالى إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله، فحل وجدد هذا الجامع الشريف لوجه الله الكريم، بعد هدم جداره ومنبره ومحرابه وسبيل مائه من الفيضة الكبرى في سادس عشر ذي القعدة سنة عشرين بعد الآلف، الواثق بالملك الباري أحمد بن محمد الشر بداري الأنصاري كتخداي حضرة حسين باشا بن يوسف باشا السيفي أمير الأمراء بطرابلس أيّد الله تعالى الدولة والسعادة عليهم وعفا عنهم وعن المسلمين

---

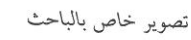
(1) عمر عبد السلام تدمري، مرجع سابق، ج 2، ص 145 ـ 146.
SOBERNHEIM, op. cit., p.134.



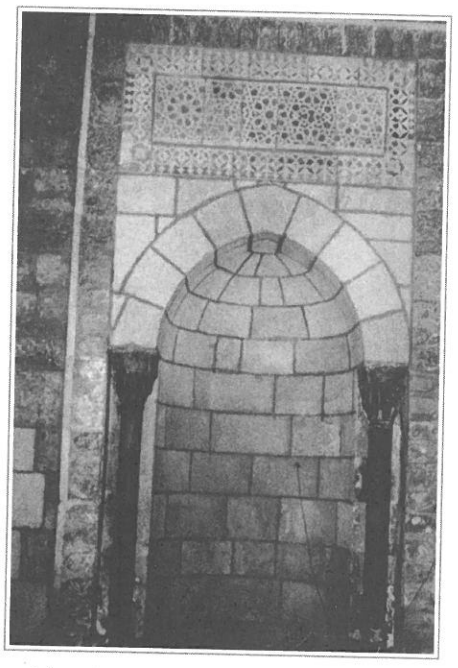
صورة رقم (93)
منبر مسجد التوبة.



تصوير خاص بالباحث



صورة رقم (94)
محراب مسجد التوبة.



تصوير خاص بالباحث

أجمعين أمين، تم بناؤه في شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وألف ختمت بالخير».

وقد التبس أمر هذه الكتابة على التميمي، فعدّ عام 1021هـ تاريخ بناء الجامع[1]. أمّا حرم الجامع فيتكون من أسطوان، تعلوه قناطر تقوم على ست عضاضات في الجهة الغربية، وفوق محراب ومنبر الجامع تقوم قبة الجامع وفيها نوافذ أربعة، أمّا القناطر الخمس فتنفتح على فناء الجامع، ويوجد على منبر الجامع زخرفة إسلامية الشكل، وفوق المحراب لوحة نقشت عليها (كلما دخل عليها زكريا المحراب).

(1) التميمي وبهجت، مرجع سابق، ج 2، ص 146.

ولا تبدو الكتابة إلاّ لمن يدقّق النظر بها، وذلك لطمسها بالدهان. أمّا منبر الجامع ففيه زخرفة لطيفة، ويبلغ طوله 2,80م، وعرضه تسعون سنتم. وفي أقصى الجهة الشمالية الشرقية من الحرم توجد غرفة إمام الجامع[1].

7 ـ مسجد ارغون شاه

ذكره النابلسي في رحلته بقوله: «جامع الغنشا وهو من بناء الشراكسة»[2].

وذكره إبن محاسن بإسم يغن شاه فقال: «والتاسع جامع يغنى شاه عند باب اخترق متسع منوّر عريض تطلّ شبابيكه على البساتين بواسطة بركة ماء عظيمة، فإنّه عبارة عن أربع إيوانات والبركة، في وسطه محكمة جسيمة»[3].

يقع هذا المسجد في شارع صفّ البلاط المؤدّي إلى مقبرة باب الرمل، وقد عرف قديماً بإسم زاوية أرغون شاه[4]. وظلّ يعرف بهذا الإسم حتى عام 880هـ/ 1476 وهو تاريخ المرسوم الموجود فوق بابه الرئيس، والذي أصدره السلطان قايتباي[5] في نيابة ازدمر الأشرفي[6]، يأمر فيه بحماية زراع أراضي

(1) عمر عبد السلام تدمري، مرجع سابق، ج 2، ص 148.
(2) عبد الغني النابلسي، مصدر سابق، ص 75.
(3) ابن محاسن، المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية، تحقيق عدنان البخيت دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1981، ص 81 ـ 84.
(4) هو الأمير أرغون شاه الإبراهيمي المنجكي الظاهري برقوق الخازندار. تولى نيابة السلطنة بطرابلس سنة 796هـ، عوضاً عن الأمير دمرداش المحمدي وبقي بها حتى نقل إلى نيابة حلب سنة 800هـ/ 1402م.
ـ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م 9، ج 2، ص 388.
(5) هو الأشرف قايتباي المحمودي الظاهري، سلطان دولة المماليك في مصر والشام، ولي السلطنة عام 872هـ/ 1467م، وتوفي سنة 901هـ/ 1506م، كانت عليه هيبة ووقار، عاش حياته في عز وشهامة، جميل الهيئة وافر العقل سديد الرأي، كان محباً لجمع المال، كان له اعتقاد في الفقراء يعظم العلماء، عارفاً بمقام الناس. أنشأ في أيام سلطنته قبة عظيمة على القبر النبوي الشريف، وجدد عمارة المسجد النبوي الشريف، وأنشأ العديد من المدارس والمنشآت الأخرى.
ـ ابن اياس، بدائع الزهور، ج 6، ص 593.
(6) هو نائب طرابلس الأمير ازدمر بن مزيد الظاهري جقمق قريب السلطان الأشرف قايتباي. =

الوقف وتسليمها إلى نور الدين الأدهمي الحسيني. وينص المرسوم على ما يلي:

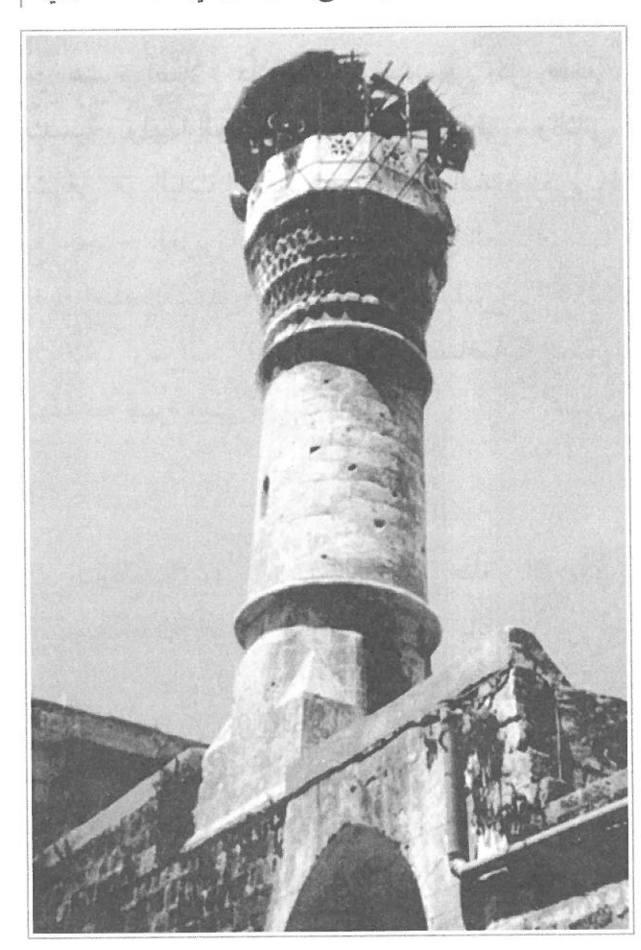
«الحمد لله لما كان بتاريخ خامس عشر الجمادي الأخير سنة ثمانين وثمانمائة ورد مرسوم شريف مربع جيشي من الأبواب الشريفة السلطان الملك الأشرف قائتباي خلّد الله ملكه بأنّ جهات وقف المرحوم أرغون شاه بالسقي بطرابلس المحروسة لا تؤجر لا لمتجوه ولا ذي شوكة وإجهار الندا لزراع الأراضي بالحماية والرعاية ومنع من يعارضهم حسب ما شرط به الواقف في كتابة وتسليم الأراضي للسيد الحسيب النسيب السيد نور الدين محمود الحسيني الأدهمي الناظر والشيخ بها بالزاوية المذكورة فأشار به المقر الأشرف العالي المولوي السيفي ازدمر الأشرفي مولانا ملك الأمراء كافل المملكة الطرابلسية أعزّ الله أنصاره ورسم بنقش ذلك على باب المدرسة حسب ما شرط به الواقف في كتابه وملعون من يغير ذلك ويسعى في تجديده».

ويسمي العامة هذا المسجد بإسم جامع الغونشة، وهو تصحيح لإسم أرغون شاه مؤسس المسجد أو الزاوية. أما تاريخ بنائه فيرجعه عبد العزيز سالم إلى النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، مستدلاً على ذلك بأسلوب البناء ومعتمداً على ما ذكره المستشرق بروس كوندي، من أنّ المسجد بني قبل حوالي خمسين عاماً من خضوع مدينة طرابلس للأتراك(1). أما عمر تدمري، فيعتقد بأنّ هذا المسجد يعود إلى قبل هذا التاريخ بنصف قرن على الأقل مستدلاً على ذلك من أنّ أسم المسجد الذي ينسب لبانيه يحمل أسم أرغون شاه، الذي كان نائباً على طرابلس في أواخر القرن الثامن الهجري،

= تولّى نيابتها في شهر جمادي الأولى سنة880 هـ/ 1475م، عوضاً عن الأمير يشبك البجاسي، واستمر بها حتى سنة 884هـ/ 1479م، حيث نقل إلى نيابة حلب، واستقر عوضه الأمير برد بك المعمار. توفي سنة 899هـ/ 1504م،

ـ ابن اياس، مصدر سابق، ج 4، ص 459، 486، ج 5، ص 577.

(1) عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص 416.



صورة رقم (95)
مئذنة مسجد أرغون شاه وهي أسطوانية وتحمل التأثيرات المعمارية التركية.

تصوير خاص بالباحث

الرابع عشر الميلادي، ومن المرجح أنّ هذا المسجد بني في عهد هذا النائب أثناء تولّيه نيابة طرابلس(1).

ويخلو هذا المسجد من أيّ زخرفة ما عدا مئذنته الأسطونية الشكل، والتي بنيت في وقت لاحق لبناء الجامع، وهي تحمل التأثيرات المعمارية التركية، وتقوم هذه المئذنة على قاعدة من أربعة زوايا مثلثة الرؤوس، وفي ساقها الأسطوني إفريزان، وفي أعلاها زخرفة تنتهي بمقرنصات مختلفة وتتألف الشرفة

(1) عمر عبد السلام تدمري، مرجع سابق، ج 2، ص 218.

من عشرة أضلاع دائرية وقد نقش في كل ضلع أشكال زخرفية وتجويفات هندسية. ولهذا الجامع بابان أحدهما شرقي، والثاني في الطرف الغربي، والباب الشرقي هو الباب القديم للزواية، أمّا الباب الغربي فهو حديث البناء، وقد أقيم مع الجناح الغربي من الحرم مما يلي العضاضات، وذلك في عهد السيد نور الدين سلهب رئيس دائرة أوقاف طرابلس في ذلك الوقت. ويبلغ طول الحرم 20,50م، وعرضه 17م، وبه عشر عضاضات مستطيلة الشكل، ترتفع في وسط سقفه قبة كبيرة ليس فيها أي زخرفة[1].

8 ـ مسجد الأويسية

ويقع في محلة المهاترة عند طلعة القلعة، ويذكره ابن محاسن بإسم اليونسية حيث يقول: «جامع اليونسية بالقرب من المحكمة الكبيرة، غالبه مبني بالرخام في غاية الإحكام»[2].

ويذكره النابلسي بإسم الأوسية[3]. وهو لا يحمل كتابة تشير إلى تاريخ بنائه، إلاّ أنّ قبته تعود إلى تاريخ 865هـ/ 1460م، مما يحمل على الظنّ أنّ بناءه كان في ذلك التاريخ، على يد رجل عرف بإسم محي الدين الأويسي. ويعتقد أنّ هذا الأخير كان أحد شيوخ الطريقة الأويسية[4]. لذلك نسب هذا الجامع إلى

(1) عمر تدمري، مرجع سابق، ج 2، ص 222.

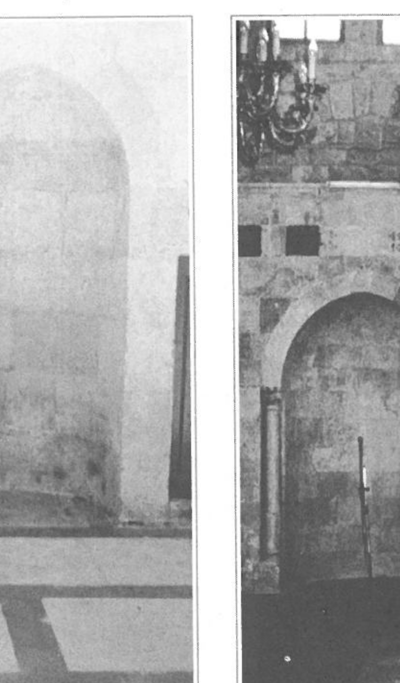
(2) ابن محاسن، مصدر سابق، ص 82 ـ 83.

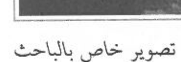
(3) عبد الغني النابلسي، مصدر سابق، ص 75.

(4) هو أحد شيوخ الطريقة الأويسية التي انتشر اتباعها في دمشق وبعلبك وطرابلس، وخاصة في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وهم يعتقدون أنّ الولّي إذا مات انقطع مدده وامتنعت كرامته. واشتهر من شيوخ هذه الطريقة أويس الرومي، الذي ورد من بلاد الروم وسكن بعلبك، ومن أتباعه في بعلبك خليفته شمس الدين محمد البعلي الحنفي الأويسي، المتوفي فيها سنة 943هـ/ 1536م، ومن أتباعه في طرابلس محمود بك السنجق. صاحب الجامع المعروف بإسمه، عند باب التبانة المتوفي سنة 1030هـ/ 1619م.

ـ للتوسع في الطريقة الأويسية أتباعها ومعتقداتها، انظر عمر تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري، ج2، ص311ـ313.

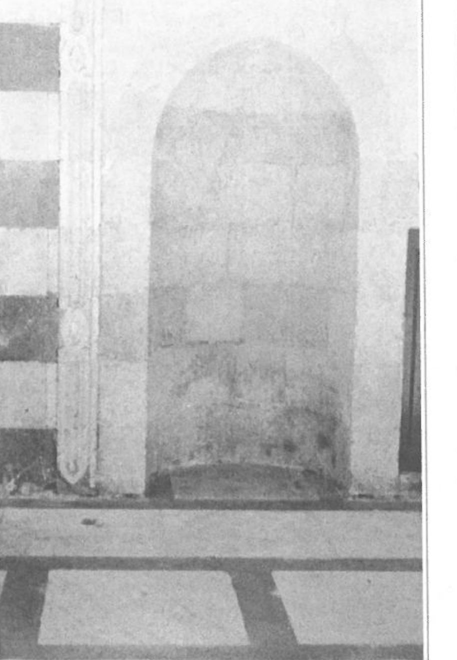
صورة رقم (96)
منبر ومحراب مسجد الأويسية.





تصوير خاص بالباحث

صورة رقم (97)
محراب المصلّى الصيفي في فناء الجامع، الذي غطي أرضه قطع من الرخام.

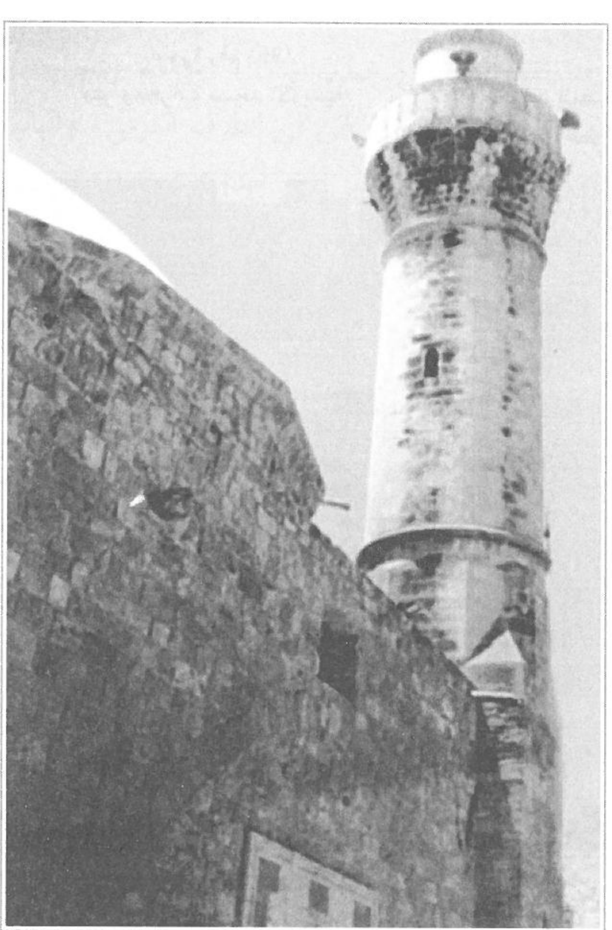


تصوير خاص بالباحث

إتباع طريقته، وعرف بجامع الأويسية. وفي عهد السلطان سليمان القانوني، عام 941هـ/ 1534م، جدّد رجل يدعى حيدرة بناء مئذنة الجامع، كما يظهر من نقش كتابي حفر في أعلاها[1].

وفي عام 1224هـ/ 1809م، وبناء على طلب وجهاء الطائفة الأرثوذكسية في طرابلس، تمّ الإتفاق بين المسلمين وأبناء الطائفة، على تحويل كنيسة مار نقولا التي كانت قائمة بجوار جامع الأويسية إلى مصلّى للمسلمين عرف بإسم مسجد السروة، وأعطي المسيحيون مكاناً آخر من محلة التربيعة لبناء كنيستهم

(1) محمد كرد علي، مرجع سابق، ج 6، ص 54.



صورة رقم (98)
مئذنة مسجد الأويسية.

تصوير خاص بالباحث

عليه. ثم ألحق مسجد السروة بجامع الأويسية. وفي صحن الجامع ضريح أحمد باشا، أحد ولاة طرابلس في العهد العثماني[1].

يقع باب الجامع الخارجي في الجهة الجنوبية، ويدخل منه إلى ممرّ على يمينه بضع درجات تؤدّي إلى باب صغير يفضي إلى جناح الجامع الغربي. وينتهي الممر إلى فناء الجامع حيث الفسحة السماوية المستطيلة الشكل، والتي تغطي أرضيتها قطع من الرخام. وعلى وسط الفناء ينفتح باب

(1) فاروق حبلص، مرجع سابق، ص 61 ـ 62.

الحرم الرئيس للجامع الذي يزينه إطار من الزخرفة الشائعة في عصر المماليك.

وعلى يمين الباب محراب صغير للمصلّى الصّيْفي، حيث تقام الصلاة في الفسحة في فصل الصيف. أما حرم الجامع الرئيس فهو مربّع الشكل، يبلغ طوله عشرة أمتار ونصف المتر وكذلك عرضه، وفي الجهة الغربية حرم أصغر يرتفع عن مستوى الحرم الرئيس، له محراب يخلو من الزخرفة، و على يمينه يقوم منبر خشبي مزين بزخرفة هندسية متقاطعة، ويبلغ طوله 2,50م، وعرضه متر واحد.

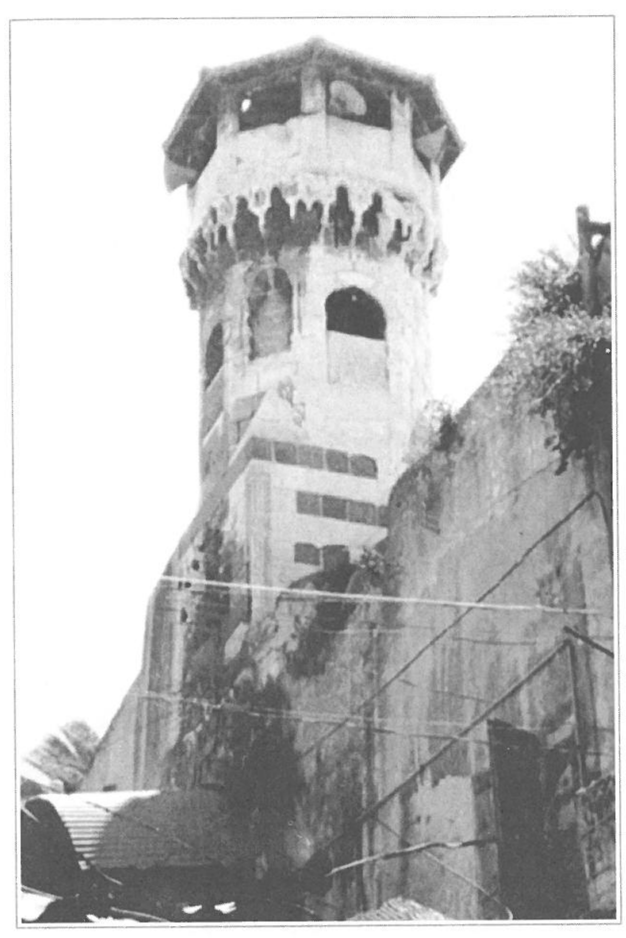
أمّا المئذنة فتقوم فوق الجدار الشمالي المطلّ على البلاط، وهي أسطوانيّة الشكل يحيط بساقها إفريزان دائريان، تقوم فوق الإفريز الأعلى زخرفة من المقرنصات والتجويفات والتوريقات، التي تتدرّج في الإتساع على شكل دائرة أكبر من حجم ساق المئذنة، تقوم عليها الشرفة. وفي وسط الشرفة يرتفع أسطوان أصغر حجماً ثم رأس المئذنة المخروطي[1].

9 ـ جامع الطحام

يقع في محلة الحدادين، وهو مرتفع عن الأرض، يصعد إليه بدرج، وهو لا يحمل كتابة تاريخية تبيّن تاريخ بنائه. واقدم وثيقة عن هذا المسجد تعود إلى سنة 1077هـ/ 1667م، وهي عبارة عن تعيين كاتب لوقف الجامع[2].

يسمّيه العامة جامع الطحان، ويسميه النابلسي جامع الطحال[3]. يقوم جامع الطحام فوق مجموعة من الحوانيت، حيث يصعد إليه بالدّرج، وهو الجامع المملوكي الوحيد الذي يرتفع عن الأرض في طرابلس.

(1) عمر تدمري، تاريخ وآثار، ج 2، ص 231.
(2) فاروق حبلص، مرجع سابق، ص 62. ويستند في كلامه هذا، على سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس، سجل رقم 1، ص3.
(3) الياس القطار، مرجع سابق، ج 2، ص 469.



صورة رقم (99)
مئذنة جامع الطحام، التي تعتبر من أجمل المآذن المملوكية في طرابلس، وذلك لغناها بالزخرفة الجميلة.

تصوير خاص بالباحث

يقع باب الجامع في الجهة الشمالية داخل قنطرة مفرغة تقوم فوقها مئذنة الجامع. وقد بنيت القنطرة من الحجارة الداكنة اللّون. أمّا حرم الجامع فهو مربّع الشكل تقريباً، يبلغ طوله 15م، وعرضه14,30م. ويوجد داخل الحرم أربعة أعمدة من الجرانيت تنتهي بتيجان بيزنطية مزخرفة بأشكال نباتيّة، وترتكز عليها أربعة دعامات تقوم عليها قبة الجامع التي تتوسط الحرم.

وفي الزاوية الغربية من الجدار القبلي نجد غرفة وهي مخصّصة لخطيب الجامع. وفي الجهة الشرقية للحرم يوجد أسطوان كان يقوم داخله حوض الوضوء، وقد أزيل هذا الحوض منذ عهد قريب، ولم يبق من آثاره سوى لوحة

رخامية تؤرخ لبناء الحوض، وترجع إلى أوائل القرن الثاني عشر للهجرة، الثامن عشر للميلاد تنص على ما يلي:

«أنشأ هذا الخيِّر لوجه الله العزيز، الغفار عبده الحاج حسن بن، البيراقدار، رحمه الله سنة 1111»[1].

ومئذنة جامع الطحام تعتبر من أجمل مآذن طرابلس لغناها بالزخرفة الرائعة. وهي مثمنة الأضلاع ولها أربع نوافذ في كل جهة نافذة تزدان شرفاتها بالزخرفة، وفي الأضلاع بين النوافذ نجد تجويفات رائعة الهندسة على جانبيها أعمدة مجدولة من الحجارة البيضاء. وفوق النوافذ تقوم طبقتان من المقرنصات والمتدلّيات والتجويفات الرائعة، وتقوم فوقها شرفة المئذنة التي تنتهي بثمانية قوائم، يرتكز عليها سقفها. ويزين قاعدة المئذنة بعض الحجارة السوداء التي وضعت بدون نظام مع الحجارة البيضاء التي بنيت بها المئذنة[2].

ـ المدارس الإسلامية في مدينة طرابلس

لم تكن المدارس التي أنشأها المماليك أقلّ روعةً وجمالاً من المساجد والجوامع، بل كانت تفوقها زخرفة وبهاءً. وحينما فكّر المماليك في تصميم مدارسهم، خالجتهم فكرة توسيع المبنى ليمكن استعماله مسجداً ومدرسة في نفس الوقت. ولكن المماليك الشراكسة، ومنذ القرن الخامس عشر ميلادي، عمدوا إلى تشييد الجوامع الصغيرة لتتخذ صفة المدرسة، وتبعاً لهذا الطراز المعماري الجديد فقد استغني عن الصحن المكشوف[3].

وإذا كان لابُدّ للباحث من تتبع الفنون الإسلامية في المدارس المملوكية، فإنّ مدينة طرابلس تعتبر الوحيدة في لبنان، التي ما زالت تحتفظ بعدد لابأس به

(1) عبد الغني النابلسي، مصدر سابق، ص 72.

(2) عمر عبد السلام تدمري، مرجع سابق، ج 2، ص 237 ـ 238.

(3) ارنست كونل، الفن الإسلامي، ص 105.

من تلك المدارس، وإنْ يكن البعض منها قد طالته يدُ الخراب و الإندثار، إلاّ أنه ما يزال هناك الكثير منها بحالة جيدة.

1 ـ المدرسة القرطاوية

ويسميها العامة المدرسة الأرطاوية، ويقال لها مدرسة قرطائي بك وقد أمر ببنائها الأمير سيف الدين قرطاي بن عبد الله الناصري نائب طرابلس سنة 716 ـ 726هـ[1]، وتعتبر هذه المدرسة من أجمل آثار طرابلس وأفخمها[2].

وهي من أكبر مدارس طرابلس المملوكية، وتلاصق الجامع المنصوري الكبير من الجهة الشرقية، ولها ثلاثة أبواب، أهمها الباب الشمالي وهو الباب الرئيس، والباب الثاني يقع في الجهة القبلية عند الزاوية الشرقيّة من بيت الصلاة، وهو يزخر بالنقوش التاريخية المختلفة. أمّا الباب الثالث فيقع في الركن الجنوبي الغربي من بيت الصلاة، حيث يفضي إلى حرم الجامع المنصوري من جهته الشرقية، ويصله به سُلّم حجري، وهي تمتاز عن بقية مدارس طرابلس بإحياء صلاة الجمعة والأعياد بها[3].

وتعتبر بوابة هذه المدرسة من أجمل البوابات المملوكية المماثلة. وهي عبارة عن قطاع مستطيل مجوّف، ينزل إليها بدرجتين، وعلى جانبيها مصطبتان من الحجارة. وفي زوايا البوابة الخارجيّة ينتصب عامودان من الرّخام، متوّجين بزخرفة لطيفة، يعتقد المستشرق كوندي أنهما من الأعمدة الرّومانية، كالعمودين الموجودين على جانبي المحراب، داخل المدرسة[4].

---

(1) هو الأمير شهاب الدين قرطاي بن عبد الله الناصري الصالحي الأشرفي الجو كندار الحاجب، نائب السلطنة بطرابلس. ولي نيابتها مرتين في أيّام الملك الناصر محمد بن قلاوون. الأولى سنة716 هـ إلى سنة 726 هـ، أما الثانية فكانت سنة 733هـ واستمرت حتى توفي سنة 734هـ، ودفن في مدرسته التي أنشأها في طرابلس وهي المدرسة القرطاوية.
ـ المقريزي، السلوك، ج 2، ق 2، ص 376.

(2) محمد كرد علي، مرجع سابق، ج 6، ص 128.

(3) عمر تدمري، مرجع سابق، ج 2، ص 244.

(4) Bruce Condé, op. cit., p. 38.

وواجهة جدار المدرسة والبوابة مبنيّة بالحجارة الرمادية والسوداء المتعاقبة بشكل خطوط أفقيه. وتنقسم واجهة الجدار إلى قسمين علوي وسفلي، ويبرز العلوي عن القسم السفلي بعض السنتيمترات. ويوجد في هذه الواجهة نافذتان نقشت حولهما زخرفة جميلة. وعلى يسار البوابة نجد تجويفاً أفقياً مستطيل الشكل عليه لوحة حجرية تحمل كتابة لأحد المراسيم السلطانية، وقد اختفى القسم الأكبر من الكتابة، ولم يبق منها سوى جزء بسيط في الركن الأسفل إلى اليمين. وهذه اللوحة تقع فوق إفريزين أفقيين يلامس أسفلهما أرضيّة الطريق.

أمّا عتبة باب المدرسة، فهي قطعة ضخمة من الرخام، يعلوها مثلّث متسع الأضلاع، نقش داخله: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾.

وفوق هذا المثلث، عقد مقوس من الرخام الأبيض والأسود المتعاشق بشكل سنجات متداخلة، وفوق القوس يوجد لوحة مربعة تزدان بزخرفة هندسية رائعة تتداخل فيها الألوان، أبيض وأسود ورمادي، وتتوسط هذه اللوحة جامة تحيط بها حبال زخرفية مجدولة. وتعلو هذه اللوحة ثلاث طبقات من المقرنصات والمتدلّيات، التي يعلوها تجويف نصف كروي، يحيط به إطار بارز من الزخرفة بشكل متعرّج.

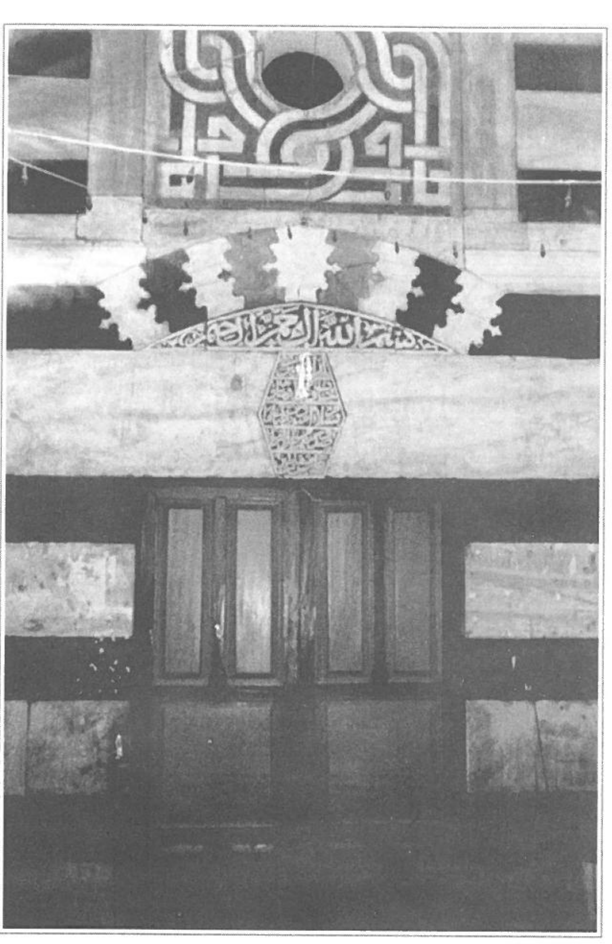
وفي وسط عتبة الباب، توجد لوحة رخامية بشكل عامودي نقشت عليها آيات من القرآن الكريم في خمسة أسطر وهي[1]:

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي
جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ، ٱدۡخُلُوهَا
بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ، وَنَزَعۡنَا مَا فِي
صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا
عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[2].

---

(1) عمر عبد السلام تدمري، مرجع سابق، ج 2، ص 246.

(2) قرآن كريم، سورة الحجر، آية 45، 46، 47.



صورة رقم (100)
باب المدرسة القرطاوية.

تصوير خاص بالباحث

وفي وسط بلاط المدرسة الشمالي، بين الرواقين الغربي والشرقي، يوجد حوض للوضوء، رخامي مربّع الشكل تتوسطه نافورة رخامية، وترتفع فوقه قبة لها أربعة نوافذ.

ويتألف حرم المدرسة من ثلاثة أروقة، أكبرها الرواق القبلي، الذي يبلغ طوله 19,50م، وعرضه 6,80م. أمّا الرواقان الشرقي والغربي فيفصلهما عن الرواق القبلي عضاضتان، ويبلغ طول كل منهما من الشمال إلى الجنوب 6,70م، وعرض كل منهما 5,40م، وتعلو مدخل المدرسة الشمالي سدة خشبية مرتفعة، وفوق السدة تنفتح في الجدار الشمالي نافذة دائرية شبيهة بالنوافذ الدائرية

الموجودة في جامع البرطاسي. كذلك نجد قبة فوق المحراب والرواق القبلي تقوم على مقرنصات مثلثة تنفتح فيها 12 نافذة.

أمّا أروقة المدرسة فترتفع عن البلاط، الذي يضم حوض الوضوء بأكثر من نصف متر. وقد زخرف الجدار القبلي وقسم من الجدار الغربي بالرّخام الملّون. ويمتاز المحراب بزخرفته الهندسية المتناسقة، وبالفسيفساء التي تعلوه، وبالعامودين الرخاميين على جانبيه. وفي نهاية الرّواق الغربي إلى الشمال، توجد حجرة ضريح تعلوه قبة صغيرة، وهي لا تحمل أيّ كتابة، ومن المحتمل أنّ هذا الضريح يضم رُفات الأمير قرطاي باني المدرسة.

وفي الجدار القبلي للمدرسة تنفتح أربعة نوافذ، يوجد فوقها من الخارج قطع من الرّخام الأبيض نقشت فيها زخرفة هندسيّة داخل ثلاثة إطارات أرضيتها سوداء، إثنتان منهما مستطيلتا الشكل ويتوسطهما إطار مربع الشكل. وفوق هذه الزخرفة مثلث متسع الأضلاع نقشت داخله آية من القرآن الكريم، يعلوه قوس به سنجات متعاشقة من الرخام الأبيض والأسود. وقد نقش فوق النافذة الأولى ما نصه[1]:

(بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين).

وفوق النافذة الثانية:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾.

وفوق النافذة الثالثة:

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ﴾.

وفوق النافذة الرابعة:

﴿يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

وتعتبر هذه الواجهة الخارجية للمدرسة القرطاوية بمثابة لوحة إعلانات،

(1) عمر عبد السلام تدمري، مرجع سابق، ج 2، ص 248.

صورة رقم (101)
القسم الأعلى من بوابة المدرسة القرطاوية ونجد فيها ثلاث طبقات من المقرنصات والمتدلّيات.



تصوير خاص بالباحث

ومراسيم سلطانية كبيرة، حيث تزدان بالنقوش والكتابات التاريخية المتضمّنة لمراسيم سلطانية برفع المظالم عن أهالي طرابلس وملحقات نيابتها[1].

2 ـ المدرسة الزريقية

وهي من أقدم مدارس المماليك في طرابلس. قام ببنائها الأمير عز الدين أيبك الموصلي المنصوري، نائب طرابلس وذلك في سنة 697هـ/ 1297م[2].

(1) عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص 422.

(2) هو نائب طرابلس سنة 694هـ ، بعد عزل عز الدين أيبك الخازندار. قال عنه إبن تغري بردي: «إنّ أيبك الموصلي توفي بطرابلس في أول صفر سنة 698هـ مسموماً، وكان من أجلّ الأمراء، وله مواقف مشهورة». ويدعوه بنائب طرابلس والفتوحات الساحلية.
ـ ابن تغري بردي، مصدر سابق، ج 8، ص 183.

ولا تحتوي البوابة على أيّ زخرفة، إلاّ أنّ تجويفها يحتوي على مقرنصتين مثلثتين، وفوق عتبة الباب تجويف مستطيل يعلوه تجويف مماثل يحمل نقشاً كتابياً بإنشاء زاوية في المدرسة، ويحتضن هذين المستطيلين مع عتبة الباب قوس، تقوم على جانبيه زاويتان من المقرنصات يعلوهما تجويف نصف كروي. وعلى يمين الباب نقشت ستة أسطر داخل لوحة، وهي بالخط النسخي المملوكي، تؤرخ لبناء المدرسة التي سميت مسجداً، وهي تنص على ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أنشأ هذا المسجد المبارك، الفقير إلى الله أيبك الموصلي، عفا الله عنه في تاريخ عشرين، جمادي الآخر سنة سبع وتسعين، وستماية»[1].

وقد أضيف إلى هذه المدرسة مصلّى صغير سنة 738هـ/ 1337م، أضافه سيف الدين كرتاي، وسجّله على طبلة عقد المدخل، وهوينص على ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بأنشاء هذه الزاوية المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى سيف الدين كرتاي السيفي، وذلك في تاريخ شهر شوال سنة ثمان وثلاثين وسبعماية»[2].

وقد أزيلت هذه المدرسة منذ فترة قريبة، وذلك بعد توسيع مجرى نهر أبي علي، وكانت تقع في محلّة السويقة، على الضفة اليمنى للنهر، بجوار حمام الحاجب[3].

3 ـ مدرسة الخيرية حسن

وهي من المدارس المحيطة بالجامع المنصوري الكبير، تقع في الشمال الغربي منه، ويشغلها حالياً رشاد حمزة الذي يتولّى دفن موتى المسلمين في المدينة.

(1) SOBERNHEIM, op. cit., p.83 ـ سميح وجيه الزين، مرجع سابق، ص426.

(2) SOBERNHEIM, Ibid, p. 83-84.

(3) الياس القطار، مرجع سابق، ج 2، ص 424.

أمّا تاريخ بنائها فهو يعود إلى ما بعد سنة 709هـ/ 1309م، وهي مستطيلة الشكل، واجهتها إلى الشرق ويقع فيها باب المدرسة، وسط قطاع مستطيل مجوّف محاط بإفريز ناتئ من المقرنصات المسطحة. وقوس قنطرة الباب من الحجارة البيضاء والسوداء. أمّا تجويف البوابة فهو خالٍ من الزخرفة. ويتوسط طبلة الباب فوق العتبة شبه مستطيل عامودي مجوّف، نقشت داخله ستة أسطر غير واضحة، تتضمّن وقفية وقفتها سيدة على زوجها ويدعى قطلوا[1]. وهي تنص على ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، وقفت جهة المرحوم قطلوا: المصبنة، والمعصرة، والربع فوق المعصرة، وخمس قراريط وربع بطاحون الداودية والسندمرية، بأرض كفر قاهل والبستان ظاهر طرابلس وثلاث قراريط ونصف بسوق أسندمر وثلث الدير يعرف بأرض أصنون ومسكبة زيتون، والقاعة والبحرة والطبقة جوار المدرسة ونصف طاحون الجديدة بعردات وكرم زيتون في بطرام وطبقة ومخزن بقيسارية الإفرانج»[2].

أما أماكن هذه العقارات الموقوفة فتتوزع بين مدينة طرابلس، وقرية كفر قاهل، وقرية بطرام، وهما بقضاء الكورة، وأصنون بقضاء البترون، وعردات بقضاء الزاوية.

وهذه الوقفية لا تحمل تاريخاً. لذلك يعتقد الشيخ البابا أنّ هذه الكتابة ناقصة، وأنّه ذهب منها السطر الأخير أو السطران الأخيران. ويستدلّ على ذلك من أنّ الوقفية لم تذكر وجوه الصرف لريع هذه العقارات[3].

(1) عمر تدمري، مرجع سابق، ج 2، ص 272. الياس القطار، مرجع سابق، ج 2، ص 434.
(2) SOBERNHEIM, op. cit., p.136.
Liebich, H., op. cit., p.102.
(3) عمر تدمري، مرجع نفسه، ج 2، ص 272.

صورة رقم (102)
باب مدرسة الخيرية حسن.



تصوير خاص بالباحث

4 ـ المدرسة الناصرية

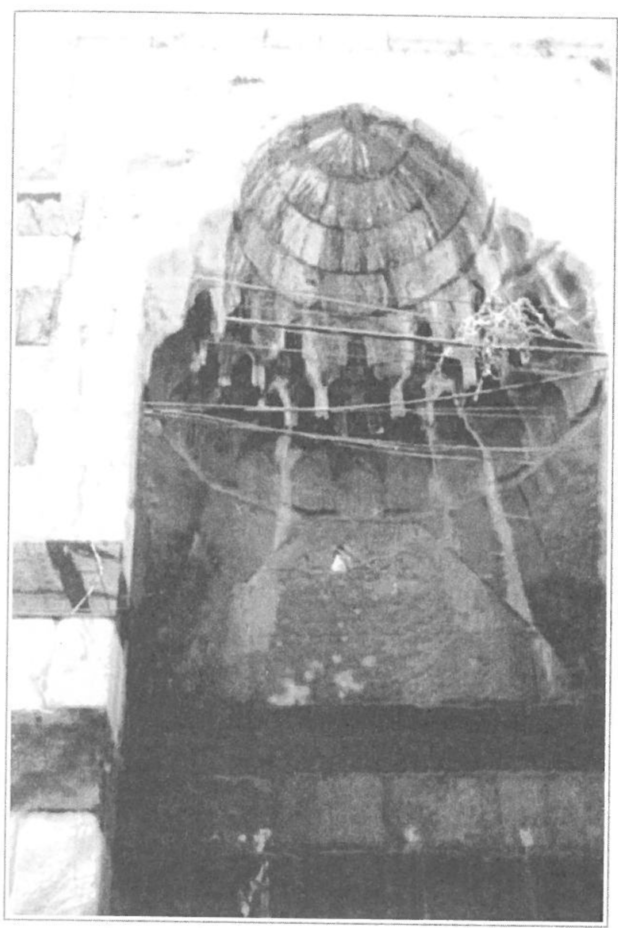
وهي من المدارس المحيطة بالجامع المنصوري الكبير، وهي تواجه الباب الرئيس للجامع. وقد سميت بهذا الإسم، نسبة إلى السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، حيث أمر بإنشائها وذلك أثناء فترة حكمه الثانية، وذلك بين عامي 755 ـ 762 هـ/ 1354 ـ 1361م[1].

يتبين ذلك من خلال النص الكتابي الذي يعلو بوابتها، وهو ينص على ما يلي:

«عز لمولانا السلطان الملك الناصر حسن بن محمد».

المدرسة مربعة الشكل تقريباً، يقع بابها في الطرف الأيمن من الواجهة

(1) Liebich, H., op. cit., p. 132-133.



صورة رقم (103)
بوابة المدرسة الناصرية، نجد في وسطها النقش الكتابي الذي يؤرخ لمنشئها. وتعلو النقش صفوف من المقرنصات والمتدلّيات.

تصوير خاص بالباحث

الشرقية، داخل قطاع مستطيل مجوّف، ينتهي من الأعلى بتجويف مقوّس نصف كروي، نجد تحتها صفّ من المقرنصات.

وعلى يسار البوابة، تمتد ثلاثة خطوط من الحجارة السوداء بعرض الواجهة فوق نوافذ المدرسة. والمدرسة من الداخل خالية من الزخرفة[1].

5 ـ المدرسة النورية

تقع بمواجهة حمام النوري في أول سوق الصّيّاغين من الجنوب، ويعتبر

(1) عمر تدمري، تاريخ وآثار، ج 2، ص 273 ـ 274.

محرابها من أجمل المحاريب في طرابلس، بنيت حوالي سنة 733هـ/ 1332م[1].

تعتبر هذه المدرسة من أجمل المدارس المملوكية المحيطة بالجامع الكبير. وتقع بوابتها في أقصى اليسار للواجهة الشرقية، وهي عبارة عن قطاع مستطيل مجوّف مبني بالحجارة المتناوبة من الأبيض والأسود، ويحيط بها من الأعلى إطار، وعلى الجانبين إفريز بارزمن الخطوط المتعرجة. وللبوابة عقد بشكل قوس منكسر. وفي وسط واجهة البوابة أسفل القوس، شكل مستدير بداخله سنجات ملونة تمثل شعاعات حول دائرة مركزية مفرغة، يتناوب فيها اللونان الفيروزي والأسود، وعلى جانبي مدخل بوابة المدرسة تقوم مصطبتان.

ويؤدي باب المدرسة إلى ممر مستطيل، على يمينه يقوم بيت الصلاة، الذي يضم بلاطاً بمستوى أرض الممر، أرضيته من الرخام الملّون، الأبيض والأسود والفيروزي. وحول البلاط من الغرب والشمال رواقان صغيران يرتفعان حوالي نصف متر. وفي الزاوية الجنوبية الغربية من البلاط، يقوم حوض ماء مستطيل للوضوء. وفوق البلاط ترتفع قبة المدرسة التي ترتكز على أربع عضاضات مندمجة مع الجدران، وبها فتحة دائرية في أعلاها لإدخال النور، وهي مثمّنة الأضلاع.

أمّا حرم المدرسة فهو يرتفع عن البلاط بنفس مستوى الرواقين. ويتوسط جداره القبلي محراب رائع الزخرفة، يقوم على جانبيه عامودان رخاميان تتوجهما زخرفة تشبه النبات الشوكي.

أمّا واجهة المحراب الخارجية، فهي تقوم على قوس من سنجات متعاشقة، من الرخام الأبيض والأسود والفيروزي، تعلوها زخرفة من الفسيفساء الملونة. أمّا باطن المحراب فتعلوه قنطرة ذات أضلاع مقوسة بها خطوط متعرّجة بشكل هندسي متناغم، من الرخام الأبيض والأسود والأحمر. ويعلو المحراب قطاع مفرغ في الجدار القبلي، تنفتح به ثلاثة نوافذ، وعلى جانبي المحراب

(1) عمر تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري، ج 2، ص 316 ـ 317.



صورة رقم (**104**)
باب المدرسة النورية.

تصوير خاص بالباحث

تنفتح نافذتان كبيرتان بمستوى أرض الحرم. وفي الركن الشمالي الشرقي من المدرسة، يوجد ضريح تعلوه قبة، ترتكز على أربع زوايا مجوّفة، تنفتح فيها أربع نوافذ. وبجوار الضريح نجد غرفة صغيرة، يعتقد أنها كانت لإمام المدرسة والمدرسة شبه معطّلة في أكثر الأوقات[1].

6 ـ المدرسة الشمسية

تقع على يسار الداخل إلى الجامع المنصوري الكبير من البوابة الرئيسة في

(1) عمر تدمري، تاريخ وآثار، ج 2، ص276 ـ 277. Liebich, H., op. cit., p.119.

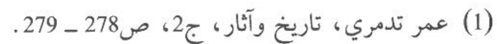
سويقة النوري، وتنسب إلى مؤسسها شمس الدين المولوي، بناها في سنة 749هـ/ 1349م.

تلاصق هذه المدرسة الجامع الكبير من جهته الشمالية، ولها باب على الرواق الشمالي للجامع، يفضي إلى بيت الصلاة. ولها باب ثاني عند مدخل الجامع الرئيس، وهذا الباب يؤدّي عبر ممر إلى ضريح يضم تربتين، كما يؤدي إلى بيت الصلاة[1].

وليس في المدرسة أي زخرفة أو نقوش، كما أنه ليس لها قبة. والذي يلفت النظر فيها هو العقد الوسائدي، الذي يقوم فوق المنظرة المطّلة على الضريح، في وسط واجهة المدرسة الغربية. إذ أنّ العقد يتألّف من أربع وأربعين وسادة متعاقبة بشكل قوس، فوقها إفريزان مقوّسان، وهو نوع شائع في العمارة المملوكية في كل من مصر والشام، نجد مثله في أحد عقود بوابة الفتوح بالقاهرة، وفي عقد مدخل مسجد الظاهر بيبرس، وفي عقد مدخل خانقاه بيبرس الجاشنكير، وفي نافذة مئذنة سنجر الجاولي بمصر، وفي أحد العقود المنسوبة إلى الظاهر بيبرس، في قلعة صيدا البحرية[2].

ويقول عبد العزيز سالم: «بأنّ (بروس كوندي) يرجع هذا الطراز المعماري للعقود إلى الصليبيين[3]، وهذا غير صحيح، لأنّ هذا النوع من الهندسة المعمارية، كان شائعاً في كثير من أبنية المماليك في مصر والشام»[4]. فهناك العقود الوسائدية المشابهة لهذا العقد، فوق نوافذ مئذنة جامع طينال، كذلك نجدها في عقد نافذة البرج الإسلامي في قلعة صيدا البحرية، وفي عقد مدخل قبة السعادين في بعلبك[5].

(1) عمر تدمري، تاريخ وآثار، ج2، ص278 ـ 279.



(2) عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص 419.

- Liebich, H., op. cit., p. 125-126.

(3) Bruce Condé, op. cit., p34,39.

(4) عبد العزيز سالم، مرجع نفسه، ص 420.

(5) عمر تدمري، مرجع نفسه، ص 279.

7 ـ مدرسة المشهد الأثرية

يطلق عليها العامة أسم المدرسة الأثرية، وتسميها مديرية الآثار مدرسة المشهد، وقد علّقت عليها لوحة بهذا الإسم. وهي لا تحمل نقش يحدّد إسمها وتاريخ بنائها. ويرجعها المستشرق (بروس كوندي)، إلى عصر المماليك البرجية[1].

أمّا موقعها فهو تحت مئذنة الجامع الكبير، بمواجهة المدرسة الشمسية. ويقول الشيخ البابا: «إنه من المعتاد أنّ من يقوم ببناء مدرسة أو غيرها من المباني، يبني لنفسه مشهداً ليدفن فيه». وبما أنّ هذه المدرسة تحتوي مشهداً بداخلها، فقد أطلق عليها إسم مدرسة المشهد[2].

أمّا عمر تدمري فيقول: «إنّ أسم مدرسة المشهد هو أسم إجتهادي، لأنّ معظم المدارس المملوكية في طرابلس، تضم مشاهد وأضرحة، وعلى هذا يمكن أن نطلق عليها أيضاً هذه التسمية»[3].

وتعتبر هذه المدرسة من أصغر المدارس المملوكية في طرابلس، المحيطة بالجامع الكبير، وهي تمتاز بزخرفة تجويف بوابتها الجميلة. وتقع هذه البوابة في أقصى اليمين من واجهة المدرسة، داخل قطاع مجوّف مستطيل الشكل، يزدان بالحجارة البيضاء والسوداء. وتعلو الباب قنطرة نصف دائرية، يعلوها قوس نصف دائري من الحجارة الرمادية.

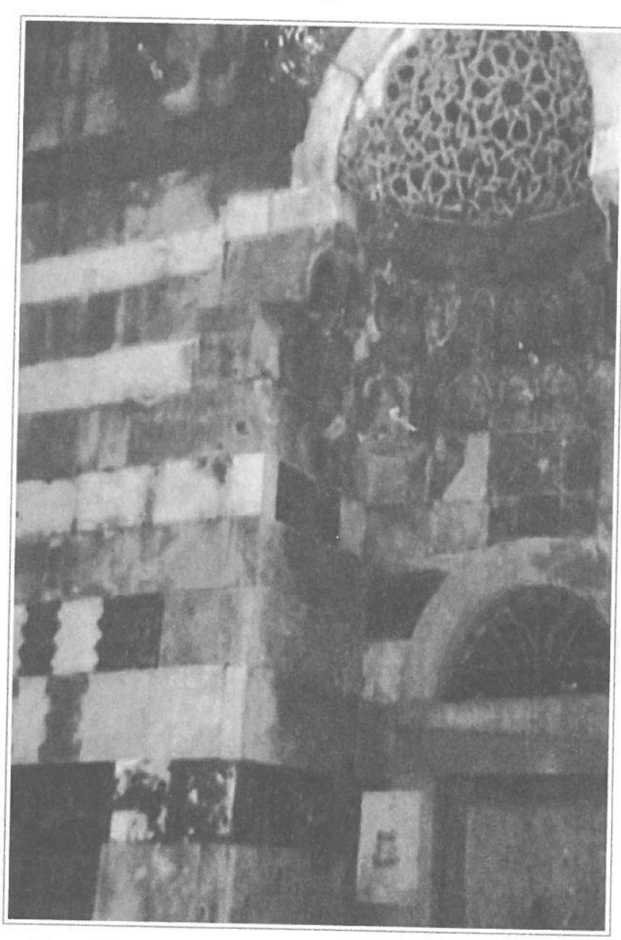
يعلو البوابة تجويف نصف كروي، يزدان بزخرفة هندسية من الفسيفساء وقطع الرخام الأبيض والأحمر والفيروزي، وتحت هذا التجويف يوجد صفّ من المتدلّيات، تحتها صف من المقرنصات. ويحيط بواجهة المدرسة شريط من الزخرفة البارزة المتعرّجة، بشكل أسنان المنشار. ويزدان جدار المدرسة القبلي

---

(1) Bruce Condé, op. cit., p.42.

(2) منذر عوض، مرجع سابق، ص 99.

(3) عمر تدمري، مرجع سابق، ج 2، ص 283.



صورة رقم (105)
مدخل مدرسة المشهد الأثرية.

تصوير خاص بالباحث

من الداخل بزخرفة جميلة من الجصّ الأبيض، وقد نقش في أعلى الجدار، جامة كبيرة تمتلئ بالزخرفة والتشكيلات الفنية الإسلامية الرائعة، يحيط بها إفريزان بشكل قوسين كبيرين من الجصّ، وهما مزخرفان أيضاً.

وفي أعلى الجامة وأسفلها، نقشت دائرتان صغيرتان، في كلٍّ منهما رنك الساقي. وتحت الدائرة الصغيرة لوحة مستطيلة تمتد بعرض الجدار، يحيط بها إطار بارز، نقشت داخلها الآية التالية:

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

ويحيط بهذه الآية، زخرفة نباتية من الجصّ الأبيض. وفي أسفل الجدار

القبلي ينتصب محراب المدرسة، وهو عبارة عن قطعة من الرخام الرمادي اللون، وهو بارز عن الجدار، وأمام المحراب تربة يرتفع سطحها عن الأرض حوالي 30 سنتم، وتقوم في أركانه الأربعة أربعة شواهد رخامية، مفصصة دائرية الرأس. وعلى جانبي بيت الصلاة، في الجهتين الشرقية والغربية، تقوم عضاضتان، تشكّلان قناطر من النوع الشائع في بلاد المغرب العربي. وهذه المدرسة معّطلة، وهي تستخدم كمستودع، رغم أهميتها وقيمتها التاريخية[1].

8 ـ المدرسة الطواشية

تقع هذه المدرسة في منتصف سوق الصيّاغين. وتعرف بإسم المدرسة الطواشية، أو مدرسة بني الطواشي، كما في سجلات المحكمة الشرعية، وذلك نسبة إلى مؤسسها الأمير سيف الدين الطواشي توفي سنة 875هـ/1471م[2].

تتكوّن المدرسة من ثلاثة أقسام:

1 ـ القسم الأيمن، ويضم ضريحاً فوق القبة.

2 ـ القسم الأوسط، وهو بلاط المدرسة السماوي، والميضأة.

3 ـ القسم الأيسر، وهو بيت الصلاة.

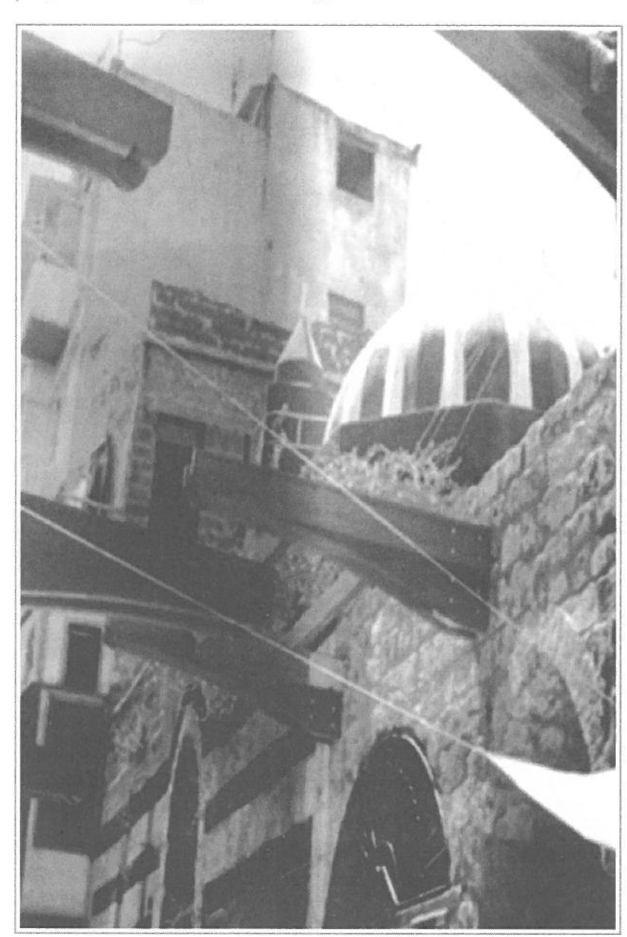
أما باب المدرسة فيقع في وسط الواجهة القبلية، ويفضي إلى البلاط السماوي، وعلى يمينها الضريح، وعلى يساره بيت الصلاة.

وهو ذات عقد أندلسي مغربي الطراز، شبيه بعقود بعض الأبنية الشائعة في عصر دولة الموحّدين الأندلسية المغربية.

---

(1) عمر تدمري، مرجع سابق، ج 2، ص 284 ـ 285.

(2) الطوشي، جمعه طواشية، وهم الخصيان الذين يستخدمون في قصور المماليك وفي أجنحة الحريم السلطاني، وسيف الدين الطواشي واحد منهم، ولم أقف له على ترجمة شخصية.
ـ عمر تدمري، تاريخ وآثار، ص287.



صورة رقم (106)
المدرسة الطواشية.

تصوير خاص بالباحث

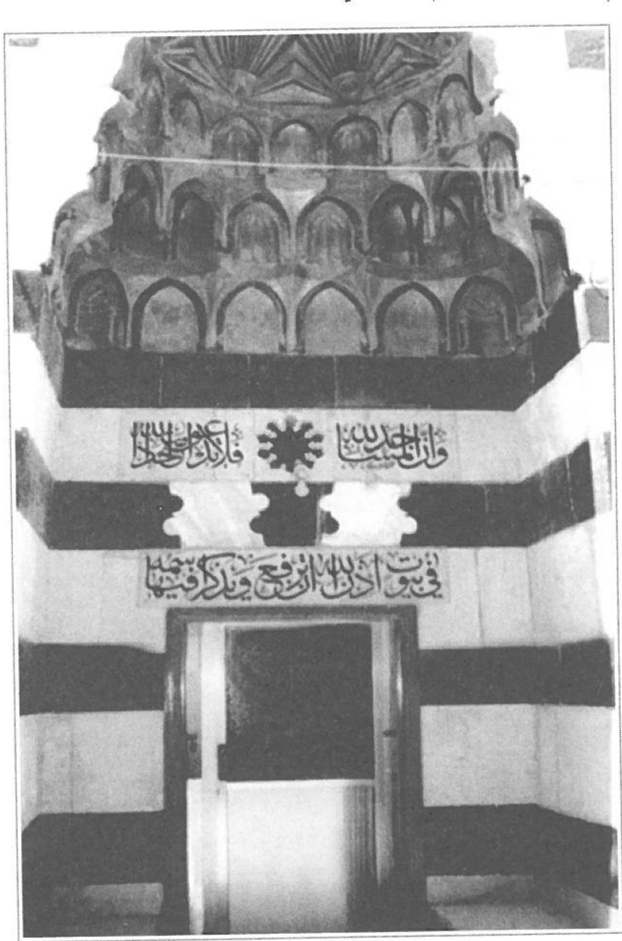
وهذا يدلّ على التأثيرات العمرانية الأندلسية، في أبنية المماليك في بلاد الشام[1].

وهذه البوابة تعرض لنا نماذج من أروع أمثلة المقرنصات المملوكية. بأعلاها تجويف نصف كروي على شكل محارة مزخرفة بأربع مجموعات[2].

---

(1) Bruce Condé, op. cit., p.72.

(2) سميح وجيه الزين، مرجع سابق، ص 428-429.



صورة رقم (107)
مدخل المدرسة الطواشية.

تصوير خاص بالباحث

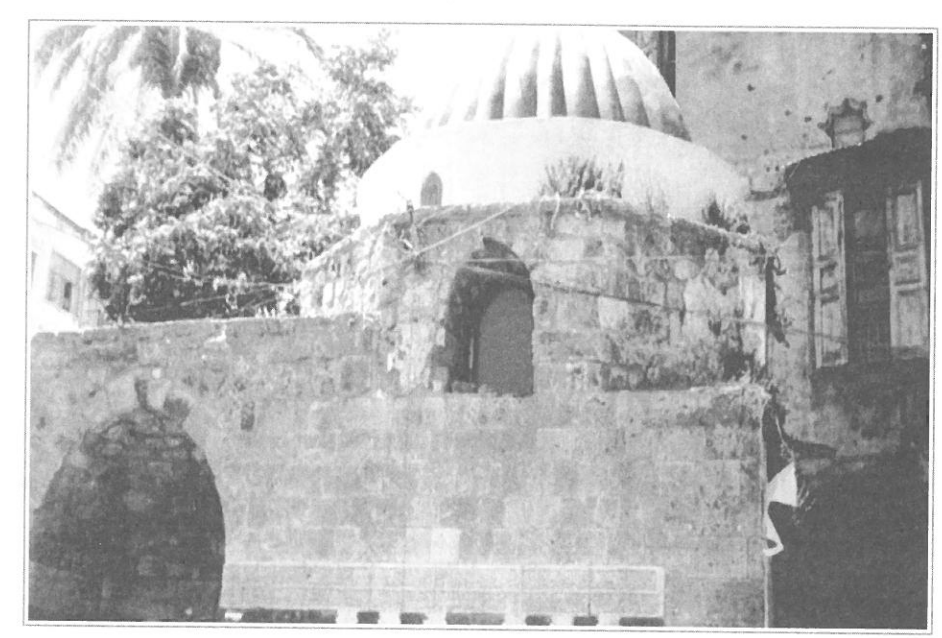
9 ــ المدرسة السقرقية

وتقع بمواجهة المدرسة الخانوتية، بالقرب من جامع أرغون شاه، في الطريق المعروفة بصف البلاط، وهي قديماً محلة آق طرق نسبة إلى باني المدرسة سيف الدين أقطرق الحاجب، وقد بنيت هذه المدرسة قبل سنة 760هـ/ 1359م[1].

(1) الياس القطار، مرجع سابق، ج2، ص 454.

Liebich, H., op. cit., p135-137.

صورة رقم (108)
مدرسة السقرقية.



تصوير خاص بالباحث

وتاريخ إنشاء هذه المدرسة مسجل على جدار واجهتها الجنوبية الشرقية في شريط يمتدّ على كلّ من جانبي البوابة، ويتضمن هذا الشريط الكتابي تاريخ البناء، والعقارات الموقوفة عليها[1]، ويلاحظ أنه يتوسّط كل زوج من نوافذ الواجهة تحت صف الكتابة مباشرة رنك المنشيء لها، وهو عبارة عن دائرة يتوسطها حزام أفقي بداخله سيف يتجه من أعلى الجانب الأيسر إلى أدنى الجانب الأيمن. وتكسو عتبات النوافذ زخارف هندسية من النوع الشائع في العصر التركي. ويعلو الضريح قبة مضلّعة غاية في الجمال، تقوم على رقبة مثمنة قائمة بدورها على قاعة مربعة، في أركانها تجويفات مقوسة مزينة بزخارف نباتية، قوامها المراوح النخلية، ويتدلّى تحت كل جوفة مقرنصات من ثلاث حطات[2].

(1) سميح وجيه الزين، مرجع سابق، ص426-427.

(2) عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص430.

10ـ المدرسة الخاتونية

تنسب المدرسة الخاتونية إلى واقفها أغل خاتون، بنت شمس الدين محمد بن سيف الدولة القازانية البغدادية(1).

تقع قبالة المدرسة السقرقية مباشرة، بناها نائب السلطنة بطرابلس الأمير عز الدين أيدمر الأشرفي(2)، بالإشتراك مع زوجته أرغون.

وبما أن الزوجة كانت في عصر المماليك تلقب بخاتون، لذلك عرفت المدرسة بالخاتونية. إذ أن أرغون زوجة الأمير أيدمر أوصت بأن تدفن بعد وفاتها في تربة المدرسة، ووقفت لها الأوقاف.

ويتبيّن لنا ذلك من نص الوقفية المنقوشة على الباب الشمالي للمدرسة والمؤرّخة في 23شعبان سنة 773هـ. غير أنها توفيت في مصر على الأرجح، ولذلك يخلو مبنى الضريح من تربة. وقد تم بناؤها في سنة 775هـ/ 1374م(3). تتألف المدرسة من قسمين: شمـالي وجنوبي.

فالشمالي يضم حجرة الضريح وقبته. والجنوبي يضم بيت الصلاة.

وللمدرسة واجهتان: شمـالية وغربية. وعلى يسار الواجهة الشمالية توجد البوابة الرئيسية. وهي عبارة عن قطاع مجوّف مستطيل الشكل، ينتهي بقنطرة تخلو من الزخرفة.

---

(1) Liebich, H., op. cit., p. 144, 152.

(2) هو عز الدين أيدمر بن عبد الله الشيخي الأنوكي، الدوادار، الناصري، تولّى نيابة طرابلس لمرتين، الأولى في شهر جمادي الآخرة سنة 769هـ، عوضاً عن الأمي اليوسيفيي،(1) واستمرّ بها حتى آخر سنة 772هـ، حيث إنتقل في أول المحرم من سنة 773هـ، إلى نيابة حلب. وإستقرّ مكانه في طرابلس الأمير اشقتمر المارديني. ثم عاد أيدمر إلى نيابة طرابلس مرة ثانية في شهر جمادي الآخرة سنة 774هـ، وبقي بها حتى آخر محرم من سنة 775هـ، حيث ذهب إلى مصر واستقرّ بها. ـ المقريزي، السلوك ، ج3، ق1، ص157، 195، 204، 217.

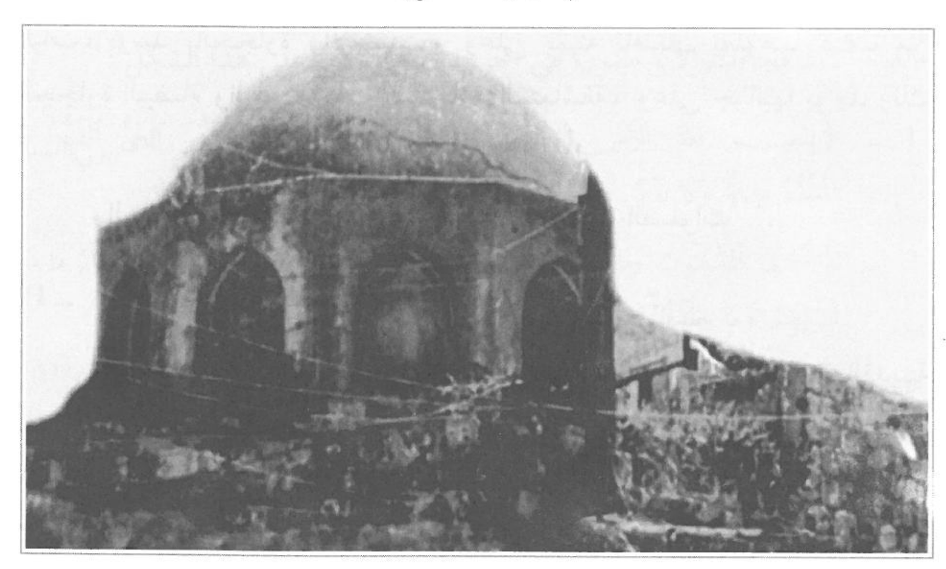
(3) SOBERNHEIM, op. cit., p.114 محمد كرد علي، مرجع سابق، ج6، ص129. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص431

صورة رقم (109)
واجهة المدرسة الخاتونية، وعليها النقوش التاريخية.



تصوير خاص بالباحث

صورة رقم (110)
قبة المدرسة الخاتونية.



تصوير خاص بالباحث

أمّا واجهة البوابة الداخلية، فقد زينت بالحجارة البيضاء والسوداء المتناوبة. ويوجد فوق عتبة الباب، نص كتابي من أربعة أسطر، يعلوه صف من الحجارة البيضاء والسوداء، ذات السنجات المتعاشقة، ويوجد فوقها نص من أربعة أسطر أيضاً، وفوقها لوحة ذات إطار بارز، مربّع الشكل يحتوي على زخرفة إسلامية، وعلى جانبي هذا المربع يوجد عامودان من الكتابة يضم كل عامود منهما عشرة أسطر.

ويؤدّي الباب الشمـالي إلى ممر يقوم على جانبه الأيمن الضريح، وبيت الصلاة، وتعلو الضريح قبة ترتكز على طابق مضلع وتنفتح في كل مضلع منه نافذة لها عقد مقوس.

وتتدلى في زوايا القبة من الداخل مقرنصات ومثلثات، وفي واجهتي الضريح من أسفل يوجد أربعة نوافذ، يعلوها صف من الحجارة البيضاء والسوداء، ذات السنجات المتعاشقة التي يتخللها رنك الساقي، داخل دوائر صغيرة.

أما بيت الصلاة، فله باب آخر في الواجهة الغربية الخارجية وقد أغلق هذا الباب، وسد بالحجارة والإسمنت. وعلى يمينه نافذتان يعلوهما صف من الحجارة البيضاء والسوداء ذات السنجات المتعاشقة، وعلى جوانبها يوجد رنك الساقي.

والمدرسة حالياً مقفلة ومهجورة، ولا تقام فيها الصلوات[1].

11ـ المدرسـة العجمية

تقع عند منتصف الدرج الموصل إلى القلعة، تحت البوابة القديمة للمدينة. قام ببنائها محمد السكر في سنة 766هـ/ 1365م، في نيابة الأمير عز الدين أزدمر الناصري الخازندار[2].

(1) SOBERNHEIM, op. cit., p.p. 115-116.

(2) عمر تدمري، مرجع سابق، ج2، ص303.

والمدرسة مربعة الشكل، يصعد إليها بواسطة درج. ولا يوجد فيها ما يسترعي الإهتمام، سوى النقوش الكتابية، فوق البوابة الغربية، وفوق النوافذ المطلّة على الدرج من الناحية القبلية. كذلك الكتابة القرآنية الموجودة على المدفن داخل المدرسـة.

وقد نقش فوق البوابة، بالخط النسخي، ما يلي:

«أمر بإنشاء هذه التربة المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى، محمد السكر عفا الله عنه. وكان الفراغ منها في مستهل شهر رمضان سنة ست وستين وسبعماية»[1].

وفوق النوافذ نقشت كتابة قرآنية من سطر واحد، وهي:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ * كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾[2].

وفي وسط المدرسة قبر، عليه لوحات رخامية على جانبيه، وقد نقشت عليها آية الكرسي، ويبدو أنّ القبر قد تعرّض للتخريب، وأعيد تركيب اللوحات، فجاءت الآية مبتورة في آخرها، وهي الآن على هذا الشكل[3]:

1 ـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ.

2 ـ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ.

3 ـ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[4].

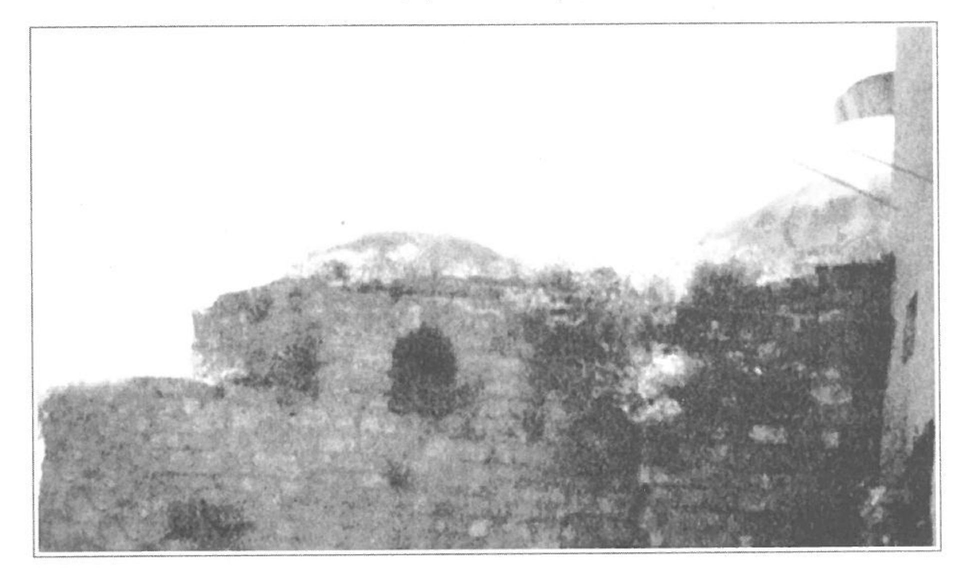
(1) Liebich, H., op. cit., p. 142-143.

(2) قرآن كريم، سورة الدخان، آية 51، 52، 53، 54.

(3) SOBERNHEIM, op. cit., p.113.

(4) قرآن كريم، سورة البقرة، آية 254.

صورة رقم (111)
قباب المدرسة العجمية.



تصوير خاص بالباحث

12 ـ المدرسة الظاهرية

تقع في الجنوب الغربي من جامع البرطاسي، بناها الأمير تغري برمش الظاهري(1) في سنة 799هـ/ 1397م، ونسبت إليه فسميت بالمدرسة الظاهرية. وكان بناؤها في نيابة الأمير سيف الدين أرغون شاه.

---

(1) هو الأمير حسين بن أحمد، المدعو تغري برمش. وكان أبوه يدعى بإبن المصري. من مدينة بهسنا، وكان أحد أجنادها، وكان له ملك بها، فخرجت أملاكه في الفتنة التمرية وافتقر فخرج بأولاده عنها، وهم حسن وحسين، وكان حسن يخدم عند الأمير قراسنقر، وحسين يخدم عند الأمير اينال حطب العلائي. وقد أنعم عليه السلطان ططر بآمرة عشرة في القاهرة، ثم جعله الأشرف أمير طبلخاناه، ونائب قلعة الجبل، ثم جعله نائب غيبته في مصر، ثم ولاه حلب سنة 839هـ. وعندما تسلطن الظاهر جقمق بايعه في البداية ثم انقلب عليه. وجمع جيشاً وتوجه إلى طرابلس، في عهد نائبها جلبان المؤيدّي (838-845هـ)، ودخلها وأخذ منها أموالاً وخيولاً، وتوجه إلى دمشق، فأمسك به ثم ضربت عنقه تحت قلعة حلب سنة 842هـ. أالسخاوي-، الضوء اللامع، ج3، ص35.

وهي مدرسة صغيرة تقع في محلة باب الحديد جنوبي المدرسة البرطاسية، وقد بناها الأمير برمش لدفن ولديه بها.

ومدخل هذه المدرسة مسدود وهي في حالة خراب، وعلى واجهتها كتابة ما تزال ظاهرة، وهي تنص على ما يلي:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم، المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً، قوله الحق وله الملك. عمّر هذا المكان المبارك المقر السيفي تغري برمش الظاهري أعزه لله أنصاره مسجداً وتربة لدفن ولديه، الأخوين الشقيقين السعيدين الشهيدين سيدي الأمير قانتمر وسيدي الأمير تغري بردي الطفلين المنغصين على الدنيا المتحابين في آراء الدنيا والمجاورين في دار الآخرة، تغمدّها الله برحمته وأسكنها فسيح جناته وذلك في ثالث شهر المحرم سنة تسع وتسعين وسبعماية، رحم الله من ترحّم عليهما﴾(1).

ويلاحظ في أوّل السطر الخامس نقش يمثل رنك الساقي، وهو عبارة عن كأسين محفورين في ثلثي الرنك.

وفي المدرسة محراب الجزء الأسفل منه مغطى بأشرطة راسية من الرخام، وتكسو الحنية العليا زخرفة من الفسيفساء قوامها الفروع المتداخلة، ويمكننا أن نميز فيها اللون الأحمر والأبيض والفيروزي والأسود(2).

13 ـ مدرسة سبط العطار

تقع شرقي بركة الملاحة، بجوار الحمام المعروف بالعطار، على الضفة اليسرى من نهر أبي علي.

---

(1) Liebich, H., op. cit., p.153.

(2) عمر تدمري، مرجع سابق، ج2، ص304.
سميح وجيه الزين، مرجع سابق، ص 427-428.

وقد تعرّضت هذه المدرسة لفيضان نهر أبي علي في سنة 1955م، ولم يبق منها الآن سوى آثار بوابتها الغربية التي سدت بالحجارة والرمال، وحجبت الكتابة التاريخية المنقوشة على يسارها، ويذكر عمر تدمري الصعوبات التي عاناها في قراءة هذا النص.

ويتألف النقش من ستة أسطر بالخط النسخي المملوكي، وينص على ما يلي:

1 ـ ﴿الحمد لله. بتاريخ المحرم الحرام

2 ـ سنة اثنين وستين وثمانماية أبطل

3 ـ سيدنا ومولانا قاضي القضاة

4 ـ كمال الدين إبن الناسخ حال

5 ـ مباشرية وظهر القضاء المالكي

6 ـ بطرابلس ما كان على النحيرة﴾.

ويقول عمر تدمري: « إنّ هذا النقش يعتريه النقص، وخاصة السطرين الآخرين، ولكننا نفهم من النص أنّ مكساً كان يفرض على النحيرة من الأغنام، فرسم قاضي القضاة المالكي، إبن الناسخ بطرابلس، بإبطال هذا المكس»[1].

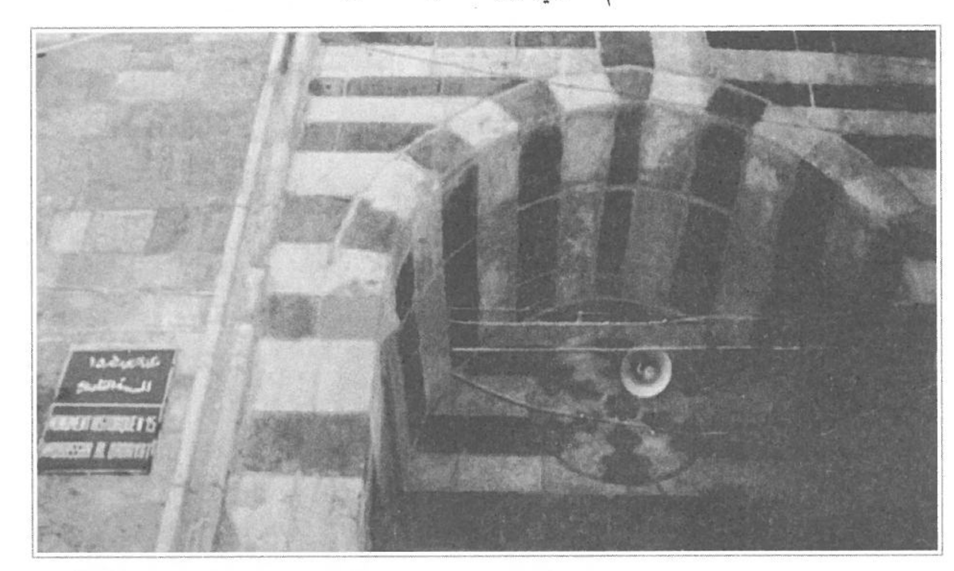
14 ـ المدرســة القادرية

موقعها في وسط الطريق بين جامع الأويسية، وحمام عز الدين. تمتاز هذه المدرسة بحجمها الكبير، بالنسبة للمدارس المملوكية المحيطة بالجامع الكبير. وتمتاز ببوابتها الشرقية، العالية المرتفعة عن بقية بوابات مدارس وجوامع طرابلس.

---

(1) SOBERNHEIM, op. cit., p.124.
عمر تدمري، مرجع سابق، ج2، ص 309-310. - الياس القطار، مرجع سابق، ج2، ص453.

صورة رقم (112)
القسم العلوي لبوابة المدرسة القادرية.



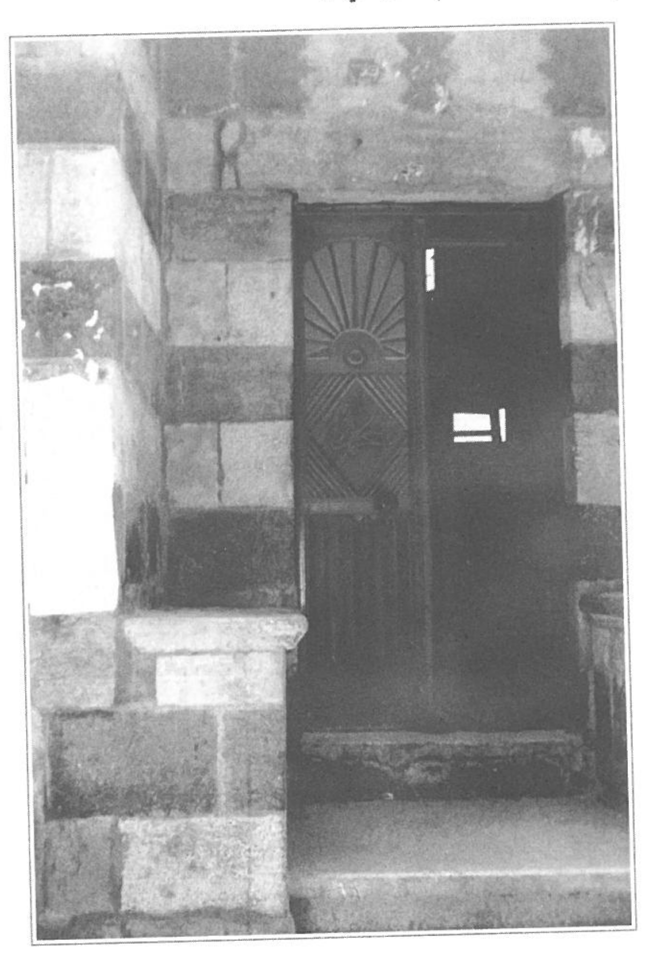
تصوير خاص بالباحث

والبوابة عبارة عن قطاع مستطيل مجوّف، تنتهي بعقد مقوس، ليس فيه أية زخرفة. وعلى جانبيها يوجد مصطبتان مرتفعتان، حيث يصعد إلى المدرسة بواسطة الدرج.

ويزين واجهة البوابة، من فوق القوس، ثلاثة خطوط من الحجارة السوداء. وحول البوابة يمتد إفريز أسطواني بارز، ينتهي طرفاه من أسفل بشكل حلزوني.

وينفصل الطابق السفلي عن العلوي بواسطة إفريزين أفقيين يرتكزان على صف من المقرنصات المسطحة المتتابعة بشكل أفقي.

أمّا بيت الصلاة، فهو مستطيل الشكل، تغطي أرضيته قطع رخامية ملّونة بأشكال هندسية متناسقة. وعلى يمين الداخل إلى بيت الصلاة من الباب الرئيس، يوجد ضريح يضم قبراً لا يوجد عليه أيّ كتابة. وفي الركن الشمالي من بيت الصلاة يقوم حوض ماء من الحجارة والرخام، مستطيل الشكل.



صورة رقم (113)
القسم السفلي لبوابة المدرسة القادرية.

تصوير خاص بالباحث

وللمدرسة باب صغير، يقع في الجهة الغربية، بمواجهة البوابة الشرقية، ويؤدّي إلى سوق البازركان.

والمدرسة معطلة حالياً من الصلوات، وقد تحوّلت إلى مطعم مجاني للفقراء على يد أهل الخير[1].

(1) عمر تدمري، تاريخ وآثار، ج2، ص 319، 320.
الياس القطار، مرجع سابق، ج2، ص 433-434.

15ـ المدرسة الماردانية

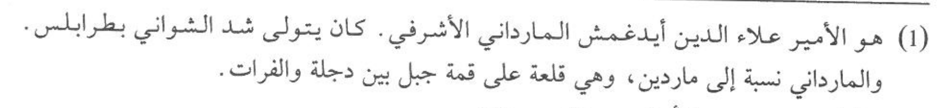
تقع في سوق الإسلام، بميناء طرابلس، وهي المدرسة الوحيدة من عصر المماليك في منطقة الميناء. ولم يأت على ذكرها أيّ من الباحثين أو المؤرخين أو المستشرقين.

وتشتهر هذه المدرسة بإسم مدرسة العريف، نسبة إلى أحد المشايخ من آل العريف، كان يقوم بالتدريس فيها منذ سنوات قريبة.

أما تسميتها التاريخية فهي المدرسة الماردانية، نسبة إلى بانيها الأمير علاء الدين أيدغمش المارداني[1]، وهي من أقدم المدارس التي بناها المماليك في طرابلس، وقد بنيت في سنة 707هـ/ 1306م، في نيابة الأمير اسندمر الكرجي[2]. وهي الآن معطلة ومهجورة[3].

16ـ المدرسة العمرية

ويرجح عمر تدمري بأنها كانت تعرف بالمدرسة العنبرية نسبة إلى مؤسسها أسندمر بن بدر الدين صدقه بن سعيد العنبري في سنة 870هـ/ 1465م، وقد أزيلت في النصف الأوّل من هذا القرن، وضمت أرضها إلى مدرسة الفرير.



(1) هو الأمير علاء الدين أيدغمش المارداني الأشرفي. كان يتولى شد الشواني بطرابلس. والمارداني نسبة إلى ماردين، وهي قلعة على قمة جبل بين دجلة والفرات.
ـ القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص456.

(2) هو الأمير سيف الدين اسندمر الكرجي، نائب طرابلس لفترتين الأولى من سنة 698 إلى 699هـ، والثانية من سنة 700 إلى 709هـ. وإليه يعود الفضل في بناء معظم المدينة المملوكية القديمة.
قال فيه النويري: «وفوضت نيابة السلطنة إلى الأمير سيف الدين أسندمر الكرجي المنصوري فإستمرّ بها إلى سنة تسع وسبعمائة وعمّر بها حماماً عظيماً، وعمّر أيضاً قيسارية وطاحوناً، وأنشأ مماليكه بها مساكن حسنة البناء تجري إليها المياه بالقنوات، ومنها ما تطلع إلى أعلاها وتجري في طبقاتها، وعمر أيضاً بعض القلعة وأقام أبراجاً، وهذه مجاورة لدار السلطنة بطرابلس، وتآمر عدّة من مماليكه».
ـ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص15-16.

(3) المصدر نفسه.

كانت الكتابة التي تؤرّخ لبناء المدرسة، منقوشة على أربع قطع من الحجارة، مثبتة في فناء المدرسة. ويبدو أنّ المدرسة تعرضت قديماً للتخريب، وعندما أعيد ترميمها، وضعت الحجارة المنقوشة دون مراعاة لتتابع النص الكتابي، مما يدلّ على جهل العامل الذي قام بذلك بالقراءة. فقد وضع القطعة الثالثة بين القطعتين الأولى والثانية.

أما النص الصحيح فهو على الشكل التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. بثالث من رجب الفرد من شهور سنة سبعين وثمان مائة. أنشأ العبد الفقير إلى الله تعالى أسندمر ولد العبد الفقير، إلى الله تعالى بدر الدين صدقة بن سعيد العنبري غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين إنه غفورٌ كريم حي، والله نعم الوكيل»(1).

17 ـ مدرسة القاضي الإسكندري

يقول عمر تدمري: «إنّ هذه المدرسة، هي من أقدم مدارس المماليك في طرابلس، ولعلّها المدرسة الثانية بعد المدرسة الزريقية، وقد بناها قاضي طرابلس إبن عطية الإسكندري في أوائل القرن الثامن هجري. وقد بناها لتدريس المذهب الشافعي، وهو المذهب الأكثر شيوعاً في عصر المماليك»(2).

---

(1) SOBERNHEIM, op. cit., p.128.
عمر تدمري، تاريخ طرابلس، ص284.

(2) هو أحمد بن أبي بكر بن منصور بن عطية الإسكندري شمس الدين، قاضي طرابلس. كان فاضلاً في أنواع العلوم، شجاعاً، وعنده عدد لقتال الإفرنج. وكان قد أثرى وكثر ماله. وبنى بطرابلس مدرسة الشافعية. وكان كل من ورد عليه يكرمه، والكلمة مجتمعه في الثناء عليه. قال الذهبي: »فاضل متفنن، عارف بالمذاهب، يتعاطى التجارة، مع رأي جيّد وحزم. كان مولده سنة 634هـ، ومات سنة 707هـ.
- إبن حجر، الدرر الكامنة، ج1، ص121-122.
- عمر تدمري، تاريخ وآثار، ج2، ص 334.

18 ـ مدرسة النسر بن عجبور

كانت تقع على الضفة اليمنى لنهر أبي علي، عند الجسر العتيق بالسويقة، وهي مدرسة صغيرة مطلّة على النهر. وقد تعرّضت كغيرها من المدارس الواقعة على ضفتي النهر لفيضان 1955م، وقد أزيلت بعد ذلك. وقد عثر بداخلها على مجموعة من النقود القديمة التي ترجع إلى العصرين الأيوبي والمملوكي(1).

19 ـ مدرسة الوتار

كانت أيضاً تقع على الضفة اليمنى للنهر، وقد بنيت في وقت غير معروف من عصر المماليك، وقد أزيلت بعد الفيضان، وكانت تحمل كتابة تسجل اسم معلّم البناء، وهي بالخط النسخي المملوكي وهي تنص على ما يلي:

«عمل المعلم عمر بن النجم عفا الله عنه»(2).

20 ـ زاوية القاضي القرمي

بناها القاضي حسام الدين الحسن بن رمضان القرمي(3)، ما بين سنة 716 و723هـ، وهي الفترة التي تولّى فيها قضاء الشافعية بطرابلس.

---

(1) عمرتدمري، تاريخ طرابلس، ج2، ص307.
الياس القطار، مرجع سابق، ج2، ص471.

(2) عمر تدمري، تاريخ وآثار، ج2، ص335. SOBERNHEIM, op. cit., p139.

(3) هو الحسن بن رمضان بن الحسن، القاضي حسام الدين أبو محمد بن معين الدين أبي البركات القرمي، اليافعي، القزويني. ولد سنة 680هـ/ 1281م، واشتغل في الفقه على المذهب الشافعي، سمع الحديث بدمشق من جماعة وولّى قضاء صفد مدة، كان فقيراً ثم تموّل، نقل في سنة 716هـ إلى قضاء طرابلس وبنى بها حماماً. ثم عزل سنة 723هـ/ 1322م، وأقام بدمشق. وأعطي تدريس المدرسة المسرورية. ثم استبدل تدريس المسروريّة بتدريس الرّباط الناصري سنة 725هـ/ 1324م، ثم توجه آخر عمره إلى طرابلس فتوفي بها سنة 746هـ/ 1345م(1).

---

(1) ابن بطوطة، الرحلة، ص 64.

وقد أزيلت هذه الزاوية في وقت سابق غير معروف، مع ضريح القاضي الذي كان بظاهرها.

21 ـ زاوية الدمرداش

بناها الأمير دمرداش المحمدي الظاهري برقوق[1]، ويعرف بالخاصكي، نائب طرابلس لفترتين:

الأولى من سنة 790 إلى 796هـ، والثانية من سنة 804 إلى سنة 806هـ.

ولا يعرف في أي فترة قام ببناء زاويته، كما لا يعرف موضعها، ولكن السخاوي نقل عن إبن تغري بردي، بأنّ زاوية الأمير دمرداش، كانت على بركة داوية بطرابلس، ولا يعرف أيضاً مكان تلك البركة[2].

22 ـ الخانقـاه

يعود تاريخ بناء هذه الخانقاه إلى سنة 851هـ/ 1447م، في عهد المماليك الشراكسة، وكانت الخانقاوات أبنية تجمع بين الناحية الدينية والحزبية، فهي نوع من الأربطة أقيمت للمتصوّفين أو الشيوخ المحاربين يقيمون فيها قبل أن يسهموا في الجهاد.

وقد وصلت إلينا هذه الخانقاه في حالة سيئة من التشويه، فقد تحوّلت اليوم إلى بيوت للاجئين، ولم يتبق على حالته الأصلية منها سوى بعض جدرانها

---

(1) هو الأمير دمرداش عم تغري بردي، وقرقماس الذي يقال لأولهما سيدي الصغير، ولثانيهما سيدي الكبير. ولاه أستاذه نيابة طرابلس، ثم أتابكية حلب، ثم نيابة حماه، ثم استقر بعدها في نيابة حلب سنة 802هـ/ 1398م، وهو الذي سلّم قلعتها لتمرلنك بالأمان، عزله الناصر سنة 804هـ/ 1400م، ثم سلمه نيابة حلب في سنة 806هـ/ 1402م، قتل بالإسكندرية سنة 818هـ/ 1413م، وكان محباً للعلماء كريماً حشماً، ولكن لم تكن لأملاك الناس والأوقاف عنده حرمة. وابتنى بحلب جامعاً، وبطرابلس زاوية. ولم يكن يواجه أحد بما يكره.
ـ السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص219.

(2) عمر تدمري، مرجع سابق، ج2، ص338-339.

ومدخل الإيوان القبلي، وينفتح هذا الإيوان على الصحن بعقد كبير نصف دائري، تتناوب في سنجاته قطع حجرية سوداء وبيضاء، ويقوم العقد على منكبين يعتمدان على عامودين من الجرانيت، تاجاهما اتخذا من بقايا الكنائس الصليبية المخربة. ويدور بالعقد من أعلى إفريز بارز مسطح على شكل عقد مماثل[1].

تقع الخانقاه في موقع منخفض عن طلعة العوينات، وبوابتها عبارة عن قطاع مستطيل مجوّف، يقوم عقدها على حطتين، الحطة الأولى تقوم فوق تجويفات مقرنصة يعلوها تجويف نصف دائري، ينفتح في أعلاه بمستوى الواجهة، ليشكل تجويفاً أصغر بيضاوي الشكل، ندخل من البوابة إلى ممر ضيّق، يفضي إلى فناء الخانقاه، حيث تتوسطه بركة ماء، ويحيط بالفناء من الجهة الشرقية والشمالية تسع غرف للمرابطين، ويسكنها اليوم نساء وأرامل مسنين بإشراف دائرة الأوقاف[2].

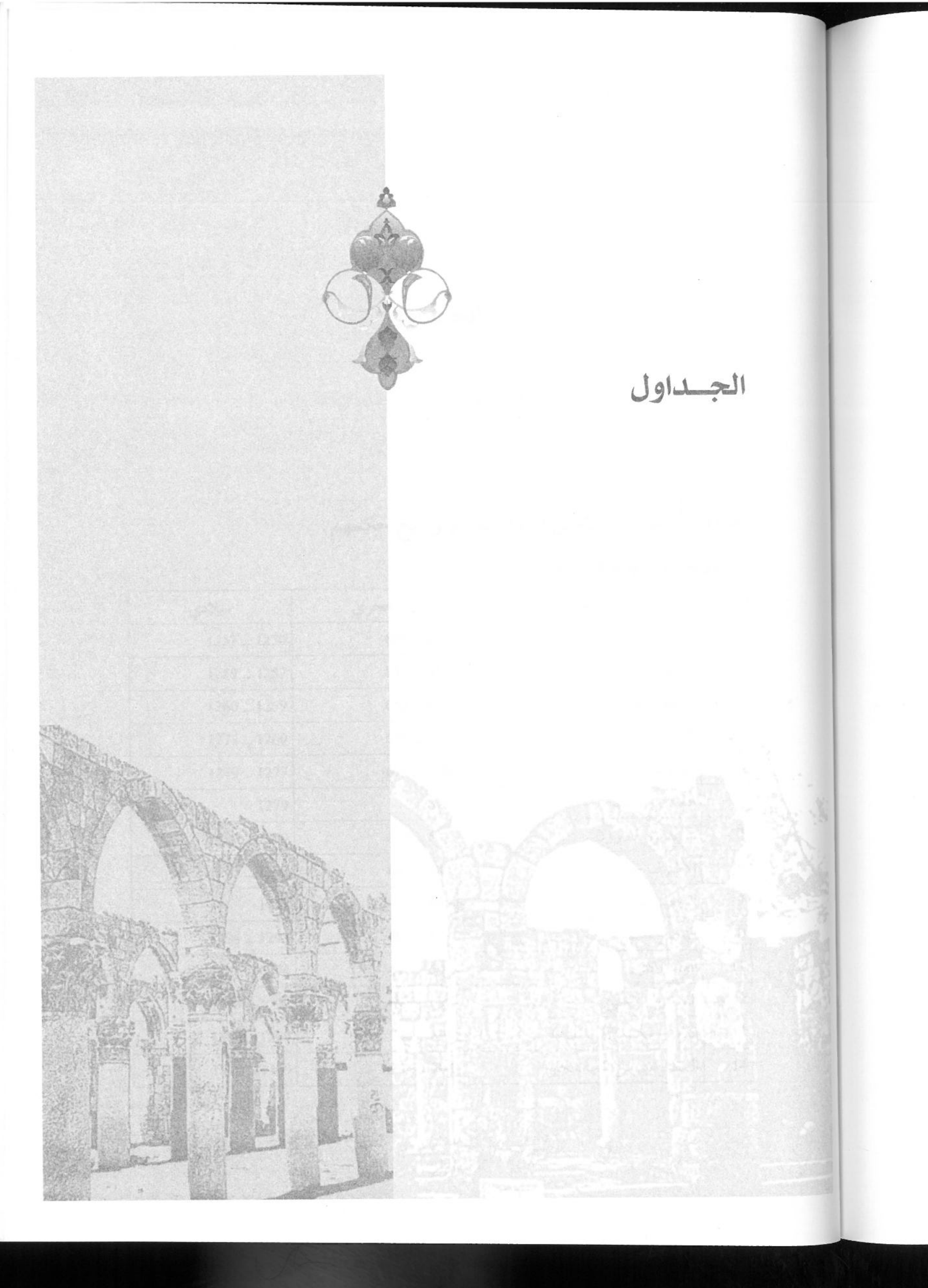
يتبين لنا مما سبق، أن الفن الإسلامي وعلى مر التاريخ قد أكتسب صفة المرونة في التعاطي مع شتى أشكال وعناصر الفنون المنتمية الى حضارات مختلفة، وهذا ما سمح للفن الإسلامي بإحتوائهاوتطويعها تبعاً لحاجته الوظائفية والجمالية المتلائمة مع الدعوة الإسلامية أما المفردات المعمارية التي أستخدمت فكانت متنوعة وعديدة، ولم تقف عند حدود معينة، بل كان وجودها لتقوية منطلقات البنية العامة للعمارة الإسلامية.

---

(1) عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص 435.

(2) عمر تدمري، تاريخ وآثار، ج2، ص 340-341.

طه الولي، المساجد في الإسلام، دار العلم للملايين، 1409هـ/ 1988م، ص 90.



الجـداول

الجـداول

جدول[1] بأسماء سلاطين المماليك، وتواريخ حكمهم:

أ ـ دولة المماليك البحرية.

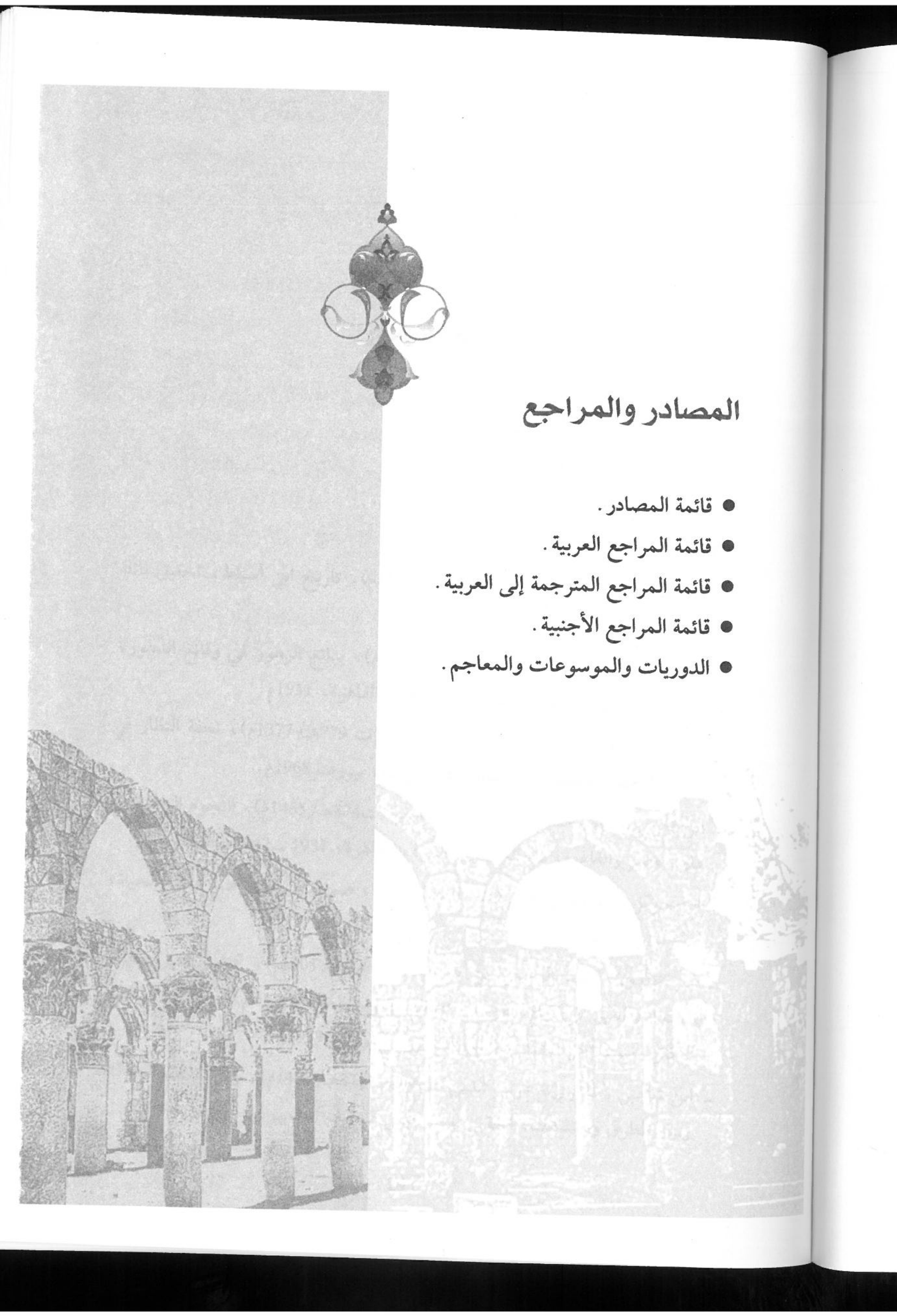
	الاسم	هجري	ميلادي
1	المعز أيبك	648 ـ 655	1250 ـ 1257
2	المنصور علي	655 ـ 657	1257 ـ 1259
3	المظفر قطز	657 ـ 658	1259 ـ 1260
4	الظاهر بيبرس	658 ـ 676	1260 ـ 1277
5	السعيد بركة خان	676 ـ 678	1277 ـ 1279
6	العادل سلامش	678	1279
7	المنصور قلاوون	678 ـ 689	1279 ـ 1290
8	الأشرف خليل	689 ـ 693	1290 ـ 1293
9	الرحيم بيدرا	693	1293
10	الناصر محمد	693 ـ 694	1293 ـ 1294
11	العادل كتبغا	694 ـ 696	1294 ـ 1296
12	المنصور لاجين	696 ـ 698	1297 ـ 1299
13	الناصر محمد (مرة ثانية)	698 ـ 708	1299 ـ 1308
14	المظفر بيبرس الجاشنكير	708 ـ 709	1309 ـ 1310

	الاسم	هجري	ميلادي
15	الناصر محمد (مرة ثالثة)	709 ـ 741	1310 ـ 1341
16	المنصور أبو بكر	741 ـ 742	1341
17	الأشرف كجك	742	1341 ـ 1342
18	الناصر أحمد	742 ـ 743	1342
19	الصالح اسماعيل	743 ـ 746	1342 ـ 1345
20	الكامل شعبان	746 ـ 747	1345 ـ 1346
21	المظفر حاجي	747 ـ 748	1346 ـ 1347
22	الناصر حسن	748 ـ 752	1347 ـ 1351
23	الصالح صالح	752 ـ 755	1351 ـ 1354
24	الناصر حسن (مرة ثانية)	755 ـ 762	1354 ـ 1361
25	المنصور محمد	762 ـ 764	1361 ـ 1363
26	الأشرف شعبان	764 ـ 778	1363 ـ 1377
27	المنصور علي	778 ـ 783	1377 ـ 1381
28	الصالح حاجي	783 ـ 784	1381 ـ 1382

2 ـ دولة المماليك البرجية، أو الجركسية:

	الاسم	هجري	ميلادي
29	الظاهر برقوق	784 ـ 791	1382 ـ 1389
30	الصالح حاجي (مرة ثانية)	791 ـ 792	1389 ـ 1390
31	الظاهر برقوق (مرة ثانية)	792 ـ 801	1390 ـ 1399
32	الناصر فرج	801 ـ 808	1399 ـ 1405
33	المنصور عبد العزيز	808	1405
34	الناصر فرج (مرة ثانية)	808 ـ 815	1405 ـ 1412
35	سلطنة الخليفة المستعين بالله المؤقتة	815	1412
36	المؤيد شيخ	815 ـ 824	1412 ـ 1421
37	المظفر أحمد	824	1421
38	الظاهر ططر	824	1421
39	الصالح محمد	824 ـ 825	1421 ـ 1422

	الاسم	هجري	ميلادي
40	الأشرف برسباي	825 ـ 841	1422 ـ 1438
41	العزيز يوسف	841 ـ 842	1438
42	الظاهر جقمق	842 ـ 857	1438 ـ 1453
43	المنصور عثمان	857	1453
44	الأشرف إينال	857 ـ 865	1453 ـ 1461
45	المؤيد أحمد	865	1461
46	الظاهر خوشقدم	865 ـ 872	1461 ـ 1467
47	الظاهر الباي	872	1467
48	الظاهر تمر بغا	872	1467 ـ 1468
49	الأشرف قايتباي	873 ـ 901	1486 ـ 1496
50	الناصر محمد بن قايتباي	901 ـ 904	1496 ـ 1498
51	الظاهر قانصوه	904 ـ 905	1498 ـ 1500
52	الأشرف جانبلاط	905 ـ 906	1500 ـ 1501
53	العادل طومان باي	906	1501
54	الأشرف قانصوه الغوري	906 ـ 922	1501 ـ 1516
55	الأشرف طومان باي	922 ـ 923	1516 ـ 1517



المصادر والمراجع

- قائمة المصادر.
- قائمة المراجع العربية.
- قائمة المراجع المترجمة إلى العربية.
- قائمة المراجع الأجنبية.
- الدوريات والموسوعات والمعاجم.

قائمة المصادر

- **القرآن الكريم.**
- ابن أسباط، حمزة بن أحمد (ت 926هـ/ 1523م)، **تاريخ ابن أسباط**، تحقيق نائلة تقي الدين، دار العودة، بيروت، 1989م.
- ابن أياس، محمد بن أحمد (ت 930هـ/ 1523م)، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، خمسة أجزاء في ستة مجلدات، دار المعارف، القاهرة، 1951م.
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله شمس الدين (ت 779هـ/ 1377م)، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، دار التراث، بيروت 1968م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن (ت874هـ/ 1465م)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1931 ـ 1942م.
- ابن حوقل، محمد بن علي (ت 367هـ/ 971م)، **صورة الأرض**، طبع مكتبة الحياة، بيروت، (د. ت).
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/ 1405م)، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، تسعة أجزاء، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1959م.
- ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل (ت 873هـ/ 1468م)، **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، تحقيق بول رافيس المطبعة الجمهورية، باريس، 1894م.

- ابن الشحنة، محب الدين محمد بن محمود الحلبي الحنفي (ت 890هـ/ 1492م)، **الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب**، نشر يوسف سركيس، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1909م.
- ابن شداد، عز الدين محمد (ت 684هـ/ 1285م)، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، ج 1 ـ 2، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية، دمشق، 1953م، ج 3، تحقيق يحي عبارة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1978م.
- ابن طولون، شمس الدين محمد (ت 953هـ/ 1546م)، **أعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى**، تحقيق عبد العظيم حامد، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، 1973م.
- ابن عبد الظاهر، محي الدين (ت 692هـ/ 1292م)، **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض، 1976م.

تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1961م.

- ابن العبري، غريغوريوس أبي الفرج بن هرون الملطي(ت 687هـ/ 1289م)، **تاريخ مختصر الدول**، طبعة الأب أنطوان صالحاني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1980م.
- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت 518هـ/ 1111م)، **تاريخ الدول والملوك**، ج 7، تحقيق قسطنطين زريق، المطبعة الأمركية، بيروت، 1936 ـ 1942م.
- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أحمد (ت 851هـ/ 1448م)، **الأعلام بتاريخ أهل الإسلام**، تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي، دمشق، 1977م.
- ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر، أبو الوفاء (ت 774هـ/ 1372م)، **البداية والنهاية**، 14 جزءاً في سبعة مجلدات، مطبعة السعادة، القاهرة، 1929م.
- ابن محاسن، **المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية**، تحقيق عدنان البخيت، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1981م.

- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت 699هـ/ 1299م)، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، خمسة أجزاء، تحقيق جمال الدين الشيال وأخرون، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1960 ـ 1972م.
- ابن يحي، صالح بن يحي بن صالح بن الحسين (ت 850هـ/ 1466م)، **تاريخ بيروت**، وهو أخبار السلف من ذرية بحتر بن علي أمير الغرب ببيروت، حققه فرنسيس هورس وكمال الصليبي، بيروت، دار المشرق، 1969م.
- أبو الفداء، إسماعيل بن علي (ت 732هـ/ 1331م)، **المختصر في أخبار البشر**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1960م.
- الإصطخري، أبو أسحق إبراهيم بن محمد (ت 340هـ/ 951م)، **كتاب مسالك الممالك**، طهران، 1927م.
- الدواداري، أبو بكر بن عبد الله (ت736 هـ/ 1336م)، **كنز الدرر وجامع الغرر**، أو كنز الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت ويمر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1960م.
- الذهبي، شمس الدين محمد (ت 748هـ/ 1347م)، **تاريخ دول الإسلام**، جزءان، دار أحياء التراث الإسلامي، 1327هـ.
- السخاوي، شمس الدين محمد (ت 902هـ/ 1496م)، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، 12 جزءاً في ستة مجلدات، مكتبة الحياة، بيروت، (د. ت).
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت 911هـ/ 1505م)، **تاريخ الخلفاء**، بيروت، دار الفكر، 1974م.
- القلقشندي، أحمد بن علي (ت 821هـ/ 1254م)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، 14 جزءاً، نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية، القاهرة، 1963م.
- مفضل بن أبي الفضائل (ت 759هـ/ 1357)، **النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد**، باريس، 1920م.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ/ 1441م)، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، أربعة أجزاء في 12 مجلد، تحقيق محمد مصطفى زيادة مطابع لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1934 ـ 1942م.

الخطط المقريزية، المعروفة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر، بيروت (د. ت)، نسخة مصورة عن مؤسسة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1845م.

- النابلسي، عبد الغني إسماعيل (ت 1143هـ/ 1730م)، **التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية**، حققه هربرت بوسه، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، 1971م.

حلة الذهب الإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز، حققه صلاح الدين المنجد، دمشق، (د. ت).

- النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت 927هـ/ 1520م)، **الدارس في تاريخ المدارس**، جزءان، تحقيق جعفر الحسيني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1988م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت732هـ/ 1331م)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، 27 جزءاً، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، (د.ت).
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت 626هـ/ 1288م)، **معجم البلدان**، خمسة مجلدات، دار صادر، بيروت، 1955م.

قائمة المراجع العربية

- الألفي، أبو صالح، **الفن الإسلامي**، أصوله، فلسفته، مدارسه، دار المعارف بمصر، 1969م.
- ألوف ميخائيل، **تاريخ بعلبك**، المطبعة الأدبية، بيروت 1926م.
- الإنسي، عبد الباسط، **دليل بيروت، تقويم الإقبال** لسنة 1327هـ، مطبعة جريدة الإقبال، 1910م.
- بهجت بك، محمد، **ولاية بيروت**، مطبعة الولاية، 1933م.
- تدمري، عمر عبد السلام، **تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك**، ج 2، مطبعة دار البلاد، 1974م.

تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، عصر دولة المماليك، ج 2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1981م.

- التميمي، وبهجت، **ولاية بيروت**، دار لحد خاطر، بيروت، 1979م، ج 2.
- حبلص، فاروق، **طرابلس المساجد والكنائس**، دار الإنشاء والطباعة والنشر، 1988م.
- حتي، فيليب، **تاريخ لبنان وسورية وفلسطين**، ترجمة كمال اليازجي، بيروت، 1958م.

- حجازي، عبد الرحمن، **دليل معالم صيدا الإسلامية**، المركز الثقافي الإسلامي، صيدا، لبنان، 1983م.
- حسن، زكي محمد، **فنون الإسلام**، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1948م.
- حطيط، أحمد، **تاريخ لبنان الوسيط، دراسة في مرحلة الصراع المملوكي الصليبي، (685 ـ 690/ 1260 ـ 1291)**، دار البحار، بيروت، 1986م.
- حلاق، حسان، **أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني**، المركز الإسلامي للإعلام والإنماء، بيروت، لبنان، 1405هـ ـ 1985م.

بيروت المحروسة في العهد العثماني، الدار الجامعية، بيروت، 1987م.

- الحوت، عبد الرحمن، **الجوامع والمساجد الشريفة في بيروت**، مطبعة المقاصد الإسلامية، بيروت، 1966م.
- خوري، منير، **صيدا عبر حقب التاريخ**، المكتب التجاري للطباعة، بيروت، 1996م.
- الدويهي، أسطفان، **تاريخ الأزمنة**، نشره وعلق على حواشيه، الأباتي بطرس فهد، بيروت، 1976م.
- الرفاعي، قاسم الشماعي، **بعلبك في التاريخ، المكتب الإسلامي**، بيروت، 1984م.
- الريحاوي، عبد القادر، **العمارة العربية الإسلامية**، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1979م.
- الزعتري، غسان، **عودة المسجد العمري الكبير في صيدا**، صيدا، 1986م.
- الزين، أحمد عارف، **تاريخ صيدا**، مطبعة العرفان، صيدا، 1913م.
- سالم، عبد العزيز، **طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي**، مطابع رمسيس، الإسكندرية، 1967م.

دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، جامعة بيروت العربية، 1970م.

القيم الجمالية في فن العمارة الإسلامية، مطبعة المصري، بيروت، 1962م.

- سامح، كمال الدين، **العمارة الإسلامية في مصر**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د. ت).
- سرور، محمد جمال الدين، **دولة بني قلاوون في مصر**، مطبعة الاعتماد، القاهرة، 1947م.
- سليم، محمود رزق، **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي**، المطبعة النموذجية، القاهرة، 1962م.
- شبارو، عصام محمد، **تاريخ بيروت**، دار مصباح الفكر، بيروت، 1986م.
- الصليبي، كمال، **منطلق تاريخ لبنان**، منشورات كرافان، بيروت، 1979م.
- طرخان، إبراهيم، **مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1960م.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح، **الحركة الصليبية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971م.

مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1976م.

- العبادي، أحمد مختار، **قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1982م.
- عبد الجواد، توفيق، **تاريخ العمارة والفنون الإسلامية**، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، 1970م.
- **العطيفي**، رمضان، رحلة إلى **طرابلس الشام**، نشرها ستيفن فيلد، بيروت، 1970م.
- عوض، منذر، **قصة مدينة**، دليل طرابلس السياحي، (د. ت).
- القاياتي، محمد، نفحة الشام في رحلة الشام، بيروت، 1981م.
- القطار، الياس، **نيابة طرابلس في عهد المماليك**، أطروحة دكتوراه في التاريخ، الجامعة اللبنانية، كلية الأداب والعلوم الإنسانية، الفرع الثاني، 1992م.

الشرق العربي في العصور الوسطى، الدار اللبنانية للنشر الجامعي، انطلياس، 1996م.

- كرد علي، محمد، **خطط الشام**، ج3، 5، مطبعة الترقي، دمشق، 1925 ـ 1927، ج6، مطبعة المفيد، دمشق، 1928م.
- لمعي، صالح مصطفى، **مساجد بيروت**، جامعة بيروت العربية، 1978م.

العمارة الإسلامية في العصر المعني في لبنان، دار النهضة العربية، بيروت، 1405هـ ـ 1985م.

- مرهج، عفيف، **أعرف لبنان**، بيروت، 1972م.
- مكي، محمد علي، **لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني (635 ـ 1516)**، ط 2، دار النهار للنشر، بيروت، 1979م.
- نصر الله، حسن عباس، **تاريخ بعلبك**، مؤسسة الوفاء، بيروت، 1984م.
- الولي، طه، **تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت**، دار الكتب، بيروت، 1973م.

المساجد في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1409هـ ـ 1988م.

قائمة المراجع المترجمة إلى العربية

1 ـ التطيلي، بنيامين، **الرحلة**، ترجمة عزرا حداد، طبعة بغداد، (د. ت).

2 ـ حتي، فيليب، **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، جزءان، ترجم الجزء الأول جورج حداد وعبد المنعم رافق، وترجم الجزء الثاني كمال اليازجي، أشرف على مراجعته وتحريره جبرائيل جبور، دار الثقافة، ط 2، بيروت، 1958م.

3 ـ ديماند، م.س.، **الفنون الإسلامية**، ترجمة أحمد عيسى، دار المعارف في القاهرة، 1954م.

4 ـ غيز، هنري، **بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن**، تعريب مارون عبود، دار المكشوف، بيروت، 1949م.

5 ـ كونل أرنست، **الفن الإسلامي**، ترجمة أحمد موسى، دار صادر، بيروت، 1966م.

6 ـ موير، وليم، **تاريخ دولة المماليك في مصر**، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مطبعة قائمة.

قائمة المراجع الأجنبية

1 - Abdel-nour, Antoine, **Introduction l'histoire urbaine de la syrie ottamane (XVI - XVIII) siècle**, puplication de l'université libanaise, Beyrouth, 1982.

2 - Berchem,Van, **Voyage en Syrie**, dans Mémoires de l'institut Français d'archéologie Orientale du Caire, T.37, 1914.

3 - Cahen, CI., **Orient et Occident aux temps des Croisades**, Paris, 1938.

4 - Chahab-Ed-dine.Said, **Géographie Humaine de Beyrouth**, Paris, 1969.

5 - Chehab,Maurice, **Rôle du liban dans l'histoire de la soie**, Beyrouth, 1967.

6 - Condé, Bruce, **Tripoli of Lebanon**, Beyrouth, 1962.

7 - Demombynes, G., **La syrie à l'époque des Mamelouks**, d'après les auteurs arabes, Paris, 1923.

8 - Deschamps, P., **Les Châteaux des Croisés en Terre Sainte 1**, le Crac des Chevalies, Paris, 1934.

9 - Eislen, Frederik Carl, **Sidon, a study in oriental history**, New York, 1907.

10- Grousset, R., **L'Epopée des Croisades**, Paris, 1936.

11- Hautecoeur, wiet, **Les Mosquées du Caire**, Paris, 1932.

12- Heyd, W., **Histoire du commerce du levant au moyen-âge**, T.1, Leipzig. 1936.

13- jidejian, N., **Baalbek Heliopolis city of the sun**, Dar al-Machreq, Beiruth, 1986.

14- Leibich, H. **The Architecture of The Mamluk city of Tripoli**, Kanada, 1975.

15- Pillement, G., **Liban, Syrie, et Chypre**, Paris, Picard, 1971.

16- Sobernheim, Mortiz, **Corpus inscriptionum Arabicarum**, Institut français du Caire, T.(XXV), 1909.

17- Wiegand, T., **Baalbek**, Berlin, 1925.

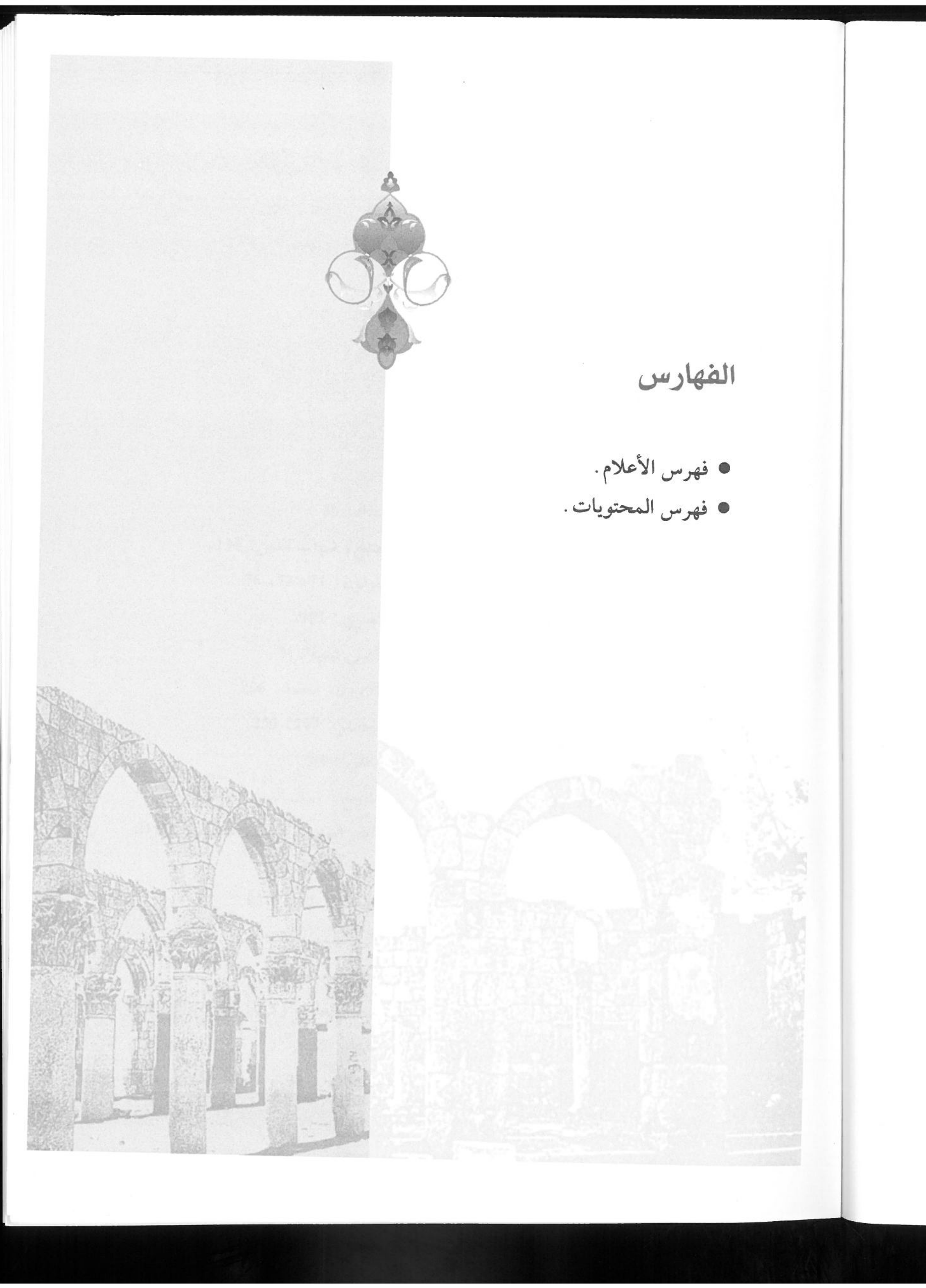
18- Wiet, G **Notes dépigraphie syro Musulmane**, librairie paul Geuthneur, Paris, 1924.

الدوريات، والموسوعات، والمعاجم

1 _ مجلة الجريدة، السنة الثلاثون، رقم 7162، حزيران، 1982م.

2 _ البستاني، بطرس، دائرة المعارف، مطبعة المعارف، بيروت، 1881م، م11.

- Encyclopédie de L'Islam. E.I[2].
- Ayalon, D.: art., **«Hisar»** T. IV, p.p. 485 - 492.
- Elisséeff, N.: art., **«Bayrut»**, T., 1, p. 1172.
  art., «hisn al- Akrad» T., 111, p.p. 520 - 523.
- Lewis, B.: art., **«AynDjalut»**, T., 1, p. 810 - 811.
- Rabie, H.: art., **«Kalawun»** T., 111, p.p. 505 - 507.
- Bulletin du Musée de Beyrouth.
  «Baalbek», La Grande Mosquée, T. IX, p. 113, T. XII, p.p. 53 - 54.



الفهارس

- فهرس الأعلام .
- فهرس المحتويات .

فهرس الأعلام

ب

فهرس المحتويات

لبنان
في العهد المملوكي
أهم الآثار الدينية

يتناول هذا الكتاب بحثاً تاريخياً وأثرياً لمناطق لبنانية لعبت دورا مهماً في تاريخ لبنان، لكنها لم تَحْظَ بالدراسة الشاملة من كثير من الباحثين، الذين اشتغلوا في هذا المجال خاصة في فترة الحكم المملوكي. إلا أن إيراد المعلومات التاريخية والأثرية، وإبراز حقيقة تفاعلها وفعلها في سير التاريخ ومجرى الزمن، يهدف الى إبراز الأحداث وتوضيح تحركات الشعوب والأمم ضمن الإطار العام للتاريخ، أتت مرتكزة الى الأسباب والوقائع التي تنتج هذه التحركات، فالحضارة الإنسانية لا يمكن الحديث عنها دون تاريخ وآثار تدل عليها، وهما في النهاية تسجيل لتحركات الشعوب وحركة استيطانها في الأقاليم، وبحث هذه الأقوام وفاعليتها في الخضم العلمي وما بلغته من علم وفن ورقي حضاري.

ويعتبر عصر دولتي المماليك البحرية والبرجية، العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر وبلاد الشام، فقد كان الإقبال عظيماً على تشييد العمائر من جوامع ومدارس وغيرها، وقد ظهر التنوع والإتقان في شتى العناصر المعمارية، من واجهات وقباب ومآذن وزخارف مختلفة، وهكذا ألّفت هذه العناصر المعمارية والزخرفية مجموعة متناسقة تثير الإعجاب بجمالها وتعادل أجزائها التي ما زالت تستحق الدراسة وتسليط الضوء عليها.


ISBN 978-9953-508-08-5



دار المواسم
للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: 236 890 (3 00961) - تلفاكس: 933 734 (009617)
ص.ب: 5866 / 13 الرمز البريدي: 2080 1102 بيروت - لبنان
بريد إلكتروني: mawassem@hotmail.com